إعجاز القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس

الدكتورة سناء فضل عباس

دار النفائس
للنشر والتوزيع

طبعة مزيدة ومنقحة

إعجاز القرآن الكريم

حقوق الطبع محفوظة ©

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

الطبعة الثامنة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٨/٨/٢٨٢٦

عباس، فضل حسن
إعجاز القرآن الكريم /فضل حسن عباس.-ط١.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٤
(٣٦٠) ص.
ر.إ.: ٢٨٣٦/ ٨/ ٢٠٠٨
الواصفات:/القرآن الكريم//اعجاز القرآن//

تنويه مهم

© تحت طائلة المسؤولية القانونية يمنع تصوير هذا الكتاب أو استخدامه بأنواع النشر كافه. ®

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

دار النفائس
للنشر والتوزيع-الأردن
9 789957 477608

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا الكتاب

إن هذا الكتاب قد استوعبت فيه خطة وزارة التعليم العالي المقررة على طلاب الكليات الجامعية في مادة الإعجاز القرآني.

راجين أن يجد فيه الطلاب عامة، وطلاب كليات المجتمع، والمعاهد والجامعات بخاصة، بغيتهم وغنيتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٧].

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [فاطر: ١ - ٢].

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول الله الرحمة المهداة والنعمة المسداة وعلى آله وصحبه الطيبين الأبرار ومن تبعهم بإحسان... اللهم صَلِّ وسَلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أبداً، أفضل صلاة صليتها على أحد من خلقك، صلاة وسلاماً تامين دائمين متلازمين إلى يوم الدين.. اللهم صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد وسلم تسليماً كثيراً يا رب العالمين... أما بعد..

فإن من نعم الله علينا أن وفقنا لإخراج هذا الكتاب (إعجاز القرآن الكريم) راجين

أن يجد فيه طلاب الحق بعامة، وطلاب كليات المجتمع، والمعاهد والجامعات بخاصة بغيتهم وغنيتهم، ولقد توخينا فيه - ما استطعنا- حسن العرض، ويسر الأسلوب، وجدة المادة، وسهولة العبارة.. ولم نأل جهداً في إخراجه بالصبغة العلمية التي تليق بمثل هذا الموضوع، وموضوع الإعجاز من أعظم الموضوعات شأناً وأجلها خطراً.

ولقد حرصنا فيه كل الحرص مع ما تقدم على أمانة النقل حيث اجتهدنا أن ننسب كل قول إلى قائله أياً كان، وإن فاتنا شيء من هذا - ونرجو ألا يكون - فإنه من السهو الذي نرجو الله أن يغفره.

أما ما ذكرناه دون أن ننسبه لأحد فهو مما فتح الله لنا فيه أبواباً من الفهم، راجين أن يوفقنا الله لشكر نعمه، وننبه كذلك على أن ما ناقشنا فيه بعض الكاتبين الفضلاء، لم نقصد فيه سوى غاية نبيلة هي أمانة العلم، نرجو أن يجد فيها القارئ الكريم ما يقنع ويمتع.

ومن نعم الله - نرجو الله أن يوفقنا لشكرها - أنني كتبت هذا الكتاب أنا وابنتي سناء، وقد زاولت تدريس هذه المادة في أكثر من كلية من كليات المجتمع، فصولاً عديدة، وأعترف هنا أنني عولت عليها في كتابة كل ما أخرجت للمكتبة. ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين، واجعلنا اللهم من الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا، وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وقد جاء الكتاب في تمهيد وبابين:

التمهيد: وفيه أمور عامة وموضوعاتها حاجة الناس إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح، وشروط المعجزة، والمقصود من

إعجاز القرآن، والتحدي ومراحله.

وفي الباب الأول: تاريخ الإعجاز وفيه فصلان:

الفصل الأول: جهود الأقدمين والأدوار التي مرت بها كتابة الإعجاز.

الفصل الثاني: دراسات المحدثين في الإعجاز.

وفي الباب الثاني: وجوه الإعجاز في ستة فصول:

الفصل الأول: الإعجاز البياني.

الفصل الثاني: الإعجاز العلمي.

الفصل الثالث: الإعجاز التشريعي.

الفصل الرابع: الإخبار عن الأمور الغيبية.

الفصل الخامس: الإعجاز النفسي والروحي.

الفصل السادس: ما يسمى بالإعجاز العددي.

والله نسأل أن ينفع به ويأجرنا عليه، إنه سميع قريب، وصَلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ.د. فضل حسن عباس

سناء فضل عباس

غرة ربيع الأول ١٤١٢هـ

١٦ أيلول ١٩٩١م

تمهيد:

حاجة الناس إلى الرسل عليهم السلام وتأييدهم بالمعجزات

من نعم الله تبارك وتعالى أنه لم يخلق الناس ويدعهم وشؤونهم، إنما تكفل لهم سبحانه بما يصلح شؤونهم، ويكفل لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم، ذلك لأن الإنسان مهما أوتي من علم، وأودع الله فيه من عقل، فإن ذلك لا يغنيه عن الهداية الربانية، لذا كان من رحمة الله وحكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد ويبينون لهم ما يصلحهم، ويحجزونهم عما فيه الشر والأذى.

ولما كان الناس حريصون على ما ألفوه، شديدي التعلق بما عرفوه، يأسرهم التقليد، ويستهويهم الهوى، وتستعبدهم الشهوة، كان أكثرهم لا يستجيبون إلى الرسل، وكانوا يكذبونهم في دعواهم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:٩-١٢].

ومن هنا كان من رحمة الله سبحانه أن يؤيد هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات، تصدقهم في دعوى النبوة، حتى لا تبقى شبهة تحيك في نفس ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ

﴿ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال:٤٢].

هذا الذي أيد الله به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام هو المعجزة، فما هي المعجزة؟ وما شروطها؟ وما الفرق بينها وبين ما يشتبه بها؟ وما أصل اشتقاقها اللغوي؟.

المعجزة

أصل مادة معجزة، يقول الراغب الأصفهاني - رحمه الله - «عجز: عَجُزُ الإنسان مؤخَّرُه، وبه شُبه مؤخَّرُ غيره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] والعجز أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمر، أي: مؤخّره، كما ذكر في الدُّبر، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ [المائدة: ٣١] وأعجزتُ فلاناً وعَجَّزته وعاجزته: جعلته عاجزاً.. والعجوز سميت لعَجْزِها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[1] [هود: ٧٢].

والراغب إمام ألْـمَعيّ، وكتابه المفردات من خير المعاجم القرآنية حقيقة، ونتمنى أن يقيِّض الله من ينسج على منواله.

وذكر ابن فارس[2] أن العين والجيم والزاي تدل على أصلين: أحدهما الضعف، والآخر مؤخر الشيء، وجاء في بعض المعاجم أن معنى العجز: الضعف.

وأمام هذه الآراء الثلاثة، نرى أولاها قول الراغب الأصفهاني، فأصل العجز في اللغة مؤخر الإنسان، واستعير لغيره، وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى وبين القصور عن الشيء، فإن التأخر والقصور متلازمان، لأن من تأخر عن غيره فإنما يرجع ذلك إلى تقصيره، لسنا مع ابن فارس - إذن - بأن هذه المادة تدل على أصلين اثنين، وهو مؤخر الشيء، والتقصير إنما هو ناتج عن هذا المعنى.

والمتدبر لآي القرآن الكريم يدرك هذه القضية، واللغويون والمفسرون مجمعون على أن ليس للعجز إلا هذا المعنى.

---

(١) المفردات ص ٣٢٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢).

هذا وإن أمانة العلم وجدية البحث تقتضي منّا أن ننبه على ما ورد في كتاب جديد لمؤلف نحبه ونشكر له جهوده الطيبة، وهو الدكتور صلاح الخالدي يقول في كتابه:

«وعند إمعانِ النظر في أصْلَي كلمة "العجز" وتعريفاتها واستعمالاتها واشتقاقاتها تجد أنها تحمل معنيين متضادين، العجز والقدرة.. فأعجاز النخل: أواخرها، وهي أقوى جزء فيها، لأنها تحمل كل ما فوقها، وأعجاز الليل: أواخره، وهي اللحظات التي تسبق الفجر، وهي أشد أجزاء الليل ظلاماً وحلوكة وسواداً، وأعجاز الإبل أقوى ما فيها لأنها تحمل عليها الأحمال والأثقال، وعجز البيت أقوى من صدره: لأن فيه القافية التي تربطه مع باقي أبيات القصيدة.

وعندما يتحدى المتحدي الآخرين، فإنه لا يتحدى إلا الأقوياء، ومن يظنون أن بمقدورهم غلبته وتعجيزه، إذ إنه لو تحدى الضعفاء فلا فضل له ولا فخر في غلبته لهم، بل ربما كان هذا مأخذاً يؤخذ عليه »[١].

ثم حاول الكاتب تطبيق هذا الذي قاله على آي القرآن الكريم والأحاديث النبوية فقال «.. والمعجزة هي اسم الفاعل من ذلك الفعل، فالتاء فيها هي تاء التأنيث، وليست هاء المبالغة، كما قال بعض العلماء، لأنك تقول: مؤمن ومؤمنة، ومبصر ومبصرة، كما تقول: معجز ومعجزة، والله أعلم »[٢].

وعند قوله سبحانه: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وهي امرأة إبراهيم أبينا عليه الصلاة والسلام، يقول: إن هذه الكلمة يتمثل فيها الضعف والقوة معاً، وكذلك عند قوله سبحانه عن امرأة لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الشعراء ١٧٠ -١٧١]، يقول:

---

(١) البيان في إعجاز القرآن/ د.صلاح الخالدي ص ٢٠- ٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣.

«فامرأة إبراهيم عليه السلام، عجوز، عاجزة عن الحمل والإنجاب، فتحولت بإذن الله من عجوز عاجزة إلى عجوز قوية، لقد تمثلت فيها قوة العاجز.

أما امرأة لوط – عليه السلام – فعلى العكس من امرأة إبراهيم عليه السلام – حيث كان بمقدورها أن تكون قوية، وأن تلحق بالركب المؤمن الناجي، لكنها عجزت عن ذلك وضعفت، فبقيت مع القوم الهالكين، لقد أعجزها كُفرها عن النجاة، لقد تمثل فيها عجز القوي.

إنّ امرأة ابراهيم – عليه السلام – عجوز، نموذج لقوة العاجز، وإن امرأة لوط – عليه السلام – عجوز، نموذج لعجز القوي[1].

ويقول عند قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وقد جاءت أعجاز النخل مذكرة في سورة القمر، وصف بها وصف مذكر ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وكان منظوراً فيها إلى مجموع النخل، وجموع التكسير يجوز تذكيرها وتأنيثها، تقول: جاء الرجال، وجاءت الرجال.

بينما جاءت أعجاز النخل مؤنثة في سورة الحاقة، ووصف بها وصف مؤنث ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ حيث كان منظوراً إلى أفراد النخل، أي: منظوراً فيها إلى كل نخلة على حدة، والنخلة مؤنثة.

ويتمثل في «أعجاز النخل، معنى الإعجاز، وهو عجز القوي، أو اجتماع الضعف مع القوة، فعجز النخلة هو أقوى شيء فيها، لأنه يحمل ما فوقه من جسمها، ولكن هذا العجز القوي يضعف ويعجز عن الثبات والصمود أمام العواصف الشديدة، ولذلك ينقعر ويسقط بما يحمل، ويكون خاوياً مُلقى على الأرض»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠.

ويستمر الكاتب في التدليل على ما ذهب إليه من الأحاديث الشريفة:

١-عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «أيعجِز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن»[1].

فالمسلم قادر على أن يفعل ذلك، فلماذا يتعاجز عنه؟

٢-عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يكسب في اليوم ألف حسنة؟ قالوا: ومن يطيق ذلك؟ قال: يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، وتمحى عنه ألف سيئة»[2].

فهم قادرون على كسب ألف حسنة في اليوم، ولكنهم ظنوا أنهم عاجزون عن ذلك ولا يطيقونه، والرسول ﷺ أنكر عليهم تعاجزهم وبين لهم قدرتهم على ذلك.

٣-عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم: أتعجز يا ابن آدم أن تصلي أول النهار أربع ركعات أكفك بهن آخر يومك»[3] فكل مسلم في مقدوره واستطاعته صلاة أربع ركعات، وغير مطلوب منه ادعاؤه عجزه عنها[4].

وما ذكره الكاتب الفاضل يوجد عليه أكثر من ملحظ علمي، إليكم بيان ذلك:

أولاً: قول الكاتب إن كلمة العجز تحمل معنيين متضادين هما العجز والقدرة، قول فيه غرابة عن أوضاع اللغة، فهو فضلاً عن أنه لم يقل به أحد من العلماء من قبل، فإنه مناف لدقة اللغة، وإحكامها وموضوعيتها، فإن من دقة العربية أن لا يكون فيها هذا التمويه، والذي يفهم من كلام الكاتب أن كلمة العجز من الأضداد الذي هو قسم من المشترك، وهذا ليس

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (٨١١) في كتاب الصلاة باب فضل قراءة (قل هو الله أحد).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٧٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٠١).

(٤) البيان في إعجاز القرآن، د.صلاح الخالدي ص ٢٢.

بمقبول، فإن كون الكلمة من الأضداد، معناها أن تدل الكلمة على معنيين متضادين كل على حدة، فكلمة (أَسَرّوا) في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣] من الأضداد: لأنها يمكن أن تفسر بالإظهار، ويمكن أن تفسر بالخفاء، فهي صالحة لأن تفسر بكل من المعنيين على حدة، وكلمة (عسعس) في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧] من الأضداد، فيمكن أن تفسر بالإقبال أو الإدبار، وهذا باب واسع وله كتب خاصة به يطلع عليها من شاء.

أما كلمة (العجز) فلا يمكن أن تفسرها بالعجز تارة وبالقدرة تارة أخرى، وإذا لم تكن من الأضداد فلا يمكن أن تدل على معنيين متضادين، لأن هذا يتنافى مع دقة اللغة وأصالتها، وهذا ما قرره أئمة التفسير والبيان، ويكفي أن نذكر هنا كلمة الزمخشري – رحمة الله عليه – «إن اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين»[(١)].

وما استدل به الكاتب لما ذهب إليه لا يخلو من مناقشة، فـ (أعجاز النخل) التي ذكرت في الكتاب الكريم لم تذكر في معرض القوة، ولم يقل أحد: إن عجز البيت أقوى من صدره لوجود القافية فيه، بل ربما كانت هذه الصفة أولى بها صدر البيت، وكون القرآن يتحدى الأقوياء ليس فيه دليل على ما ذهب إليه الكاتب كذلك، لأننا نعلم بداهة أن كلمة الإعجاز الاصطلاحية لم تكن مستعملة في عصر النبوة، وكون العجز مؤخر الشيء فهو أقوى ما فيه، غير مقبول كذلك، لأننا لا يمكن أن نخلط بين الوضع اللغوي للكلمة، وما يترتب على هذا الوضع من صفات عارضة.

إن أعجاز النخل إنما لوحظ فيها معنى مؤخر الشيء بقطع النظر عن قوتها أو ضعفها ولا صلة لاقتلاع الريح لها بالوضع اللغوي، فهي أعجاز، اقتلعها الريح أم لم يقتلعها، إن أعجاز الليل روعي فيها هذا المعنى كذلك وهو التأخر، بقطع النظر عن كونها مدلهمة أو مقمرة، أو

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٩).

صيفاً أو شتاءً، وإن عجز البيت لوحظ فيه هذا المعنى كذلك بقطع النظر عن كونه ركيكاً أو جيداً.

ثم إن محاولة الكاتب تطبيق هذا على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية كقوله عن امرأة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، «فتحولت فيها بإذن الله من عجوز عاجزة إلى عجوز قوية، لقد تمثلت فيها قوة العاجز» وعن امرأة سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام «لقد أعجزها كفرها عن النجاة، لقد تمثل فيها عجز القوي»، أقول: إن مثل هذه المحاولة كان جديراً أن نبعدها وأن نبعتد بها عن تأويل آي القرآن الكريم، فالعجوز كما قال الراغب – إنما سميت كذلك لعجزها عن كثير من الأمور، أما كونها أكرمها الله تعالى بمعجزة خارقة للعادة ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢]، أقول: أما كونها قد أكرمها الله بهذا فليس له علاقة بالوضع اللغوي، وإلا يمكننا أن نقول: إن الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ يدل على الضعف والقوة كذلك، وكون امرأة لوط عليه الصلاة والسلام اختارت الكفر، لا دخل له في المعنى اللغوي كذلك.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة فليس فيها ما يشير إلى هذين المعنيين المتضادين من قريب أو بعيد، بل إن المتدبر لها وللسياق الذي جاءت فيه، يدرك ببداهة أن لا إشارة فيها ألبتة إلى معنى القوة، فقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والتسبيح مئة مرة، وصلاة أربع ركعات، كلها ليست من الأمور التي تحتاج إلى قوة مادية أو علمية، بل هي مما يتساوى فيه الناس جميعاً، وليس بعض الناس فيها أقوى من بعض.

إن كلمة الإعجاز لا تدل إلا على مؤخر الشيء، وعلى التقصير عن بلوغ المراد، ولا يمكن أن تحمل في طياتها معنى القدرة، ولا ينبغي أن تخلط بين الوضع اللغوي للكلمة، وبين ما يكون لها من صفات خَلقية أو خُلقية.

وقد يكون للكلمة ظلال كثيرة، ولوازم متعددة، فليس من الصواب أن تخلط بين

الوضع اللغوي، وبين ما لها من ظلال أو لوازم، ومن هنا بيّن العلماء أن للدلالات أقساماً متعددة، فهناك دلالة المطابقة، وهي دلالة اللفظ على المعنى الذي وضع له، وهناك دلالة الالتزام، وهي دلالة الشيء على بعض لوازمه، وهذه بالطبع ليست دلالة لغوية.

ثانياً: عند قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠] يذكر أن النخل ذكر لأنه نظر فيه إلى مجموع النخل، وفي ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أنث الوصف لأنه نظر فيه إلى أفراد النخل، ويحسن أن نتحدث هنا عن قضيتين اثنتين الأولى تتصل بالنحو، والثانية تتصل بالصورة البيانية.

القضية الأولى: أما ما يتصل بالنحو، فإن النخل يذكّر ويؤنث، يقال: هذا نخل، وهذه نخل، فلوحظ وصف التذكير في سورة القمر، ووصف التأنيث في سورة الحاقة[1]، والآيتان في ذلك سواء، فلم ينظر إلى المجموع في سورة القمر، ولا إلى الإفراد في سورة الحاقة، فاللفظ واحد في السورتين.

أما مراعاة أحد الجانبين في سورة والآخر في سورة أخرى، فهو ما توضحه القضية الثانية وهي الصورة البيانية.

القضية الثانية: لأول وهلة يظن أن التشبيه واحد في الآيتين، ولكن الرماني – رحمه الله – أدرك بيقظة فكره، وشفافية إحساسه فرقاً بين التشبيهين، فعند حديثه عن التشبيه البليغ، ذكر له طرقاً أربعاً:

١-إخراج ما لا تقع الحاسة عليه إلى ما تقع عليه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور:٣٩].

٢-إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ص ٣١٠.

﴿ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن:٢٤].

٣-إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، كقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠].

٤-إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

ويتبادر لأول وهلة أن التشبيهين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ و ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ من واد واحد، لاتحاد المشبه والمشبه به، ولكن الرماني كان دراكاً للمحة، غواصاً على معرفة ما بين المعاني من فروق، فلم يجعل الآيتين الكريمتين من واد واحد، بل جعل لكل من الآيتين الكريمتين وادياً خاصاً بها، ومسلكاً مستقلاً، فقوله سبحانه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ جعله من باب ما لم تجر به عادة، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ من باب ما لم يعلم بالبديهة، وهو لعمر الحق ملحظ يدل على ذكاء وفطنة، وأحوذية ودقة، ذلك أن تشبيه الناس، وقد اقتلعت الريح رؤوسهم عن أجسادهم، ليس من الأمور المعروفة عند الناس، فاختار له القرآن الكريم مشبهاً به ألفوه كثيراً في بيئتهم الطبيعية، ولا زال الناس يعرفونه ويألفونه حتى اليوم، فكم من ريح اقتلعت الأشجار من جذورها، وهذا منظر ليس غريباً عن الإنسان في كل زمان ومكان.

أما الآية الأخرى وهي قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فإن المراد منها خلو هذه الأعجاز من الحركة والحياة، فلا خضرة ولا نمو، وهذا أمر مركوز في فطر الناس، وهو من الأمور المدركة ضرورة وبداهة، وهذا هو الفرق بين الآيتين الكريمتين اللتين تبدوان لأول وهلة كأنهما متحدتان»[1].

---

(١) انظر بحثنا (رسالة الرماني: النكت في إعجاز القرآن، تحليل ونقد) المنشور في مجلة دراسات المجلد السادس عشر، العدد العاشر س١٩٨٩م.

إذن قوله سبحانه: ﴿نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ و ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ لم ينظر في أحد الوصفين إلى الإفراد، والآخر إلى الجمع، بل نظر إلى الجمع فيهما معاً، واختير لكل سورة من السورتين الكريمتين – القمر والحاقة – الصورة التي تناسب موضوعها، فسورة الحاقة تتحدث عن يوم القيامة بعد أن تنتهي الحياة والحركة، وهذا السياق يتسق مع قوله سبحانه: ﴿خَاوِيَةٍ﴾، أما سورة القمر فلها سياق آخر، السياق الذي يتلاءم مع انشقاق القمر، والنحس المستمر، ويبقى في الآيتين كلام كثير يتصل بهذين التشبيهين، نرجو أن يتسنى لنا بيانه في موضع آخر.

ثالثاً: يقول الكاتب: إن التاء في (معجزة) للتأنيث وليست للمبالغة كما يقول بعض العلماء ومثّل لذلك بـ (مؤمن ومؤمنة ومبصر ومبصرة).

والحق أن جمهور العلماء مجمعون على أن التاء ليست للتأنيث، ولكن بعضهم جعلها للمبالغة، وبعضهم جعلها للنقل، قال العلامة سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد: «والتاء فيها – المعجزة – للنقل، كما في الحقيقة، أو للمبالغة كما في علّامة» وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: «والتاء فيها للمبالغة» ومن المفيد أن نشرح ذلك.

التاء التي تلحق الأسماء، قد تكون للتأنيث كما في مؤمن ومؤمنة، ومبصر ومبصرة، ومسلم ومسلمة، فإن كلًّا من هذه الأوصاف إما مذكر وإما مؤنث، فالمسلم وصف للذكر، والمسلمة وصف للأنثى، وهكذا مؤمن ومبصر ومحسن، وهكذا تأتي التاء لتميز الأنثى من الذكر.

وقد تكون التاء للمبالغة، كما في علّامة ونسّابة، يقال: رجل علّامة ونسّابة، إذا كان كثير العلم، ومُشتهراً بمعرفة الأنساب.

وقد تكون للنقل، كما في حقيقة وذبيحة، ونطيحة، وكافة، أي: النقل من الوصفية إلى الاسمية، فلفظ حقيقة أصله وصف، ولكن جاءت التاء لتنقله إلى الاسمية كأنما تنوسي

الوصف فيه، وهكذا ذبيحة ونطيحة، ألا ترى أننا نقول: هذا اللفظ حقيقة، وهذا الكبش ذبيحة.

ولا يجوز أن تكون التاء هنا للتأنيث، لأنها لو كانت للتأنيث لم يجز أن يوصف بها المذكر، فإنا نعلم بداهة أن الصفة تتبع الموصوف في أربعة من عشرة، منها التذكير والتأنيث، فلا يجوز أن يقال: «رجل مؤمنة وامرأة مؤمن» إنما يقال: «رجل مؤمن وامرأة مؤمنة» قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

إذا عرفنا هذا –ونرجو أن نكون قد استوعبناه –أدركنا أن التاء في معجزة، لا يجوز أن تكون للتأنيث ؛ لأن تاء التأنيث تفرق بين المذكر والمؤنث، وليست كذلك المعجزة، فإنه يمكن أن يوصف بها القرآن، فنقول: (القرآن هو الكلام المعجز)، كما نقول: (القرآن معجزة النبي ﷺ).

وعلى هذا فالتاء للنقل كما في كلمة (حقيقة) نقول: هذا اللفظ حقيقة في الاستعمال، أو المبالغة كما في علامة، وهذا ما ذكره السعد وصاحب القاموس وغيرهما[1].

المعجزة اصطلاحاً:

المعجزة في الاصطلاح هي ما يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة، أو هي تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدقه المرسل إليهم.

شروط المعجزة:

ومن هذا التعريف نستنتج أن للمعجزة شروطاً لا بد أن تتحقق.

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادي/ باب الزاي / فصل العين ص ٦٦٣.

الأول: أن تكون المعجزة فعلاً لله تعالى ؛ ذلك لأن المعجزة تصديق للرسول الذي أرسله الله، فلا بد أن تكون المعجزة آية من الله، هذه الآية قد تكون قولاً كالقرآن الكريم، وقد تكون فعلاً كفلق البحر لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وقد تكون تركاً كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أن يكون هذا الأمر خارقاً للعادة، بيان ذلك: أن الحياة كما نعلم ارتبطت فيها الحوادث بأسبابها، وهذا ما اعتاده الناس وألفوه، والمعجزة لا بد أن تكون خارجة عن هذا المألوف، وهذا شأن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلم يألف الناس أن تتحول العصا إلى حية، أو أن النار لا تحرق، أو أن البلغاء يعجزون عن أن يأتوا بمثل كلام بليغ

الثالث: أن تكون معارضتها غير ممكنة، بمعنى أن الناس لا يقدرون أن يأتوا بمثلها، إذ لو أمكن الإتيان بمثلها لم تصلح أن تكون معجزة.

الرابع: أن تكون هذه المعجزة ظهرت على يد من ادعَى النبوة، فلو أتى غير من ادعى النبوة بما هو خارق للعادة، فإن ما أتى به لا يسمى معجزة، ومن هنا يجب أن نتجنب هذا الخطأ الشائع بين الناس وهو إطلاق المعجزات على ما يفعله بعض الناس في أيامنا هذه، فالمعجزات إنما هي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يصح أن نصف أي عمل جاء به غيرهم بأنه معجزة.

الخامس: أن يكون موافقاً لما ادعاه النبي، فلو قال: معجزتي إحياء الموتى، ولكن الذي حصل على يديه نطق الحجر مثلاً لم تكن هذه معجزة.

السادس: أن لا يكون هذا الأمر مكذباً لصاحبه، فلو قال مثلاً: معجزتي نطق الجبل، ونطق الجبل فقال: أنت كاذب، لا تكون هذه معجزة.

السابع: أن تكون المعجزة بعد ادعاء النبوة، أما إذا كانت قبل دعوى النبوة فلا تكون

معجزة إنما يسمى هذا إرهاصاً، ومثال ذلك كلام سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في المهد[1].

هذه هي شروط المعجزة التي ذكرها العلماء رحمهم الله، ومن هذه الشروط ندرك أن المعجزة تفترق كثيراً عن كل ما يراه الناس غريباً عما ألفوه وعرفوه كالكرامة والسحر والمخترعات الغريبة.

الفرق بين المعجزة والكرامة:

فالفرق بين المعجزة والكرامة، أن الكرامة فعل لله سبحانه يكرم الله به من يشاء من عباده الصالحين، وذلك مثل ما أكرم الله به مريم رضي الله عنها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ومن هذا القبيل ما أكرم الله به الفتية الذين آمنوا بربهم وهم أهل الكهف. على أن من أظهر الله الكرامة على يديه ينبغي أن لا تزهو نفسه بها، ولا تكون سبباً لفتنته، ولا يجب نشرها وإذاعتها بين الناس ؛ لأن هذا لا يتفق مع الصلاح والورع والتقوى.

الفرق بين المعجزة والسحر:

وتفترق المعجزة عن السحر بما يأتي:

١-أن المعجزة تظهر على يد نبي، والنبي من صفوة خلق الله، أما السحر فهو من ساحر، والساحر من أخبث الناس نفساً.

٢-أن المعجزة فعل الله، لا يستطيعه أحد من الناس، أما السحر فهو من فعل الساحر وهو أمر يمكن تعلمه.

---

(١) القول السديد في علم التوحيد (٣/ ٣) الأستاذ محمود أبو دقيقة.

٣-إن المعجزة فيها خير الناس وصلاحهم، أما السحر فليس فيه إلا الأذى والشر والشحناء، هذا إذا قلنا: إن للسحر حقيقة.

وبعد هذا يمكنكم أن تفرقوا بين المعجزات وبين المخترعات الحديثة، لأن هذه خاضعة لقواعد يمكن أن تتعلم.

توخي الحكمة في المعجزة:

إن من حكمة الله سبحانه أن تكون هذه المعجزة منسجمة مع أحوال الناس الذين ظهرت فيهم، ذلك لأن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، فإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول، وقيام الدليل على صحة دعواه، كان لا بد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكيرهم، ومع طبيعة بيئتهم. فمعجزة صالح عليه الصلاة والسلام كانت الناقة، ذلك لأن ثمود وهي إحدى القبائل كانوا يعنون بشأن الإبل ويعيشون في مكان هم في أمس الحاجة فيه إلى الماء، فكانت معجزته عليه الصلاة والسلام الناقة آية، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم.

كذلك معجزة موسى عليه الصلاة والسلام العصا الجافة التي ألقاها بسم الله، فإذا هي حية تسعى.

ومعجزة عيسى عليه الصلاة والسلام منسجمة مع البيئة ؛ ذلك لأن العهد الذي أرسل فيه عليه الصلاة والسلام كان عهداً قد طغت عليه المادة وبخاصة على بني إسرائيل، حيث قطعوا كل صلة بينهم وبين شريعة موسى عليه السلام، فكانت معجزته -إذن- تقويضاً للمادة رأساً على عقب، وصفعة للماديين، وليس الأمر كما قيل من أن القوم قد برعوا في الطب فكانت معجزته عليه الصلاة والسلام مما برعوا فيه؛ ذلك أنه لم يثبت أن القوم برعوا في الطب أولاً، وأما ثانياً فلأن معجزاته عليه الصلاة والسلام ليست مما للطب فيه حيلة ومعرفة، فإحياء الموتى أمر ليس للطب فيه مجال، كذلك إبراء

الأكمه والأبرص ؛ لأن الأكمه من ولد ممسوح مكان العينين، وهذا من الأمور التي لا يستطيعها الطب أبداً، ولا يزال الطب عاجزاً عن مداواة البرص، وكذلك إخباره عليه الصلاة والسلام عما يأكلونه ويدخرونه في بيوتهم بعيد عن مجال الطب.

إذن هذه المعجزات نجدها جميعها معجزات مادية، كما نجدها معجزات غير دائمة، بل تنتهي بإنتهاء النبي الذي جاء بها، بل ربما تنتهي في حياته، ونجدها من جهة ثالثة ملتئمة مع العصر.

أما معجزة النبي ﷺ فقد كانت بدعاً من المعجزات السابقة، فهي معجزة بعيده عن أن تشوبها شوائب المادة، بل هي معجزة عقلية إنسانية، ثم هي بعد ذلك ليست محددة بزمان معين ؛ وإنما هي باقية على مدى الدهر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وهي من جهة ثالثة تتفق مع حال أولئك الذين أرسل فيهم النبي ﷺ، حيث كانوا أئمة القول، وفرسان حلبة الكلام شعره ونثره.

بقاء معجزة النبي ﷺ:

أرسل الله نبيه علية الصلاة والسلام إلى الناس كافة، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨] وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ويقول النبي ﷺ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كلِّ أحمر وأسود.. »[1]. وقال: «... وختم بي النبيون»[2].

ولما كانت رسالته ﷺ عامة للناس جميعاً، كانت باقية كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ومن هنا

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢٣)

لا بد أن تكون معجزة النبي ﷺ تختلف عن غيرها من المعجزات ؛لذا كانت المعجزات السابقة تختلف عن الكتب التي يوحيها الله إلى الأنبياء، فكتاب موسى عليه الصلاة والسلام التوراة، أما معجزته فاليد والعصا، وكتاب عيسى عليه السلام الإنجيل أما معجزته فكانت إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص كما حدثنا القرآن الكريم.

أما القرآن الكريم، فكان الكتاب المعجز في آن واحد، فهو يقوم مقام آيات كثيرة، وهذه معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت ٥٠- ٥١] إنه رحمة في هدايته، وذكرى في إعجازه.

ومع أن النبي ﷺ، أكرمه الله بكثير من المعجزات الحسية، كنبع الماء من أصابعه الشريفة، وتسبيح الحصى في يديه، وحنين الجذع إليه، وغير هذه مما صح في كتب السنة، فإن المعجزة الباقية، كانت هذا الكتاب الكريم، المعجزة الباقية على مدى الدهر.

أخرج الإمام مسلم رضي الله عنه عن النبي ﷺ «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1].

إن عموم رسالة النبي ﷺ ودوامها يتطلبان أن تكون المعجزة باقية، تخاطب أسمَى ما في الإنسان قلبه وعقله، وقد جاء القرآن الكريم ليكون تربية للنوع الإنساني في مجالات حياته كلها، من هنا كان رحمة، كما جاء يتحدى الخلق جميعاً على أن يأتوا بمثله، ومن هنا كان ذكرى، وإن كل الفلسفات وجميع القوانين التي كانت قبل هذا القرآن لشاهد صدق

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (١٥٢) في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

على سمو القرآن الكريم وعظمته ورفعة شأنه.

هذه هي الأسباب التي من أجلها كانت معجزة النبي ﷺ معجزة عقلية خالدة، تامة الهداية، لا تقتصر على مجال دون آخر، واضحة ليس فيها غموض، عامة لا تقتصر على مكان دون آخر، أو شعب دون شعب، باقية لا تخص زمناً دون آخر، فهي لا تخص أمة دون أمة، ولا زماناً دون زمان، ولا مكاناً دون مكان.

على أن بعض الكاتبين علل بقاء معجزة النبي ﷺ دون غيرها من المعجزات تعليلاً غريباً، حيث ذكر أن معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت فعلاً من أفعال الله، والفعل له بداية ونهاية، ولكن القرآن الكريم كان صفة من صفات الله، والصفة باقية ببقاء الموصوف، وهذ حذلقة بعيدة عن منطق العلم، ونعجب من الشيخ الشعراوي[1] كيف يصدر عنه هذا القول.

وعلل بعضهم كون معجزة النبي ﷺ عقلية، بما ذكره «أن الناس في عصر البعثة قد اتجهوا إلى التجريد العقلي، والتعامل مع الأمور المعنوية العقلية، حيث ظهر الفلاسفة العقلانيون التجريديون مثل سقراط وأرسطو وفيثاغورس، وكان العرب أيضاً متأثرين بذلك التوجه، يميلون إلى التجريد العقلي»[2].

وهذا قول لا بد من إعادة النظر فيه، لأن هناك أموراً خطيرة تترتب عليه، ففيثاغورس كان من القرن السادس قبل الميلاد، وسقراط كان من القرن الرابع، وأرسطو كان في القرن الثالث قبل الميلاد، وعلى هذا فهم أقرب إلى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز - إذن- أن نعلل معجزة القرآن بظهور هؤلاء الفلاسفة ؛ لبعد ما بينهم وبين ظهور النبي ﷺ.

الله أعلم حيث يجعل رسالته، وربك يخلق ما يشاء ويختار، فالله تبارك وتعالى هو الذي اختار الزمان والمكان لرسالة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون عامة خالدة.

---

(١) معجزة القرآن للشعراوي، ص١٩.

(٢) البيان في إعجاز القرآن، ص ٦٠.

إعجاز القرآن

إن معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن أن يأتوا بمثله، فكلمة إعجاز مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله فكأن التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ومعنَى ذلك أن هذا القرآن الكريم دلّ بما فيه من بيانٍ على أنه من عند الله، وثبت عجز الناس عن أن يأتوا بمثله.

متى ظهرت كلمة إعجاز:

من المفيد أن ننبه على أن هذا المصطلح لم يكن معروفاً في عهد النبوة والصحابة والتابعين، إنما عُرِف فيما بعد، دليل ذلك كتاب الله تبارك وتعالى، فالكلمة التي كانت تقوم مكان المعجزة هي الآية، وهذا ما ورد كثيراً في كتاب الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١] وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

فالآية والآيات هي التي عبر عنها بالمعجزات فيما بعد، ولكن متى ظهر هذا المصطلح؟

يغلب على ظننا أن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجري، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانو يدافعون عن القرآن الكريم، ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ والأهواء، وهو مصطلح له ما يؤيده من اللغة.

وجوه الإعجاز

وإذا كان المسلمون والمنصفون من غيرهم مجمعين على أن القرآن الكريم كتاب معجز، وهو المعجزة العظمَى لسيدنا رسول الله ﷺ أقول: إذا كان هؤلاء وأولئك متفقين على هذا، ومتفقين كذلك على أن بيان القرآن وبلاغته ونظمه من أعظم ومن أهم وجوه إعجازه، فلقد اختلفوا في ما وراء ذلك ؟

رأى بعضهم أن القرآن معجز ببيانه فحسب، وذهب أكثر العلماء، إلى أن وجوه الإعجاز كثيرة ومتعددة فهناك الإعجاز البياني، وهناك الإعجاز التشريعي والخلقي، وهناك الإعجاز العلمي إلى غير ما هنالك من وجوه، سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله.

والقائلون بتعدد هذه الوجوه مجمعون على أن الإعجاز البياني هو أعظم هذه الوجوه وأهمها وأعمها ؛ ذلك لأنه لا تخلو منه آية من كتاب الله تعالى، أما الوجوه الأخرى فليست كذلك، فهي مفرقة فيه.

وقبل أن نصدر حكماً، وننتصر لأحد هذين الرأيين، يجمل بنا أن نتحدث عن التحدي ومراحله ؛ لأن لها أثراً كبيراً في ترجيح أحد هذين الرأيين.

التحدي:

امتاز العرب بسلامة السليقة، وسرعة البديهة، فقد عرفوا كثيراً من أصول النقد الأدبي معرفة ناتجة عن ذوق، وقد يكون ذوقاً معللاً في كثير من الأحيان ؛ لذلك لما سمعوا القرآن الكريم يتلى عليهم – وقد بلغت اللغة عند نزوله أشدها – استولَى على مسامعهم، وصار حديث نواديهم ومجامعهم، تهتز له ألبابهم وأفئدتهم وكان حرياً بهم وقد تذوقوا حلاوته أن يؤمنوا به كتاباً منزلاً، وبالذي جاء به نبياً مرسلاً، ولكنهم كانوا

أشدّ عناداً، فتحداهم القرآن، وأرخى لهم العِنان في التحدي، ولكنهم وقفوا أمام القرآن موقف العاجز فلم يستطيعوا معارضته، مع أن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة، وأي شي أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه، معلناً فيه عجزه عن مضاهاة عملك؟ إن هذا التحدي وحده كافٍ في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته، فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به صناعته التي بها يفاخر، والتي هو فيها المدرب الماهر؟ وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق؟ وكيف لو كنتَ تبتغي من وراء هذه الحرب الجدليه هدم عقائده، ومحو عوائده، وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله[1]؟.

ولذا كان هذا القرآن الكريم شغلهم الشاغل، فلجؤوا إلى وسائل كثيرة لمقاومته باللطف أو بالعنف، فأغروا النبي ﷺ بالمال ليكف عن دعوته، وتواصوا على مقاطعته وحبسه، ومنعوا صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم، وألقوا فيه الشبهات والمطاعن فقالوا: كاهن أو مجنون أو ساحر ليصدوا عنه الآخرين، وكل هذا لأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلابة وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل، وإنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته من طريق المعارضة الكلامية، فكان الطريق الوحيد لمقاومته الحيلولة بين القرآن وبين الناس، فخاضو مع النبي ﷺ الحروب الطويلة وضحوا في سبيل ذلك بالغالي والنفيس، وهذه أحوالهم كلها تدل على عجزهم.

ومما يدل على عجزهم كذلك أقوالهم، وهي كثيرة منها: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى الرسول ﷺ فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه؟ فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَله، قال

---

(١) النبأ العظيم (ص ٧٩).

الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برَجَزه، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، و والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وأنه ليحطم ما تحته "[1].

ومنها قول أُنَيْس أخي أبي ذر – رضي الله عنه – حينما سمع القرآن الكريم، لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون[2].

مراحل التحدي:

إن تحدي القرآن كان في أكثر من آية، وفي أكثر من وقت واحد، وفي أكثر من مكان كذلك، لقد تعددت آيات التحدي، وتعددت مراحله كذلك، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: تحدوا أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر معين، قال تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤].

ثانياً: ولما عجزوا أن يأتوا بمثله، أرخى لهم العِنان مرة أخرى، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

ثالثاً: فلما عجزوا ولم يستطيعوا، أرخى لهم العنان، وخفف عليهم المؤنة فاكتفى منهم

---

(١) النبأ العظيم ص ٨٦.

(٢) أخرجه الإمام مسلم (٢٤٧٣) في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

رابعاً: ولكن القوم لم يراوحوا مكانهم، فتحداهم وكانت المرة الأخيرة أن يأتوا بسورة تشبه القرآن، ولو من وجه من الوجوه، فقال سبحانه ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

دراسة هذه المراحل:

وإذا أردنا دراسة هذه المراحل لنرى ما بينها من وجوه الاتفاق والاختلاف، فإننا نجد ما يلي:

أولاً: إن هذه المراحل كلها جاءت تعلن التحدي بكل قوة وثقة.

ثانياً: إن المراحل الثلاث الأولى كلها مكيَّة التنزيل ؛ فإن الآية الأولى من سورة الطور، والثانية من سورة هود، والثالثة من سورة يونس عليهما الصلاة والسلام، وهذه السور مكية اتفاقاً. أما الآية الرابعة فهي مدنية اتفاقاً وهي من سورة البقرة.

ثالثاً: إن المراحل الثلاث الأولى خوطب بها العرب، لأنهم هم المتحدون في هذه السور الثلاث، أما المرحلة الرابعة، فقد خوطب بها الناس جميعاً، يدل لذلك سياق الآيات الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٣].

رابعاً: إن المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة الرابعة، وإليكم بيان ذلك:

المرحلة الأولى ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور:٣٤] والثانية ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]، والثالثة: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨] ، أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣] فكلمة (من) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة.

هناك اختلاف – إذن – بين المراحل الثلاث والمرحلة الرابعة من حيث التنزل، ومن حيث السياق، ومن حيث الأسلوب، ولهذه الفروق دلالاتها في تعيين أو ترجيح أحد القولين في بيان وجوه الإعجاز.

فإذا كان التحدي في المراحل الثلاث المخاطب به العرب، والعرب كان البيان بضاعتهم، والبلاغة سجيتهم، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس جميعاً عربهم وعجمهم، وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة (من)، فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض، ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة، كان التحدي فيها للناس جميعاً، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعاً بالبيان وحده، إنما هو تحدٍّ عام عموم المخاطبين به.

وبعد هذه الدراسة لمراحل التحدي نقرر مطمئنين أن وجوه الإعجاز متعددة، وأن القرآن الكريم معجز من حيث بيانه، ومن حيث تشريعه، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية وكونية، ومن حيث ما فيه من أخبار الأمم السابقة، ومن أخبار الغيب المستقبل، ومن حيث تأثيره في النفوس، من هذه الحيثيات وغيرها مما ستعلم نبأه بعد حين إن شاء الله. فلا تعجل، فقبل أن نحدثك عن هذه الوجوه، سنسير معاً في رحلة تاريخية نتعرف

من خلالها على جهود السابقين من العلماء وما نظمته أفكارهم، وسطرته أقلامهم قديماً وحديثاً. وهذا الباب الأول وسنجعله في فصلين:

الأول: ونتحدث فيه عن جهود الأقدمين.

الثاني: ونتحدث فيه عن جهود المحدثين من العلماء

الباب الأول

تاريخ الإعجاز

الفصل الأول

جهود الأقدمين

ونتحدث فيه عن الأدوار التي مرت فيها كتابة الإعجاز

١- دور الإشارات: النظام، الجاحظ، ابن قتيبة، الواسطي.

٢- دور الرسائل وفيه:

- رسالة الرماني.
- رسالة الخطابي.

٣- دور الكتب وفيه:

- إعجاز القرآن للباقلاني.
- إعجاز القرآن لعبد الجبار الهمذاني.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم الزمخشري.

الباب الأول

تاريخ الإعجاز

الفصل الأول

جهود الأقدمين

كانت الكتابة في الإعجاز حصيلة جهود متعاونة متعددة، أسهم فيها علماء اللغة والنحو والبيان والكلام والأصول، كل هؤلاء وغيرهم بذلوا مشكورين، وكانت لهم لبنات في بناء صرح الإعجاز الشامخ، فالخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو زكريا يحيى الفراء، والشافعي، والأصمعي والجاحظ وابن المعتز وابن قتيبة، وكثير غيرهم كانت لهم لفتات طيبة، ولمحات مفيدة، وشذرات جيدة في إرساء قواعد هذا العلم وتشييد بُنيانه، وتوطيد أركانه

ويمكننا أن نقرر هنا أن الكتابة في إعجاز القرآن مرت بأدوار ثلاثة:

الأول: اللمحات والإشارات.

الثاني: مرحلة الرسائل.

الثالث: مرحلة الكتب.

الدور الأول: دور الإشارات:

من أقدم الكتب التي ألفت عن القرآن الكريم، تلك التي كانت تتحدث عن معاني القرآن، وبين أيدينا كثير من هذه الكتب، ومن أوائلها كتابان اثنان أحدهما: مجاز القرآن لأبي عبيدة، والثاني: معاني القرآن للفراء، ونرجح أن هذين الكتابين كُتبا في القرن الثاني للهجرة ؛ لأن مؤلفيهما توفيا في أول القرن الثالث، وفي هذين الكتابين نجد البذور الأولى التي تحدثت عن أسلوب القرآن ونظمه وبخاصة الأول منهما، أعني مجاز القرآن، فهناك حديث عن التشبيه، والكناية، والإشارة، والتأكيد إلى غير ذلك مما كان الأساس الذي بنى عليه العلماء اللاحقون كثيراً من قضايا الإعجاز.

ومن الخير أن نقرر هنا أن قضية الإعجاز لم تقرر تقريراً مباشراً، في هذين الكتابين، بل كان فيها إشارات ولمحات لم تذكر فيها كلمة الإعجاز، وجاء القرن الثالث فوجدنا فيه ظهور هذه الكلمة – أعني لفظة الإعجاز – وكثيراً من الإشارات واللمحات في قضايا الإعجاز.

كانت هذه الإشارات عند النظام المعتزلي، وتلميذه الجاحظ، وهما إمامان من أعظم وأشهر أئمة الاعتزال، كما وجدناها عند إمام من أئمة أهل السنة، وهو ابن قتيبة.

النَّظَام:

أما أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النَّظّام فلقد تحدث عن القرآن، من حيث هو دليل على صدق النبي ﷺ، ولكنه يدلّ على صدق النبوة من حيث أخبار الغيب التي تضمنها، لا من حيث نظمة وأسلوب ودقة ألفاظه وجودة معانية، وهذا ما جعل العلماء يردون عليه فيما بعد.

ولقد عُرِف ما ذهب إليه النظام فيما بعد بالقول بالصَّرْفَة، ومعناها أن الله صرف العرب

عن أن يأتوا بمثل القرآن، وإن كان ذلك مقدوراً لهم، لأنهم كانوا بلغاء بطبيعتهم، فصحاء بسليقتهم، فالنَّظّام يرى أن القرآن دليل على النبوة، لأنه من عند الله، لكن وجه الدلالة ما فيه من أخبار الغيب، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١-٢] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وليس غرضنا الآن أن نناقش القول بالصَّرْفَة، ولكن الذي نقرره هنا أن القول بالصَّرْفَة كان بعيداً عن البيئة الإسلامية قبل النَّظّام، وإن كان قد عرف من قبل عند بعض الأمم الشرقية كالهنود، مما يجعلنا نرجح مطمئنين أن القول بالصَّرْفَة كان محاكاة لأولئك ؛ ولذا لم يعرف قبل النَّظّام.

وبعض الكاتبين المحدثين يحاول أن يعتذر عن النَّظّام ، مفسراً الصَّرْفَة بغير التفسير الذي اشتهر عند العلماء، فهو يرى أن الصرفة التي قال بها النظام لا تعني قدرة العرب على الإتيان بالقرآن، وإنما تعني انصرافهم عن ذلك حينما نظروا في القرآن، ونظروا في أنفسهم وإمكاناتهم، فوجدوا أنهم لا يمكنهم معارضته، فانصرفوا عن ذلك، فهو انصراف لا صرفة[1].

ومع تقديرنا لهذا التعليل، وما بذله الكاتب في إثباته، إلا أننا لا نوافقه عليه، ذلك لأن الجاحظ نفسه، وهو من تلاميذ النظام الذين كانوا يجلونه كل الإجلال، قد رد عليه في كتابه «نظم القرآن» والجاحظ أقدر على فهم أستاذه ممن جاؤوا بعده.

ومهما يكن من أمر فلقد كان للنظام كلمات في الإعجاز، بقطع النظر عن الوجه المعجز للكتاب الكريم.

---

(١) انظر إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة / د. منير سلطان.

الجاحظ:

لا يكاد يخلو كتاب من كتب الجاحظ على كثرتها من حديث عن القرآن الكريم، فتارة عن صحة أخباره، وتارة عن جودة سكبه وبديع نظمه، وثالثة عن قوة حججه، وأخرى عن دحض الشبهات التي يوجهها الملاحدة والحاقدون، وهو مع ذلك كله شديد الإعجاب بالعربية، لغة القرآن، قويّ العارضة في ملاحقة الشعوبيين، والجاحظ في ذلك كله إمام لَسِنٌ، يصدر عن سعة في الاطلاع، بتفكير سويّ، وغوص على المعاني؛ ولذلك كله لا بد أن تكون هناك إشارات وشذرات يعرض فيها لقضية الإعجاز، ولكن هذه الشذرات مبثوثة في أثناء كتبه، فقد حدثنا عن حجج القرآن، وحجج النبوة، كما حدثنا عن الرد على النصارى وغيرهم، في رسائله الكثيرة المتعددة.

أما عن بلاغة القرآن ونظمه، فنجد ذلك في كتابه «البيان والتبيين»، وكتاب «الحيوان»، ويذكر أنه قد ألَّفَ كتاباً في نظم القرآن، تحدث فيه عن مفردات القرآن، وبعض أساليب البيان التي اصطلح عليها فيما بعد بعلم البلاغة، وهذا الكتاب قد حُرِمْنا منه ولم تَسعد به المكتبة الإسلامية. وكل ما وصلنا منه شذرات وبعض عبارات، ذكرها هو في كتبه المتفرقة.

ونستطيع أن نلخص نظرية الإعجاز عن الجاحظ بما يلي:

١-القرآن بليغ من حيث ألفاظه المختارة المنتقاة، ومن حيث نظمه ورصفه، التي تقوم على إبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز.

٢-القرآن معجز من حيث الصرفة، ولكنها تختلف كثيراً عن تلك التي ذكرها أستاذه النظام من قبل؛ ولذا فهو يرد عليه في كتابه نظم القرآن، فأساس نظرية الإعجاز، وعمود القول فيه بلاغته أولاً، أما القول بالصرفة فإنما تأتي في المرتبة الثانية، فهو دليل يضاف إلى دليل عجز العرب عن محاكاة القرآن في أسلوبه ونظمه.

لقد وضع الجاحظ بحقٍّ بذوراً لنظرية الإعجاز التي تطورت فيما بعد، وإن كانت هذه البذور جاءت موزعة في مواضع من كتبه ومؤلفاته.

ابن قتيبة:

وابن قتيبة إمام من أئمة أهل السنة، عرض في كتبه لكثير من أساليب القرآن، كما ردّ على الملاحدة والشعوبيين، ومن كتبه الخاصة بالقرآن الكريم «تأويل مشكل القرآن» و «غريب القرآن» وتجده يتحدث عن التشبيه والاستعاره والمجاز كما يتحدث عن قضيتي التكرار والزيادة، ويظهر على كتبه الطابع اللغوي، كما تظهر فيها بعض الإشارات البيانية، وبخاصة وهو يرد على اللغويين الذين أنكروا المجاز، وعلى المعتزلة الذي أفرطوا في التأويل، وليس له بحث مستقل في إعجاز القرآن.

الواسطي:

يجمع المؤلفون على أن أبا عبدالله محمد بن يزيد الواسطي ألف كتاباً في إعجاز القرآن، ويقال: إن عبد القاهر –رحمه الله– قد وضع لهذا الكتاب شرحين، ولكن مع كل أسف لم يصلنا الكتاب، كما لم يصلنا شيء مما وضعه عبد القاهر من شروح، ولذلك فنحن لا نملك الحديث عنه، بل ربما كان في النفس شيء مما نسب لعبد القاهر من وضع شرحين لهذا الكتاب، وقد وصلنا كتابان في الإعجاز لعبد القاهر هما دلائل الإعجاز والرسالة الشافية وليس فيهما إشارة ما لشرح إعجاز الواسطي فكيف اختفى الشرحان معاً؟

ذلك هو الدور الأول، والطور المتقدم من الأدوار الثلاثة التي مر بها الإعجاز، والتي أشرنا إليها من قبل، إنه طور الكلمات والإشارات.

الدور الثاني: دور الرسائل:

أما الطور الثاني فهو طور الرسائل، ولحسن الحظ فلقد وصلت إلينا رسالتان لإمامين متعاصرين من علماء القرن الرابع، أحدهما من أئمة أهل السنة، وهو أبو سليمان الخطابي، والآخر من أئمة المعتزلة، وهو أبو عيسى الرماني، وهاتان الرسالتان كانتا الأساس لما كتب في الإعجاز فيما بعد، وسنتحدث عن هاتين الرسالتين كلٍّ على حدة.

أولاً: النكت في إعجاز القرآن للرماني:

الإمام علي بن عيسى الرماني أبو الحسن، إمام من أئمة المعتزلة، لم تقتصر إمامته على نوع خاص من أنواع المعرفة، بل كان أحوذياً جمع إلى العلوم العقلية كثيراً من العلوم النقلية، فهو إمام في النحو واللغة والتفسير، توفي عام (٣٨٦ هـ).

وما كتبه[١] الرماني[٢] كان إجابة لبعض طلبة العلم – كما يظهر من مقدمته الموجزة – ولقد التزم الرماني القول الموجز في هذه الرسالة وهجم على الموضوع دون مقدمات.

وجوه الإعجاز عند الرماني:

بَيَّن الرماني أن إعجاز القرآن إنما يظهر من وجوه سبعة[٣]:

١ – ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

---

(١) يرى الأستاذ محمود شاكر أن الكتابات الموجزة التي يطلق عليها الآن كلمة رسالة، كانت تعرف عند أئمتنا بالأجزاء، أما الرسالة فهي ما يرسل من موضع إلى موضع كرسالة الشافعي، فالنكت في إعجاز القرآن حري أن يسمى جزءاً، وهذا ملحظ مشكور للأستاذ محمود محمد شاكر.

(٢) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ت(٣٨٦ هـ) النكت في إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر.

(٣) الرسالة، ص٧٥.

٢- التحدي للكافة.

٣- الصَّرْفَة.

٤- البلاغة.

٥- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

٦- نقض العادة.

٧- قياسه بكل معجزة.

وقد أطنب في الحديث عن البلاغة حيث استوعبت أكثر صفحات الرساله، أما الوجوه الستة الباقية، فقد كان حديثه عنها مقتضباً موجزاً، فرسالة الرماني تقع في نحو أربعين صفحة، أخذت البلاغة منها نحو خمس وثلاثين، بينما لم تأخذ الوجوه الأخرى إلا أربع صفحات فقط.

شرح موجز لوجوه الإعجاز:

أولاً: ترك المعارضة[1] مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، فمعناه أن العرب تركوا معارضة القرآن مع أن دواعيهم كانت متوفرة، وكانت حاجتهم لهذه المعارضة شديدة قوية، بيان ذلك: أن العرب كان لهم حظ وافر ونصيب واف من القول، ولقد كانت البلاغة طبعاً فيهم والفصاحة سليقة لهم، وأعطوا من ذلك ما لم تعطه أمة من الأمم، هذا معنى قول الرماني مع توفر الدواعي.

أما شدة الحاجة، فلأن القرآن سَفَّه أحلامهم، وقوض عباداتهم وكثيراً من عاداتهم، ولم يُبقِ لهم منفذاً يخرجون منه، ومع ذلك فلم يعارضوه، ولو أن أنساناً كان شديد العطش،

(١) الرسالة، ص ١٠٩.

والماء قريب منه، وهلك دون أن يشرب الماء، فما ذلك إلا لعجزه.

ثانياً: وأما التحدي للكافة فلأن القرآن الكريم قد تحداهم في غير موضع ولكنهم جبنوا عن منازلته، وقعدوا عن مصاولته ومجاولته.

وهذان الوجهان بعد التحقيق يرجعان إلى بلاغة الكتاب العزيز، فإن تحديه لهم، وتركهم معارضته، دليل على أنه في أعلى درجات البلاغة.

ثالثاً: وأما الصَّرْفَة فمعناها أن هممهم انصرفت عن معارضة القرآن، ونلاحظ أن الرماني لا يتفق مع النَّظّام الذي جعل الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز دون البلاغة إنما يتفق مع الجاحظ، يقول الرماني: «وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول[1]».

رابعاً: وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه وجه من وجوه الإعجاز، لأن ما أخبر عنه وقع وتحقق، وهذا دليل على أنه من عند علاّم الغيوب، ويذكر الرماني بعض ما جاء في كتاب الله من ذلك ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [الفتح: ٢٧] ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢ – ٣] ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥] إلى غير ذلك مما أخبر عنه القرآن الكريم، وتحققت هذه الأخبار، ولم يتخلف منها خبر واحد.

خامساً: وأما نقض العادة[2] فيعني به الرماني، مجيء القرآن على وضع لم يألفه العرب من قبل، فلقد عرف العرب الشعر والرجز والسجع، والكلام المرسل غير المسجوع ولا المقفى، ولكن الشكل الذي جاء عليه القرآن يختلف عن ذلك كله.

نقض العادة – إذن – قضية تتعلق بالشكل والقالب، فمعاني القرآن وضعت في قوالب من اللفظ والنظم، لم يألفها العرب ولم يعرفوها من قبل لأنها ليست شعراً ولا نثراً، وهذا

---

(١) الرسالة ص ١١٠.

(٢)الرسالة: ص ١١١.

يرجع إلى بلاغة القرآن أيضاً كالوجهين الأولين.

سادساً: وأما قياسه بكل معجزة[1] فيشير به الرماني إلى أن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة السلام كفلق البحر، وقلب العصا حية، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، كانت من الأمور الخارقة للعادة المعجزة للناس، وكذلك شأن القرآن الكريم.

سابعاً: أما الوجه السابع وهو الحديث عن البلاغة، فقد أفاض الحديث فيه – رحمه الله – فذكر أن الكلام البديع تختلف مراتبه، فمنه ما هو في أعلى طبقة وهو القرآن الكريم، ومنه ما يكون في الطبقة الوسطى، وهو كلام البلغاء شعراً ونثراً، ومنه دون ذلك.

ويعرف البلاغة بأنها وصول المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، ثم ذكر أقسام البلاغة، وهي عنده عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، والبيان.

وما ذكره الرماني من أقسام البلاغة كان الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة فيما بعد.

ثانياً: بيان إعجاز القرآن للخطابي[2]:

أولاً: بدأ الخطابي رسالته «بيان إعجاز القرآن» بإثبات عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبين أن تلك قضية من مسلمات التاريخ، فالقرآن تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأصحاب الرياسة في الكلام والقول، وأصحاب القصائد والخطب، ولكنهم تركوا ذلك كله وهو الأيسر لهم والأسهل عليهم، وعمدوا إلى ما هو أشق وأصعب عليهم، وهو المنازلة والمحاربة، فلقد تركوا رصف

---

(١) الرساله ١١١.

(٢) حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي أبو سليمان، ولد عام ٣١٩ هـ وتوفي عام ٣٨٨ هـ فقيه محدث، له مؤلفات كثيرة منها معالم السنن، وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح خطأ المحدثين.

الحروف إلى مقارعة السيوف، وليس ذلك إلا لعجزهم وقصور قرائحهم، فما مثلهم إلا كمثل من كان شديد الظمأ والماء بجانبه، ولكنه هلك من شدة العطش، ومن هذا حاله لا يكون كذلك إلا لعدم قدرته على تناول الماء.

تلك هي القضية الأولى التي عرض لها الخطابي(١).

ثانياً: وجوه إعجاز القرآن:

أما القضية الثانية التي عرض لها، فهي بيان وجه إعجاز القرآن، فلقد أشار إلى الوجوه التي كانت مشتهرة في زمنه، وعلق على كل بما يناسبه ويلائمه(٢).

١-ومن هذه الأوجه القول بالصَّرْفَة: لقد عرض الخطابي لهذا القول، وناقش القائلين به، ومن أدلتهم التي ذكرها الخطابي أن عجز العرب عن القرآن شبيه بقوم قال لهم نبيهم: معجزتي على صدق دعواي أن تعجزوا عن تحريك أيديكم ورؤوسكم وأنتم أصحاء، وحاول القوم عبثاً أن يستطيعوا ذلك، فهؤلاء قوم أصحاء سُلِبوا القدرة على تحريك جوارحهم، وكذلك العرب سلبوا القدرة على أن يأتو بمثل القرآن.

ويرد الخطابي هذا القول قائلاً: «إن كل ما يفيده هذا الدليل الذي جاؤوا به أنه يدل على صدق قائله، ولكن شتان بين هذا وبين القرآن الكريم، وكيف والله يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]. وهذه الآية الكريمة تثبت أن القوم قد أُرخِي لهم العنان، ووسع عليهم في المعارضة، ومنحوا القدرة على التعاون فيما بينهم، فشتان بينهم وبين من سلبوا القدرة على الحركة في حال صحتهم وسلامتهم.

---

(١) الخطابي – بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعرفة بمصر، الطبعة الثانية – ١٣٨٧ هـ.

(٢) الخطابي – ثلاث رسائل ص ٢٢.

٢- الإخبار بالغيب: وبعد أن ردّ الخطابي كون القول بالصَّرْفَة وجهاً من وجوه إعجاز القرآن عرض لقول آخر، وهو أن القرآن معجز بما فيه من أخبار الغيب، وهذا الوجه وإن كان صحيحاً يدل على صدق النبي ﷺ فإنه ليس عاماً في القرآن كله، لأن أخبار الغيب إنما توجد في بعض سور القرآن الكريم، والقرآن حينما تحداهم، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، سواء كانت تلك السورة مشتملة على أنباء الغيب أم لم تكن كذلك، وعلى هذا لا يصلح هذا الوجه أن يكون عاماً، ولا بد للباحث عن الإعجاز من وجه عام ينتظم القرآن الكريم كله[1].

٣-وهناك وجه ثالث عرض له الخطابي، وهو أن القرآن معجز ببلاغته ولكن أصحاب هذا القول لم يحددوا معالم هذه البلاغة ولم يضعوا لها قواعدها وضابطها، بل اكتفوا بالقول إننا حينما نسمع القرآن نحس في أنفسنا أن له بلاغة لا توجد في غيره.

وكثير من الناس يتذوق الكلام فيميز بين البليغ والأبلغ، ويستدلون لذلك بما كان من ذي الرُّمَّة حين نحله جرير بعض أبيات ضمنها قصيدته، فلما سمعها الفرزدق أنكرها عليه وقال له: مُضيفها أشد لحيين منك[2].

وإذن فأصحاب هذا القول يرجعون البلاغة إلى الذوق وحده، دون أن تكون له قواعد وضوابط وأسس، والخطابي يرد هذا القول كذلك، فالذوق وإن كان له شأنه وخطره، فإنه لا يصلح وحده لنبني عليه قضية الإعجاز، بل ما هو أقل منها شأناً، والحق أن الخطابي كان يصدر عن بصيرة ومعرفة وذوق، ذلك أن الذوق وحده ليس الناس فيه سواء، ولذا فلا بد من قواعد للنقد، يرجع إليها العلماء فيما يقبلون أو يرفضون[3].

---

(١) الخطابي ثلاث رسائل، ص ٢٣.

(٢) هكذا ورد في «ثلاث رسائل»، أما في دلائل «الإعجاز للجرجاني» ص ٥٨٧: هذا شعر لاكه أشد الحيين منك، وفي «أمالي القالي» ٢/ ١٤١: تالله لقد علكهنّ أشد لحيين منك، وفي «الأغاني» ٨/ ٦٣: والله لقد نحلكها أشد لحيين منك.

(٣) الخطابي: ثلاث رسائل ص ٢٤.

ثالثاً: الوجه المختار في إعجاز القرآن:

ولكن إذا كانت هذه الأوجه جميعها قد ردها الخطابي، فما هو القول عنده في إعجاز القرآن؟ تلكم هي القضية الثالثة في رسالته، يرى الخطابي أن ما للقرآن من أثر وبهجة ورونق، ومن عذوبة يجدها السامع في حسه، وتهش لها نفسه، فيكون له من الصنيع فيها ما لا يوجد لغيره من الكلام، لا بد له من سبب يبحث عنه الباحثون، وعلة امتاز بها القرآن عن غيره، يقول الخطابي: بأنه استقرى جميع الأوصاف والأسباب الخارجة عن القرآن فلم يجد سبباً صالحاً من أجله تبوأ القرآن هذه الرتبة العليا، لذا لا بد أن يكون السبب كامناً في القرآن نفسه، مستمداً منه، **وهذا السبب يرجع إلى أجناس الكلام، وأجناس الكلام – كما يراها الخطابي – لا تخرج عن واحد من ثلاثة[1]**:

١- البليغ الرصين الجزل.

٢- الفصيح القريب السهل.

٣- الجائز الطَّلْق الرَّسْل.

فالمخاطبون ليسوا سواء، فمنهم الحضري الذي هذب لسانه، ومنهم سكان البادية الذين أكسبتهم البداوة قوة ورصانة، وإذا كان المخاطبون كذلك، فإن الموضوعات التي يقصد إليها المتكلم ليست سواء كذلك، فالحديث عن الوصف والنسيب يختلف عن الحديث عن الهجاء، وهذا يختلف عن الفخر، وأسلوب الرثاء يختلف عن أسلوب الهجاء، كما أن أسلوب التقريع والتبكيت يختلف عن أسلوب التحبب والمؤانسة، وأسلوب التخويف يختلف عن أسلوب الترجي، لذلك لا بد أن يوضع كل أسلوب في القالب الذي يناسبه ويلائمه.

---

(١) الخطابي: ثلاث رسائل ص ٢٦.

وعلى هذا فأسلوب التقريع لا بد له من كلمات قوية، كأنها هي الرعد القاصف، كلمات تقرع القلوب، وترتجف لها النفوس، وترتج من سماعها الأفئدة.

أما أسلوب التأنيس والإطماع، فلا بد له من الكلمات الرقيقة التي تتدفق عذوبة وحيوية، وهناك مرتبة وسط بين هاتين، فالنوع الأول هو البليغ الرصين الجزل كما يسمّيه الخطابي، والجزالة هي القوة، وأصله من قولهم: "حطب جزل " إذا كان قوياً لا تأكله النار بسهولة ويسر، والنوع الثاني: هو الفصيح القريب السهل – كما سمّاه الخطابي – والنوع الثالث: هو الجائز الطلق الرسل، وهو وسط بين القسمين، ولما كانت الفخامة ناشئة عن القوّة، وكانت العذوبة ناشئة عن السهولة كانا كالمتضادين، لأن الفخم القوي لا يتفق مع السهل السلس، وما أشبهها برجلين أحدهما شديد صُلب، قوي العريكة، والآخر سهل موطأ الأكناف [1].

وبلاغة القرآن – كما يقول الخطابي – [2] اشتملت على هذه الأنواع الثلاثة، وهذا صحيح فأنت حينما تقرأ في كتاب الله وهو يحدّثك عن يوم القيامة، وعما يكون للمكذبين، فإنك تجد الكلمات الجزلة القوية، ونمثل لك بسورة الحاقة، وحينما تقرأ ما أعدّ للمؤمنين تجد الكلمات السلسة العذبة، استمع إلى سورة الإنسان، وفيما بين هذا وذاك تجد الوسط.

وربما تقرأ الآيات من كتاب الله تعالى فتجدها اشتملت على الأجناس الثلاثة معاً، وليس بعض هذه الثلاثة أبلغ من بعض، بل إن كل واحد في مكانه وسياقه هو آية الحسن، هذا ما يفهم من كلام الخطابي.

---

(١) كناية عن يسر معاملته.

(٢) الخطابي: ثلاث رسائل، ص٢٧

ويبين الخطابي الأصل الذي من أجله تعذر على العرب أن يأتوا بمثل القرآن، وهو أنهم لم يحيطوا بجميع ألفاظ اللغة، مفردات وتراكيب هذا أولاً.

أما ثانياً: فإن أفهامهم لا تدرك جميع المعاني التي تحمل عليها تلك الألفاظ.

وأما ثالثاً: فليس لهم معرفة تامة بجميع أنواع النظم، وهو أي النظم – ترتيب الكلمات في الوضع بحيث تكون كل لفظة في محلها اللائق لها الخاص بها –، وهذه الأمور الثلاثة – أعني اللفظ والمعنى والكلام – هي التي يقوم بها الكلام، ويصير بها مستأهلاً للبحث حقيقاً بالعناية، هكذا يرى الخطابي أن الكلام لا بد له من عناصر ثلاثة:

١ - لفظ حامل.

٢ - معنى به قائم.

٣- رباط لهما ناظم.

الكلام عند الخطابي إذن، ليس لفظاً ومعنى فحسب، وإنما لا بد لهما من أمر ثالث وهو النظم.

وبهذا يكون الخطابي من أوائل الذين أشاروا وألمحوا إلى قضية النظم بمعناها الدقيق، وهو يرد بذلك على أنصار اللفظ، وأنصار المعنى معاً، ويقيننا أن هذا الأصل الذي ذكره الخطابي قد بنى عليه من جاء بعده كالقاضي عبد الجبار، والشيخ عبد القاهر الجرجاني.

رابعاً: يبين الخطابي أن عمود البلاغة وأساسها أن يوضع للمعنى اللفظ الخاص به، الذي يدل عليه دلالة تامة، لذا وجدناه يفرق بين الكلمات التي يظن كثير من الناس أنها سواء كالحمد والشكر والعلم والمعرفة، وقعد وجلس وغيرها.

خامساً: يرد الخطابي بعض الشبهات ويجيب عن بعض الاعتراضات التي وجهت إلى

ألفاظ القرآن ونظمه، ومن هذه الاعتراضات أن ألفاظ القرآن الكريم ليست أفصح الألفاظ، فإن هناك ألفاظاً ردها أهل المعرفة باللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف: ١٧]، فكلمة أكل كما يقولون ليست فصيحة والأفصح أن يقال: افترس، لأن الافتراس خاص بالسباع، والأكل عام فيها وفي غيرها.

ويرد الخطابي هذا القول، فيبين أن الفرس أصله دق العنق، ومعناه القتل فحسب، أما الأكل فهو الإتيان على جميع أجزاء الفريسة وأعضائها، ولو أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: افترسه، لطالبهم ببقية أجزائه.

سادساً: يتوسّع الخطابي بذكر المعارضات، ويذكر أن ما روي من معارضات للقرآن كما كان من مسيلمة الكذاب، لا تصلح، لأن للمعارضة شروطها وأسسها كما يعرفها علماء اللغة.

سابعاً: ويذكر الخطابي وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن غفل عنه كثير من الناس ولا يكاد يعرفه إلا القليل منهم، وذلك هو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، وهذا الوجه عرف فيما بعد بالإعجاز الروحي، وأطلق عليه بعضهم الإعجاز النفسي.

الدور الثالث: دور الكتب:

١ - كتاب إعجاز القرآن للباقلاني [(١)]:

الباقلاني إمام من أئمة المتكلمين، شيخ من شيوخ الأشاعرة، ولقد جمع إلى هذا كثيراً من جوانب المعرفة، وكتابه يدل بحق على علو كعب الرجل، ورسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه، ففضلاً عن أنه إمام من أئمة علم الكلام، فهو كذلك إمام من أئمة اللغة أدباً وشعراً وبلاغة ونقداً.

كتب الباقلاني إعجاز القرآن، وغيره من الكتب الكثيرة، مدافعاً عن حرمة الدين، ذاباً عن الكتاب والسنة، راداً كل ما يجده مما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات ومما يوحون به من شكوك، وما ينفثونه من ترهات وأباطيل، ومن كتبه ذات الشأن والقيمة غير كتاب إعجاز القرآن، التمهيد، والانتصار، ولقد كان الرجل مع سعة علمه لَسِناً، قوي العارضة في الحجاج، يدل على ذلك سيرته مع خصومه.

ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا: إنه لم يشتهر كتاب في الإعجاز كإعجاز القرآن للباقلاني، فلقد ظل هذا الكتاب على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة، بل إن كثيراً من المختصين بالدراسات القرآنية لم يعرفوا غير هذا الكتاب.

اشتمل كتاب الباقلاني على موضوعات متعددة، بعضها جوهري في قضية الإعجاز وذلك كوجوه إعجاز القرآن، وكونه معجزة النبي ﷺ والتحدي به، وبعضها بعيد عن قضية الإعجاز لا يتصل بها إلا من سبب بعيد كحديثه عن نقد الشعر وتحليله لكثير من القصائد الشعرية[(٢)]، وموازنته بين أسلوب القرآن الكريم، وبعض خطب للنبي ﷺ

---

(١) محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد عام ٣٣٨ هـ وتوفي عام ٤٠٣ هـ.

(٢) كمعلقة امرئ القيس، وقصيدة البحتري: أهلاً بذلكم الخيال المقبل.

وللصحابة ولغيرهم رضوان الله عليهم.

وبعضها وسط بين هذا وذاك يتصل بموضوع الإعجاز، وذلك كحديثه عن السجع ونفيه من كتاب الله تبارك وتعالى، كما أن حديثه عن الإعجاز تجده تارة ذا طابع أدبي بياني، وتارة أخرى ذا صبغة كلامية تتصل بنظريات المتكلمين وأساليبهم.

وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني :

يذكر الباقلاني بأن وجوه الإعجاز كما قال به أصحابه – يعني الأشاعرة – تظهر من جهات ثلاث:

١- أخبار الغيب التي أخبر عنها القرآن قبل أن تحدث.

٢- الأخبار عن الأمم الماضية مع أمية الرسول ﷺ.

٣- نظمه البديع [١].

ويفصل الباقلاني فيما بعد هذه الوجوه، فالإخبار بالغيب جاء في آيات كثيرة ومواضع متعددة.

وأما أنباء الأمم السابقة، مع أمية النبي ﷺ فإنه يدل على الإعجاز، لأن هذه الأخبار الصادقة لا تكون إلا ممن عرف التاريخ واستوعب أنباء الأمم، والنبي ﷺ باتفاق لم يكن شأنه كذلك.

والباقلاني كان أكثر تفصيلاً في الوجه الثالث، بل إن كتابه يكاد يكون مبنياً على هذا الوجه، وهو كون القرآن بديع النظم عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة، ولقد ذكر معاني عشرة يشرح بها هذا الوجه.

---

(١) إعجاز القرآن، ص ١٣

فأولها: ما يرجع إلى جملة القرآن بيان ذلك أن كلام العرب يدور بين الشعر والرجز والسجع والنثر المرسل، وبين كلام موزون مقفى وكلام موزون غير مقفى وكلام غير موزون، وحينما ننظر في القرآن الكريم، نجده جاء على طريقة مغايرة لكل ما عرفه القوم، فالقالب الذي صبّت فيه معاني القرآن، والشكل الذي ركبت فيه كلماته، وجه من وجوه الإعجاز، وهذا ما عبّر عنه الرماني من قبل بنقض العادة، ولذا كانت النتائج التي توصل إليها الرجلان نتائج واحدة، فكل منهما ينكر السجع في كتاب الله، لأن السجع مما عرفته العرب، ولذا عقد الباقلاني فصلاً لنفي السجع، وآخر لنفي الشعر عن كتاب الله تعالى.

ثانياً: إنه ليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والبراعة، هذا المعنى يرجع إلى القضية البلاغية في القرآن من حيث أسلوبه وألفاظه وكونه نسقاً واحداً، فالباقلاني يرى أن القرآن نسق واحد في البلاغة، ليس بين آياته تفاوت واختلاف، وهذا هو ما ذهب إليه أكثر العلماء، فالقرآن على طوله متساوٍ في الفصاحة والبلاغة، وهذا ما لا نجده في كلام الفصحاء والبلغاء، فإذا أخذنا ديوان شعر لأكثر الشعراء إتقاناً، فسوف نجد قصائده متفاوته من حيث بلاغتها، فقد يجود الشاعر في قصيدتين أو ثلاث، وكذلك إذا أخذنا القصيدة الواحدة فلن نجد أبياتها سواء، وإنما نجد بيتاً أو اثنين أو ثلاثة هي في القصيدة واسطة عقدها ودرة حلقتها، وقل ذلك في النثر، لكن القرآن أوله وآخره سواء في بديع النظم وعلو الأسلوب.

ثالثاً: عجيب نظمه لا يتفاوت ولا يتباين: موضوعات القرآن جميعها على ما بينها من اختلاف لا نستطيع القول إن بعضها أفصح من بعض، فكما أن آيات القرآن لا تتفاوت فكذلك موضوعاته، وهذا أمر لم يعرفه العرب، فالشاعر لا يستطيع أن يجود في موضوعات متعددة، قد يجود أحدهم في المدح وآخر في الهجاء وثالث في الفخر كما رأينا ذلك عند الفرزدق وجرير، وقد يجود شاعر في الهجاء وآخر في الغزل والنسيب، وثالث في الحكمة وقد يجود أحدهم إذا خاف ورهب، وآخر إذا انتشى وطرب، وثالث إذا

أُعْطِيَ ورغب، ومن هنا قالوا: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب.

والقرآن الكريم ليس كذلك فمع كثرة موضوعاته فهي في رفعة شأنها سواء من جهة، ومن جهة أخرى فمع هذه الأحوال المتعددة التي كان عليها سيدنا رسول الله ﷺ وهو ينزل عليه الوحي، فإن ذلك لم يغير من أسلوب القرآن شيئاً.

وهذا الوجه الثالث يختلف بالطبع عن سابقه، فقوام هذا الوجه أن القرآن الكريم على تعدد موضوعاته إلا أنه في أعلى درجات البلاغة، والذي عرف عن الشعراء والكتاب غير ذلك، فكما أن الشعراء يجود كل في موضوع، فإن الذين يتعاطون النثر كذلك يجود أحدهم في الخطبة وثانٍ في القصة وثالث في المقال، أما الوجه الثاني فقوامه أن القرآن على طوله هو في الصنعة البلاغية سواء، ولا كذلك الشعر والنثر في كلام البشر .

الرابع: كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول، أما القرآن الكريم فمع كثرة موضوعاته التي هي نسق واحد فإن هناك وجهاً آخر يدل على إعجازه وهو ما فيه من جودة وإحكام الرصف، ذلك أن أي بليغ حين يتكلم في موضوع ويريد الانتقال إلى غيره نشعر أن هناك عجزاً في الانتقال فمن تكلم في الشعر عن الغزل مثلاً يصعب عليه الانتقال إلى المدح، وقليل هم الذين لا يشعروننا بالنقلة والتكلف، ولهذا عيب على البحتري مع جودة شعره- ورقة طبعه – عدم تجويده في الانتقال من النسيب إلى المديح.

ولكن القرآن يجمع بين المختلف فيجعله مؤتلفاً وينقلنا من الموضوع الواحد إلى الآخر دون الشعور بهذا الانتقال، خذ سورة العلق فإنه لا يخطر في بالك عند قراءتها أنها نزلت مفرّقة وذلك لما تجده بين آياتها من إحكام السبك وجودة الرصف والربط، مع أن الآيات الخمس الأولى هي التي نزلت أولاً، ونزل القسم الآخر بعد سنين، كذلك سورة

البقرة التي نزلت في عشر سنين ومع ذلك نجدها من أول آية إلى آخر آية مترابطة متناسقة.

الخامس: أن نظم القرآن وقع موقعاً من البلاغة يخرج عن عادة الجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨][١].

السادس: كلام العرب فيه من فنون القول والإطناب والاستعارة والتشبيه وغيرها من الأساليب المتعددة كالتبكيت والوعظ والوعد والوعيد، وحينما ننظر في القرآن نجد فيه هذه الأساليب، لكن على وجه لم يستطعه العرب، فالقرآن تارة يعبر بالإيجاز وتارة بالإطناب، وتارة بالاستعارة وأخرى بالحقيقة، ولكن لكل أسلوب ما يناسبه ويتلاءم معه.

السابع: وهو يتعلق بمعاني القرآن، فالمعاني التي جاء بها القرآن لا يستطيع أحد من الناس الإتيان بها، ويعني الباقلاني بالمعاني هنا الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم، وهي الموضوعات الفكرية سواء كانت تلك الموضوعات تشريعية أم عقدية، وسواء كانت حجاجاً ورد شبهات أم حديثاً عن مبدأ خلقي وقضية تربوية، وهذه المعاني القرآنية مبتكرة لأن كثيراً من موضوعات القرآن كانت بكراً لم تكن مما عرفه الناس من قبل، لا في الكتب السماوية ولا في نظريات الفلاسفة، ولا في التشريعات القانونية.

يقول الباقلاني:" واختيار اللفظ لمعنى متداول معروف بين الناس أمر سهل ميسر، لكن الأمر الذي فيه صعوبة ودقة وعسر على كثير من الناس هو اختيار الألفاظ لمعان جديدة غير معروفة ولا مألوفة، وكذلك كان القرآن الكريم فمعانيه جديدة اختيرت لها ألفاظ بارعة»[٢].

---

(١) الباقلاني – إعجاز القرآن – ص ٤١.
(٢) الباقلاني – إعجاز القرآن-- ص ٤٢.

وهي لفتة من الباقلاني تستحق التقدير، فاللفظ والمعنى في كتاب الله كلاهما فيه جدة وليس ذلك بمتيسر للكثير من الناس، فالبراعة في اللفظ من شأن الأدباء، والجدة في المعنى من شأن رجال التشريع والفلسفة والأخلاق.

الثامن: الناظر في كلام الناس لا يجده سواء، فربما وجدنا في الجملة أو الفقرة أو الأبيات من الشعر كلمة رائعة رائقة تتوجه إليها الأنظار والآذان، وتجتلب الأذهان أكثر من غيرها، هذه الكلمة إنما هي درّة العقد في الجملة أو الفقرة أو القصيدة لكن القرآن الكريم ليس كذلك، بل كل كلمة منه إذا وضعت مع غيرها تجدها درّة عقد وحلاوة شهد.

يقول الباقلاني: لذلك إذا وضعت الكلمة القرآنية في كلام كانت هذا الكلمة منادية على نفسها بالروعة ممتازة على غيرها[1].

التاسع: هذه الأحرف المقطعة في فواتح السور التي نجدها في ثمان وعشرين سورة ومجموع هذه الحروف أربعة عشر حرفاً، وهي نصف الحروف الهجائية ولكن لكل حرف صفات خاصة به، وصفات الحروف كثيرة، ذكر علماء التجويد منها سبع عشرة صفة، فإذا نظرت إلى الحروف المفتتحة بها السور القرآنية وجدت أنها اشتملت على جميع الصفات.

خذ الأحرف المهموسة مثلاً وهي مجتمعة في قولهم: (فحثه شخص سكت) تجد أنه قد ذكر نصف هذه الأحرف في فواتح السور وهي الحاء والسين والصاد والكاف والهاء، وضد الهمس الجهر وستجد حروفها كذلك ذكرت في فواتح السور، وكذلك الشدّة والرخاوة والذلاقة والقلقلة، فليست هناك مجموعة ذات صفة واحدة إلا وذكر نصفها في فواتح السور، فاكتفى بها ذكر عن غيره، وهذا ترتيب بديع يدل على الإحكام.

---

(١) الباقلاني – إعجاز القرآن ص ٤٣.

العاشر: أن القرآن مع ماله من بلاغة إلا أنه سهل ميسر، قريب ليس بالغريب الصعب، ليس فيه كلام وحشي مستكره، وليس فيه ما يصعب على النطق أو ما تنفر منه النفس وتمجه، فالقرآن كله سهل ممتنع، سبيله ميسّر، وصعبه مفسّر، وهكذا القرآن نقرؤه ولا نشعر أنه بحاجة إلى تفسير.

٢- القاضي عبد الجبار الهمذاني(١):

وهو من أئمة المعتزلة بخاصة، والمسلمين بعامة، تأثر القاضي بشيوخ الاعتزال وبخاصة الجبائيين أبا علي وأبا هاشم، وإن لم يتلق عنهما مباشرة، وهو كثيراً ما ينقل عنهما وعن غيرهما كأبي الهذيل العلاف، والذي يهمنا من آثاره الكثيرة القيّمة حديثه عن إعجاز القرآن في سفره الضخم " المغني في أبواب التوحيد والعدل " فأنت حينما تتصفّح الجزء السادس عشر من هذا الكتاب، وهو مجلّد يشتمل على مئات الصفحات تجد أن جُلَّه في الحديث عن الإعجاز.

عرض القاضي عبد الجبار في هذا الجزء لقضايا متعددة، فقد تحدث عن الخبر وما يتصل به، ثم تحدث عن الرسالة والرسول، وعن التواتر الذي ثبت به القرآن.

١- وقد بين لنا المراد من كلمة (الإعجاز) حين قال: ومعنى قولنا في القرآن: إنه معجز أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختصّ به(٢).

٢- ويتحدث عن الفصاحة، فيبين أن الكلام يكون بجزالة لفظه وحسن معناه، ولا بد من اعتبار هذين الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، والفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة، وإنما بضم هذه الكلمات بعضها إلى بعض،

---

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد آبادي، أبو الحسين، قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره ويلقب قاضي القضاة، توفي عام ٤١٥ هـ له من الكتب تنزيه القرآن عن المطاعن.

(٢)ص٢٢٦.

ويذكر جهات ثلاث لا رابع لها، تظهر بها فصاحة الكلام:

الجهة الأولى: اختيار الكلمة نفسها.

الجهة الثانية: حركة هذه الكلمة من حيث الإعراب.

الجهة الثالثة: موقع هذه الكلمة تقديماً أو تأخيراً، وتعريفاً أو تنكيراً، إلى غير ما هنالك من أساليب[(١)].

أما الجهة الأولى: فلأن الكلمة التي تصلح في موضع يمكن أن لا تصلح في موضع آخر، **وأما الجهة الثانية:** فلأن إعراب الكلمة يلقي ضوءاً على المعنى المراد منها، ذلك لأن الإعراب فرع المعنى. **وأما الجهة الثالثة**، وهي موقع الكلمة، فلأن هذا الموقع يتغير به المعنى ويتبدّل.

ولنمثل لك الآن بعض الأمثلة التي توضّح كلام القاضي عبد الجبار:

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١- ٢]، فقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ تظهر فيه الجهات الثلاث التي تحدّث عنها القاضي عبد الجبار، أما الجهة الأولى فهي اختيار كلمة ريب، دون غيرها من الكلمات كالشك والمرية، وأما الجهة الثانية فمجيء كلمة ريب مبنية على الفتح، وهي اسم (لا) النافية للجنس، ولم تجِئْ مرفوعة، فلم يقل: (لا ريبٌ فيه) وأما الجهة الثالثة، فهي تقديم كلمة (ريب) على الجار والمجرور (فيه) ولا شك أن لكل واحدة من هذه الجهات الثلاثة حكمة بيانيّة.

فاختيار كلمة (ريب) لأنها تعطي ما لا تعطيه كلمة (شك)، فإن الشك تردد النفس بين شيئين، ولكن الريب شك مع تهمة وقلق واضطراب، ومجيئها مبنية على الفتح يدل على نفي الريب نفيا تاماً، وقد قرروا أنك إذا قلت: (لا رجل في البيت) بالبناء على الفتح،

---

(١) ص١٩٩.

فإنه نفي لوجود جنس الرجل في البيت، ولذا لا يجوز أن تقول: (لا رجل في البيت بل رجلان) ولكنك إذا قلت: (لا رجل في البيت) بالضم، فهو نفي للوحدة، ولا يمكنك أن تقول: (بل رجلان).

وأما الجهة الثالثة فلأن تقديم كلمة (ريب) يعطي معنىً غير المعنى الذي تأخر فيه، فمعنى لا ريب فيه، نفي الريب عن القرآن دون التعرّض لغيره من الكتب، ولكن لو قال: (لا فيه ريب) لكان المعنى إثبات الريب في غيره من الكتب، ألا ترى قوله سبحانه في وصف خمر الجنة: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات: ٤٧] في أن المراد ليس نفي الغول عن خمر الجنة فحسب، وإنما المراد مع ذلك إثباته في خمر الدنيا.

وأرجو أن يكون في هذا المثال توضيح لما قصده القاضي عبد الجبار، ومنه ندرك أن الفصاحة التي أشار إليها القاضي، ليست هي الفصاحة التي استقر عليها علماء البلاغة المتأخرون، وهي التي تكون وصفاً للكلمة أو الكلام، وذلك بخلوّه من العيوب كالغرابة والثقل ومخالفة قواعد اللغة. إنما الفصاحة التي عناها القاضي تشمل في مفهومنا نظم الكلمات بعضها مع بعض، وهي ملحوظة قيّمة وخطوة ذات شأن خطاها في إبراز نظرية النظم.

٣- ويرى الشيخ أن الإعجاز ليس في نظم الكلام، وهو يعني بالنظم ورود الكلام على طريقة مخصوصة، أي القالب الشكلي الذي جاء عليه القرآن الكريم، وليس النظم الذي تحدّث عنه الخطابي، والذي سنتحدث عنه عند الجرجاني [١] وقد تحدثنا عن هذا من قبل، فهذا الذي سمّاه الرماني نقص العادة، وجعله الباقلاني الوجه الأول من الوجوه العشرة التي ذكرها لبلاغة القرآن، يقول عبد الجبار: إن ذلك ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز، لأنه لو كان كل قالب جديد معجزاً، لكان ينبغي أن يكون أول ما قيل

---

(١) المغني ج ١٦ / ١٩٨.

من الشعر معجزاً، لأنه لم يعرف من قبل.

٤- ويعرض للقول بالصَّرْفَة، ويذهب إلى أنها لا تصلح أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز، وقد أطال الحديث عن هذه القضية، وأتى على الشبهات التي يمكن أن تعرض في هذا الأمر[١].

٥- أما الإخبار عن الغيب فيرى الشيخ أنه لا يصلح وجهاً من وجوه الإعجاز، لأن التحدّي كان بسورة من سور القرآن، وكثير من هذه السور ليس فيها شيء من أنباء الغيب[٢].

٦- ويقرر القاضي أن القرآن ليس معجزة العرب وحدهم، وإنما هو معجزة لسائر الناس كذلك، وأن العجم وإن لم يعرفوا مزايا الفصاحة، لكنهم عرفوا عجز العرب الذين هم أهل الفصاحة بسليقتهم وهذا كافٍ في إقامة الحجّة عليهم[٣].

ومما تقدم ندرك أن القاضي عبد الجبار يتفق مع الخطابي والباقلاني الأشعري في أن الصَّرْفَة ليست من وجوه الإعجاز، وهو بذلك يخالف الرماني المعتزلي، كما أنه يتفق مع الخطابي في أن الإخبار بالغيب لا يصلح وحده أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، وهو بذلك يخالف الرماني المعتزلي والباقلاني الأشعري، ويخالفهما كذلك فلا يعد القالب اللفظي وجهاً من وجوه الإعجاز، وهو يتفق في ذلك مع الخطابي، وإنما ذكرت هذه النتائج لأبيّن أن قضية الإعجاز ليس فيها اختلاف يذكر بين الأشاعرة والمعتزلة – كما صوره كثير من الكاتبين – وإن كان هناك خلاف فليس في جوهر الأمر، وإنما هو في بعض القضايا الكلامية، فالفصاحة التي قال بها القاضي عبد الجبار لا تخرج عن النظم الذي قال به الخطابي وعبد القاهر.

(١) المغني ١٦/ ٢٢٠.
(٢) المغني ١٦/ ٢٢٠.
(٣) المغني ١٦/ ٢٩٤

٣- عبد القاهر الجرجاني[١]:

اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يختلف الناس في مواهبهم وقدراتهم، ففي مختلف العصور نجد من الناس من هيّأ الله لهم وسائل الإبداع فهم يسبقون غيرهم، مما يحمل أبناء عصر كل منهم على الاعتراف لهؤلاء، ولقد كان عبد القاهر – رحمه الله – من هذه الصفوة الذين برزوا، فكان ما أنتجه فكره وسطره يراعه إبداعاً، اعترف له به المنصفون، وما أبعد الفرق بين الذاكرة الحافظة التي تحفظ أقوال السابقين، وبين العقلية المبدعة المفكرة التي تفيد من السابقين، ولكنها تبرز جديداً يكون مثار الإعجاب، وشغل الباحثين يجدون فيه الجِدّة والإبداع.

لعل عبد القاهر كان أقل إنتاجاً من كثير من معاصريه وممن سبقوه، وممن جاؤوا بعده وهذا إذا راعينا الجانب الكمي، ولكن الجانب الكمي وحده لا يغني كبير غناء في كثير من الأحيان.

كان عبد القاهر- رحمه الله – متكلماً أشعرياً، وكان إماماً في اللغة والنحو والأدب والبيان والنقد، وهي معارف يتصل بعضها ببعض، وكان له نتاج جيد يعنينا منه ما يتصل بإعجاز القرآن الكريم ومن أبرزها الرسالة الشافية، ودلائل الإعجاز.

أما الرسالة الشافية فهي جزء صغير عرض فيها لبعض القضايا الأولى التي تتصل بالإعجاز، حيث أثبت عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، وناقش فيها القائلين بالصَّرْفَة، كل ذلك بأسلوب قوي متين، وقد أشار إلى ذلك في مقدّمة رسالته، ولكنه لم يعرض في هذه الرسالة إلى ما يكون به الإعجاز.

---

(١) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، وله شعر، من كتبه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، والمغني في شرح الإيضاح، توفي عام ٤٧١ هـ.

أما ما يكون به الإعجاز – كما يراه – فقد أفرد له كتابه دلائل الإعجاز، وهو الذي ضمنه نظريته في النظم .

نظرية النظم :

لا بد قبل شرح هذه النظرية من أن نعرّفك أن الناس كانوا قبل عبد القاهر وفي عصره فريقين: فريقاً شغف باللفظ ورأى أنه هو الأمر الذي يتفاضل به الكلام، فكان يجهد نفسه في اختيار الكلمات وتنقيتها.

والفريق الآخر رأى أن الفضيلة للمعنى، وأن الألفاظ هي القوالب التي توضع فيها المعاني.

ويجيء عبد القاهر – رحمه الله – ويقف أمام هذين الفريقين أنصار المعنى وأنصار اللفظ، وبعد أن هضم كثيراً من أنواع المعارف التي كانت في عصره، وبخاصة النحو والأدب والبيان، وما كتب في إعجاز القرآن الكريم، يبرز للناس نتيجة لهذه الدراسات كلها نظريته في النظم.

قيمة الفصاحة:

بدأ عبد القاهر حديثه في كتاب دلائل الإعجاز عن أهمية علم البيان ورفعته ومنزلته بين العلوم، وعن أهمية الأدب والشعر، ناعياً على الذين لا يدركون ما لعلم البيان من فوائد، ولا يقدّرون ما يحدثه الشعر من أثر في النفس، مكتفين بالوقوف عند ظواهر الأمور، ليس عندهم إلا التقليد لمن سبقهم، ويبين عبد القاهر لهؤلاء أنهم ما داموا على هذه الحال، فلن يستطيعوا أن يتذوقوا كتاب الله، ولن يدركوا إعجاز القرآن الكريم إدراكاً يقوم على أسس صحيحة وقواعد ثابتة.

يقول في ذلك كله – أي في بيان أهمية الفصاحة والبيان: « لم أزل منذ خدمت العلم

أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعضَ ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطْلَب، وموضع الدَّفين ليُبْحث عنه فيُخْرَجَ، وكما يفتح لك الطريقُ إلى المطلوب لتسلكه، وتُوضع لك القاعدة لتبنيَ عليها. ووجدت المُعوَّل على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأن سبيلَ هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها».

«وإذا كان هذا هكذا، علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصِبَ لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول وتحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم وتَعُدُّها واحدة واحدة وتُسَمِّيَها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصَّنَع الحاذق، الذي يعلم عِلْمَ كل خيط من الإبْرِيسم[1] الذي في الديباج.

وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر، وطلبتها هذا الطلب، احتجت إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همّة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام، وأن تَرْبَعَ إلا بعد بلوغ الغاية».

«وجملة ما أردتُ أن أبينه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل. وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة، ومعانٍ شريفة، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً، وفائدة جسيمة، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل

(١) أحسن الحرير.

فيما يتعلق بالتأويل... وإنه لَيُؤْمِنُك من أن تغالطَ في دعواك، وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك أنك تستبين هُدًى ثم لا تهدي إليه».

وبعد هذا التمهيد في كتاب الدلائل يشرع – رحمه الله – في بيان فكرته وشرح نظريته، وسأحاول هنا أن ألخص لك هذه النظرية في خلاصة ميسّرة، لكني أريد منك أن توجّه إليّ ذهنك وفكرك، وأن تعمل بنصيحة عبد القاهر التي نقلتها لك آنفاً.

عناصر الكلام:

يرى عبد القاهر – رحمه الله – أن الكلام الذي يؤدى عند المتكلم، ويكون مقبولاً عند المخاطبين، لا بد له من ثلاثة عناصر: اللفظ، والمعنى والنظم، أما اللفظ فهو هذه الحروف والكلمات التي تنطق بها ألسنتنا، وتسطرها أقلامنا. وأما المعنى فهي تلك الأمور التي نجدها في نفوسنا، ونودّ أن نعبّر عنها ليدركها المخاطبون. وعلى هذا فالألفاظ قوالب للمعاني، فالمعنى هو المعبِّر عنه، واللفظ هو المعبَّر به، فإذا رأيت زهرة فأعجبك منظرها، أو تأملت واقع أمتنا فساءك حالها، أو قرأت تاريخ الدول الاستعمارية قديماً وحديثاً، فاعترت نفسك الدهشة. هذه كلها معانٍ استقرت في نفسك، فهي تفعل في نفسك فعلها، فتجد لها آثارها المتعددة المختلفة، وتظل كامنة في نفسك معاني مجردة، فإذا رأيت أن تبثها غيرك من الناس، وأن تخرجها من داخل جوانحك، وعميق خفاياك، وأرجاء نفسك، إذا أردت أن تخرجها لتسمع بها نفسك وغيرك، فإنك تنطق بها ألفاظاً مكوّنة من حروف وكلمات.

هذه هي الصلة بين اللفظ والمعنى كما يجدها كل واحد منا من نفسه. وهذا الذي كان يعرفه الناس في عصر عبد القاهر ومن قبله كذلك، ومن هنا اختلف الناس بين من يشيد باللفظ، أو يشيد بالمعنى.

ولكن عبد القاهر – رحمه الله – لم يقف عند هذين العنصرين، بل رأى أن هناك

عنصراً ثالثاً لا بد من مراعاته، ليؤدي الكلام غرضه صحيحاً مقبولاً، وهذاالذي أبرزه عبد القاهر، وجدنا من العلماء قبله من يشير إليه وينبّه عليه، كما عرفت من قبل عند الخطابي والقاضي عبد الجبار، إلا أن عبد القاهر بلغ الغاية بما بيّن وفصّل.

هذا العنصر الثالث الذي لا بد منه هو الذي يسمّى النظم، فما هو هذا النظم ياترى؟

معنى النظم :

يقول عبد القاهر: إن النظم هو توخّي معاني النحو، وبيان ذلك: أننا حينما ننطق بالكلمات والجمل، فلا بد من أن تكون مرتبة ترتيباً مقبولاً معقولاً.

الكلمة كما نعلم: اسم وفعل وحرف، ولا بد من ترتيب صحيح بين هذه الأجزاء، فلا يمكن أن يكون الترتيب بين حرف وحرف، لا يمكن أن نقول مثلاً: (إن من)، فإن (إن) كما نعلم حرف شرط و (من) حرف جر، ولا نستطيع أن نقول كذلك: (هل بل) فإن ذلك ليس له معنى، كذلك لا يجوز الترتيب بين الفعلين، فلا نستطيع أن نكون جملة من قولنا: (أخذ مشى)، لأنه مثل هذه لا تكون جملة مفيدة، وهي مرفوضة كما بيّنته قواعد النحو.

الترتيب لابد إذن أن يكون بين اسمين كقولنا: (الوحدة قوة)، أوبين اسم وفعل مثل: (ربح المجاهدون) أو يكون هناك حرف يربط بين الأسماءوالأفعال، كما نقول: (نصلي في الأقصى)، (نبيع لله أرواحنا).

هذه اللبنة الأولى في النظم، وهو أن يكون موافقاً لقواعد النحو، أما اللبنة الثانية وهي الأهم من سابقتها، فهي أن يكون هذا النظم دقيقاً، بحيث ترتب المعاني التي تريدها في نفسك أولاً، ثم تختار لها بعد ذلك الألفاظ التي تتفق مع هذه المعاني، وهذا ملحظ دقيق يحتاج منك إلى حضور نفس، وحضور فكر، وجديّة ويقظة، والله المستعان، اللهم لا

سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحَزْنَ سهلاً إذا شئت[1].

كثيرة تلك المعاني التي نجدها في نفوسنا، ونجد أنفسنا مضطرين أن نعبّر عنها بألفاظ يفهمها المخاطبون، قد يسألك أستاذك عن حفظ سورة البقرة وسورة آل عمران، وهما الزهراوان كما جاء في حديث سيدنا رسول الله ﷺ، فبماذا تجيبه يا ترى إذا كنت لم تحفظ إلا سورة البقرة؟ يمكنك أن تقول:" حفظت سورة البقرة" ويمكنك أن تقول: " سورة البقرة حفظت".

وقد يسألك سائل آخر: "هل حفظت سورة البقرة؟ " يمكنك أن تجيبه كذلك بالجملتين السابقتين: (حفظت سورة البقرة)، (سورة البقرة حفظت)، ولكن أمعنى ذلك أن الجملتين سواء؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد أن ننظر إلى المعنيين في أنفسنا، أهما سواء أم بينهما اختلاف ؟، وسنجد أن المعنيين مختلفان، لأن السؤال الأول كان عن حفظ السورتين معاً، والذي قررته في نفسي أنني لم أحفظ إلا سورة البقرة، وهذا الذي أريد أن أتلفّظ به، أما السؤال الثاني: فهو هل حفظت سورة البقرة؟، والجواب أنني حفظتها، وهذا الذي أريد أن أخبر به السائل.

إذن هناك اختلاف بين المعنيين في نفسي، وإذا كان هناك اختلاف بين المعنيين، فلا بد

---

(١) كان والدي – رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه – يؤخر القيد (إذا شئت) وهذا هو النظم الذي نتحدث عنه، فإن في تأخير هذا القيد مراعاة للنفسية، حيث قدمت كلمة (سهلاً) التي تشعر له بالراحة، وبأن رحمة الله تعالى قريب، بينما إذا قلت: (تجعل الحزن إذا شئتَ سهلاً) فكأن السهولة بعيدة جداً.. هناك ما يحول بينها وبين الصعوبة، أما تأخير القيد فإنه يشعرك بالطمأنينة وبسعة فضل الله تعالى وعظيم تيسيره. وقد تقول: إنه دعاء ورد عن رسول الله ﷺ، لا تجوز مخالفته؟ وأقول: صحت رواية الحديث باللفظ المذكور (... وأنت تجعل الحزن سهلاً إذا شئت) انظر «صحيح ابن حبان» ٣/ ٢٥٥ الحديث ٩٧٤، وبلفظ (... وأنت تجعل الحَزْن إذا شئت سهلاً) انظر « عمل اليوم والليلة» لابن السني الحديث (٣٥٢).

أن ينتج عنه اختلاف بين اللفظين، وعلى هذا فالإجابة الصحيحة عن السؤال الأول "سورة البقرة حفظت " وعن السؤال الثاني " حفظت سورة البقرة".

نحن نرى أن اللفظ واحد في كلتا الجملتين، لكن الذي اختلف النظم، أعني ترتيب الكلمات، قلنا في الجواب الأول: (سورة البقرة حفظت) فقدمنا المفعول على الفعل، فإن هذا التقديم يفيد القصر والاختصاص، ومعنى هذا أنني لم أحفظ إلا هذه السورة، فلم أحفظ سورة آل عمران، أما الجملة الثانية (حفظت سورة البقرة)، فإن هذا هو الذي يتّسق مع السؤال، ولا يدلّ على أنني لم أحفظ غير هذه السورة.

وهكذا ندرك أنه إذا اختلف المعنى الذي نريد أن نعبّر عنه، فلابد أن يختلف الترتيب في اللفظ الذي نريد أن نُعبر به، وإليكم مثالاً آخر :

قد تذهبين لزيارة صديقتك سعاد في أيام الامتحانات، فينكر عليك والداك هذه الزيارة فيقولان: (أتزورين سعاد؟) ويمكن أن يقال أيضاً: (أسعادَ تزورين؟)

الجملتان سواء من حيث اللفظ، ليس في إحداهما زيادة على الأخرى، لكنهما اختلفتا من حيث النظم، التقديم والتأخير، وعلى هذا لا بد أن يكون لكل منهما معناها الخاص بها، فإذا كان إنكار والديك عليك زيارة سعاد، لأن الوقت غير مناسب، ولأن الظرف هو ظرف الامتحانات، لا يجوز أن تضيعي وقتك بالزيارات فيجب أن تكون الجملة هكذا (أتزورين سعاد؟).

أما إذا كان إنكارهم لزيارتك لأنهما لا يريدان أن تكون علاقة بينك وبين سعاد لسبب ما، فيجب أن يكون نظم الجملة هكذا (أسعاد تزورين؟). فالإنكار في الجملة الأولى توجه إلى الزيارة نفسها، لأنها في وقت غير مناسب، أما في الجملة الثانية فقد توجه الإنكار لا للزيارة، بل للمفعول، كأنها ليست حرية بهذه الزيارة، وذلك بقطع النظر عن الوقت وملاءمته.

وهكذا ترتب المعنى الذي نريد أن نتحدث عنه، ثم نرتب الألفاظ التي نريد أن نعبّر عنها. **وهكذا ندرك مما تقدم أن النظم لا بد له من عمليتين اثنتين:**

أولاً: ترتيب المعاني في النفس.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في النطق.

وندرك كذلك أن النظم شيء غير اللفظ والمعنى.

مما سبق ندرك أن هناك فرقاً كبيراً بين قولي: (أعني فلاناً)، وقولي: (إياك أعني) فإن معنى الجملة الأولى أنني أعنيه وقد أعني غيره، أما الجملة الثانية فمعناها أنني أوجّه العناية له وحده.

وبين قولي: "لا ضجة في الحجرة المجاورة " وقولي " ليس في الحجرة المجاورة ضجة"، فإن معنى الجملة الأولى نفي الضجة من الحجرة المجاورة لحجرتنا، **أما الجملة الثانية فتفيد أمرين اثنين:**

أولاً: ما أفادته الجملة الأولى من نفي الضجة في الحجرة المجاورة.

ثانياً: إثبات الضجة في حجرتنا أو في حجرة أخرى.

هذا هو النظم الذي عناه عبد القاهر – رحمه الله – (ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس) .

وقد حرص في كتاب الدلائل، على توضيح أمرين اثنين :

أولاً: الرد على الذين يزعمون أن الفضيلة للألفاظ وحدها.

ثانياً: الفصول التطبيقية الكثيرة التي ذكرها شرحاً لنظريته.

الجانب الأول: رده على أنصار اللفظ :

١-أنه لو كانت الفصاحة للفظ وحده، أي من حيث هو لفظ، لكان ينبغي أن لا تفارقه الفصاحة في أي موضع ورد فيه هذا اللفظ، والأمر ليس كذلك، فكم من كلمة تغنى الأدباء بفصاحتها في موضع، ولكنهم استرذلوها في مواضع أخرى، وكم من كلمة حسنت في بيت من الشعر، ولكنها قبحت في آخر[١].

٢- الناس ليسوا سواءً في تذوق فصاحة الكلمات، فلو كانت الفصاحة صفة للكلمة، لما جاز أن تفارقها أبداً، فالفصاحة صفة لا تدرك بالسمع، وإنما تدرك بالقلب، ونحن نعلم أن المعاني هي التي تدرك بالقلوب وليست الألفاظ، أما قولهم كلام فصيح، فإنما يقصدون به أنه متلائم مع المعنى الذي جيء به من أجله[٢].

٣- لو كانت الفصاحة للألفاظ وحدها لما كان هناك فرق بين الجمل المتفقة في الكلمات، المختلفة في النظم، مع أننا رأينا كثيراً من الفروق في الأمثلة التي ذكرناها من قبل، فما أعظم الفرق بين قولنا: (سورة البقرة حفظت) و (حفظت سورة البقرة)، (أتزورين سعاد؟ وأسعاد تزورين ؟)، (لا ضجة في الحجرة المجاورة) و (ليس في الحجرة المجاورة ضجة).

تساؤل لا بد منه :

وقد تتساءلون هنا كيف ينكر عبد القاهر فصاحة الألفاظ، مع أننا ندرك بداهة أن هناك ألفاظاً نجد لها خفة على ألسنتنا متكلمين، وخفة على آذاننا مستمعين، ولا نجد هذه الخفة لما يشابهها من ألفاظ؟ إننا ندرك بداهة الفرق بين كلمتي (الغصن والعُسْلُوج)،

---

(١) الدلائل ص ٤٠١.

(٢) الدلائل ص ٤٠٧

و(السيف والخنشليل)، و (النفس والجِرِشَّى)،(المزن والبُعَاق) ومعناهما واحد، فكيف ينكر عبد القاهر أن يكون للفظة ذاتها خفة في نفسها على اللسان أو في الأذن ؟

والجواب: أن هذا لا يخفى على أفراد الناس فكيف يمكن أن يخفى على عبد القاهر، إن عبد القاهر لا ينكر أن يكون للألفاظ المفردة فصاحة بمعنى أنها خفيفة في النطق أو على السمع، ولكن حديثه عن الكلمات المجموعة بعضها إلى بعض، حديثه ليس في الكلمات المفردة – إذن – فهو لا ينكر أن للكلمات المفردة خفة أو ثقلاً، وأن بعضها من هذه الحيثية خير من بعضها الآخر، وهذه قضية غلط فيها كثير من الكاتبين الذين ظنوا أن تركيز عبدالقاهر على النظم أو على المعنى، وعدم إشادته بالألفاظ، ظنوا ذلك إغفالاً منه لأفضلية بعض الكلمات على بعض من حيث جرسُها ووقعُها في اللسان وعلى الأذن، وليس الأمر كما ذهبوا إليه، فالشيخ في أكثر من موضع من كتابه ينبه على هذه القضية ويشير إليها.

ولنستمع إلى ما كتبه رداً على هذه الشبهة، وهي أننا لا نستطيع أن ننكر التفاضل بين الألفاظ، فلقد نجد المعنى يُعَبَّر عنه بلفظتين، إحداهما أيسر نطقاً وأخف على السمع من صاحبتها، يقول:

«والجواب وبالله التوفيق، أن نقول للمحتج بذلك: قولك إنه يصح أن يُعَبَّر عن المعنى الواحد بلفظين، يحتمل أمرين:

أحدهما: أن تُريد باللفظين كلمتين معناهما واحد في اللغة مثل " الليث والأسد "، ومثل " شَحَطَ "، و" بَعُدَ"، وأشباه ذلك مما وضع اللفظان فيه لمعنى.

والثاني أن تريد كلامين، فإن أردت الأول خرجتَ من المسألة، لأن كلامنا نحن في فصاحة تحدث من بعد التأليف، دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة مفردة، ومن غير

أن يُعْتَبَر حالُها مع غيرها»[1].

وهذه إجابة من الشيخ حرية بالفهم، لأنها تبدّد كل وهم، فهو لا ينكر أن بعض الكلمات المفردة أفصح من بعض من حيث خفتها وجرسها، وهذا لا شأن له بالنظم، لأن النظم لا يكون في الكلمة الواحد، وإنما النظم ضم بعض الكلمات إلى بعض، وفصاحة هذا النظم هي التي يتحدث عنها الشيخ ويرى أنها ترجع إلى المعنى.

ونراه يؤكد هذه القضية في أكثر من موضع من كتابه الدلائل[2].

والحق أننا بعد تتبع كتاب الدلائل وجدنا أن الشروط التي اشترطها علماء البلاغة لفصاحة الكلمة وهي خفتها، وكونها جارية على القياس الصرفي، موافقة لما قرره اللغويون، لم يهمله عبد القاهر، بل أشار إليه ونبه عليه .

الجانب الثاني: القواعد التطبيقية لنظرية النظم :

القواعد التطبيقية التي ذكرها لشرح نظريته كثيرة، عقد لها فصولاً مثل التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والتأكيد، والفروق بين الخبر، والقصر والفصل والوصل، إلى غير ذلك من فصول. وفي هذه الفصول كلها يذكر تطبيقات عملية من آي القرآن الكريم، ومن الشعر الجيد ليبرهن على أن النظم هو الذي يرجع إليه فضل الكلام .

ففي التقديم والتأخير مثلاً: يشير إلى قوله سبحانه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، حيث قدم الضمير (أنت) على الفعل (فَعَلْتَ) ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ ﴾حيث جاء نظم الآية هكذا ولم يقدم الفعل فيقال: (أفعلت هذا) وسر ذلك كما يرى

---

(١) الدلائل ص ٤٢٢

(٢) انظر الدلائل ص ٤٥٨

عبدالقاهر أننا نقدم ما هو مشكوك فيه، أما الأمر المتيقن فلا يجوز أن نقدمه، فإذا كان الشك في الاسم قدمناه، واذا كان الشك في الفعل قدمناه، فإذا سمعت قصيدة من أحد الناس وأنا لا أعرف أهي من شعره أم شعر غيره، فلا يجوز أن أقول له: (أقلت هذه القصيدة ؟)، لأن القول مفروغ منه، وإنما يجب أن أقول: (أأنت قلت هذه القصيدة ؟) لأن هذا هو الأمر المشكوك فيه أقالها هو أم غيره؟

وإذا جلست في بيت أحد الناس فلا يجوز أن أقول: (أبنيت هذا البيت؟) لأن البناء قد تم، وإنما أقول له: (أأنت بنيت هذا البيت؟).

ونستطيع أن نفهم الآية الكريمة على هذا النحو، فالأصنام قد حطمت، ولكنهم يريدون أن يقرروا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتحطيمها، فجاء نظم الآية هكذا ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾؟ [الأنبياء: ٦٢].

وأما التعريف والتنكير، فيمثل له عبدالقاهر بقول الله تعالى، حديثاً عن اليهود: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]، ولم يقل: (على الحياة) حيث يفيد التنكير أن اليهود يحرصون على الحياة أياً كانت ذليلة حقيرة، فيها هوان وصغار.

وفي الفروق بين الخبر يفرق بين قولنا: (زيد منطلق) و (زيد المنطلق) و (المنطلق زيد) فإن كلاً من هذه العبارات لها معنى غير صاحبتها .

وإليكم بيان بهذه العبارات الثلاث (زيد منطلق)، (زيد المنطلق)، (المنطلق زيد).

العبارة الأولى: (زيد منطلق) نقولها: إذا أردنا أن نخبر عن زيد بالانطلاق لخالي الذهن، الذي لا يعرف أن هناك انطلاقاً من أحد، فنقول: زيد منطلق.

أما العبارة الثانية: (زيد المنطلق)، فلا تقال لخالي الذهن كالعبارة الأولى، بل تقال لمن يعرف أن هناك انطلاقاً، لكنه لا يعرف ممن كان هذا الانطلاق، أهو من زيد أم من عمرو أم من خالد؟ أو لمن يشكُّ في انطلاق زيد أو ينكره، نقول له: زيد المنطلق، حيث يناله

بطريق القصر والتأكيد على مَنْ كان منه الانطلاق .

ويترتب على هذا الفرق أنك يمكن أن تعطف في العبارة الأولى ولا تعطف في العبارة الثانية، فنقول: (زيد منطلق وعمرو)، لكن لا يجوز أن تقول: (زيد المنطلق وعمرو)، لأن العبارة الأولى ليس فيها حصر فيمكن أن تشرك مع زيد مَنْ تشاء، أما العبارة الثانية: (زيد المنطلق) فأنك قصرت الانطلاق على زيد، فلا ينبغي أن تشرك معه غيره.

بقيت العبارة الثالثة (المنطلق زيد) فقد يظن كثير من الناس أنها تشبه العبارة الثانية (زيد المنطلق)، لأن كلتا العبارتين تحصر الانطلاق في زيد لا في غيره، وهذا وإن كان صحيحاً، فإنه لا يفيد أن العبارتين سواء، لأن قولنا: (زيد المنطلق) قيلت لمن كان يرتاب أو ينكر انطلاق زيد، أما العبارة الثانية: (المنطلق زيد) فاستمع إلى ما يقوله الشيخ عبدالقاهر – رحمه الله – بعد أن ذكر المقصود من قولنا: (زيد المنطلق) وليس كذلك إذا قدمت (المنطلق) فقلت: (المنطلق زيد) بل يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنساناً ينطلق بالبعد منك فلم تثبته، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو؟ فقال لك صاحبك: (المنطلق زيد) أي هذا الشخص الذي تراه من بُعْدٍ هو زيد(١).

فالمنطلق – إذن – تقال لمن ظن أو أيقن أن غير زيد هو المنطلق .

وفي الفصل والوصل يبيّن عبد القاهر أنه إذا كان هناك جملتان، وكانت الثانية متصلة بالأولى اتصالاً وثيقاً، كأن تكون تأكيداً أو بدلاً وجب فصلها عن الثانية، ومعنى الفصل ترك العطف بالواو، ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ – ٢]. حيث جاءت كل جملة من هذه الجمل غير معطوفة على سابقتها، لأن بينهما اتحاداً في المعنى .

وكذلك قوله سبحانه: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، حيث جاءت

---

(١) دلائل الإعجاز (ص١٨٦)

الجملة الثانية "إن هذا إلا ملك كريم " مفصولة غير معطوفة، لأن كونه ليس بشراً، ليس له معنى غير أنه ملك، ألا ترى أننا إذا قلنا: (إنها تقية إنها تؤدي الصلوات، إنها تلبس الجلباب) لا يجوز أن نعطف هذه الجمل بعضها على بعض، لأن العطف يقتضي التغاير، وكونها تؤدي الصلاة، وكونها تلبس الجلباب لا يختلف هذا أو ذاك عن كونها تقيّة، ولو قيل: (إنها تقية وإنها تصلي) لكانت الصلاة شيئاً غير التقوى، والأمر ليس كذلك، أما قولنا: (إنها تقيّة وإنها تحسن الطهي وإنها تجيد الخياطة) فلا بد من العطف بين هذه الجمل، لأن كلاً منها مختلفة عن صاحبتها.

وفي أسلوب القصر يبين سر النظم في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، و﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، فمعنى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي إن المؤمنين وحدهم هم الذين يعمرون مساجد الله لا غيرهم، ولو قيل: (إنما يعمر المؤمنون مساجد الله) لكان المعنى أن المؤمنين يعمرون المساجد ولا يعمرون شيئاً آخر، وهذا غير صحيح .

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ معناه عليك البلاغ فحسب، أما غيره من الحساب فهو لله وحده، ولو قال: (إنما البلاغ عليك) لكان معناه أنك تبلغ دعوة الله وحدك، ولا يجوز لأحد غيرك أن يبلغ هذه الدعوة، وهذا ليس صحيحاً لأن المؤمنين جميعاً عليهم واجب التبليغ.

وهكذا قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ معناه أن أعظم علامات الإيمان الأخوة، فالمؤمنون إخوة لا متقاطعون ولا متدابرون، ولو قيل: (إنما الإخوة المؤمنون) لكان المعنى أن رابطة الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين وحدهم وهذا غير صحيح، فإن الأخوة رابطة قد تكون بين المؤمنين وقد تكون بين غيرهم.

وهكذا نجد عبد القاهر يبذل قصارى جهده، وهو يحرص كل الحرص على شرح نظرية النظم، مبيناً أن إعجاز القرآن الكريم إنما هو لهذا النظم البديع الذي بهر العرب وعجزوا أن يأتوا بمثله، وها هو عبد القاهر يبين لنا الغاية من هذه النظرية – نظرية النظم – وهي إدراك الإعجاز وتذوّق حلاوته .

النظم – إذن – هو سر الإعجاز، أما أنواع المجاز والاستعارة والكناية، فمع ما لها من شأن إلا أن الفضل يرجع فيها إلى النظم، ويمثل لذلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، فالاستعارة في قوله سبحانه: (اشتعل) فالاشتعال كما نعلم للنار، ولكن شبه انتشار الشيب بالاشتعال.

يرى عبد القاهر أن الفضل للنظم، لا للاستعارة وحدها، فلو أننا أبقينا الاستعارة وغيرنا النظم فقيل: (واشتعل شيب الرأس) لم يكن للكلام هذا الفضل وتلك المزية، وإنما كانت المزية والفضل أن أسندنا الاشتعال إلى الرأس، وجعلت كلمة (شيباً) تمييز، وهو تمييز محول عن الفاعل كما يقول النحويون، أن الأصل (اشتعل شيب الرأس).

وإذا أردت أن تدرك الفرق بين النظم في الجملتين، أعني النظم القرآني ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] وقولنا: (اشتعل شيب الرأس). فانظر إلى هاتين الجملتين (اشتعلت النار في البيت) و (اشتعل البيت ناراً) ولا شك أنك مدرك ما بين الجملتين من فرق شاسع، فالأولى تفيد اشتعال النار في جزء من البيت وقد يكون صغيراً، وأما الثانية فتفيد التعميم أي اشتعال النار في البيت كله.

وجه إعجاز القرآن عنده :

وأخيراً يصل عبد القاهر إلى الحديث عن إعجاز القرآن، أي ما الذي أعجز العرب، ويضع احتمالات متعددة: فقد يكون إعجاز القرآن في مفرداته، أو معانيه، أو حركاته، أو فواصله أو غريبه، ولكنه يرد كل هذه الوجوه. يقول: " لا يجوز أن يكون – الإعجاز –

في الكَلِمِ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في مَذَاقَةِ حروفها وأصدائها أوصافٌ لم تكن، لتكونَ تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اخْتُصَّت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلُوَّةً في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن.

ولا يجوز أن تكون في " معاني الكلم المفردة " التي هي لها بوضع اللغة، لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدّد في معنى – الحمد – و – الرب – ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا، وَصْفٌ لم يكن قبل نزول القرآن، وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعدَ من المحال وأشنعَ، لكان إياه .

ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في " ترتيب الحركات والسكنات " حتى كأنهم تُحُدُّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونَة بحور الشعر بعضها من بعض، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في (إنا أعطيناك الجماهر فصلّ لربك وجاهر) (والطاحنات طحناً) .

وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذي تُحُدُّوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع، وفواصل كالذي تراه في القرآن، لأنه أيضاً ليس بأكثر من التَّعويل على مراعاة وزن، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي، لم يُعْوِزْهم ذلك، ولم يتعذر عليهم .

ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتقِ في حروفه ما يثقل على اللسان "(1).

«فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عَدَّدناه، لم يبق إلا

---

(1) الدلائل ص ٣٨٦-٣٨٨.

أن يكون في (النظم) لأنه ليس – من بعدما أبطلنا أن يكون فيه – إلا النظم والاستعارة، ولا يمكن أن تُجعَل الاستعارة الأصلَ في الإعجاز، وأن يُقْصَر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضعَ من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن النظم مكانهُ الذي ينبغي أن يكون فيه "[1].

ومن المفيد أن نشرح لك هذه الجملة من القول بإيجاز :

يبين عبد القاهر – رحمه الله - الأمر الذي كان به إعجاز القرآن الكريم، وتُحُدُّوا به فعجزوا أن يأتوا بمثله، وهو في هذا يطرح بين يدي القارئ عدة أمور، يحتمل كل واحد منها أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز .

الاحتمال الأول: من الممكن أن يكون الذي أعجزهم كلمات القرآن وألفاظه المفردة، ولكن عبد القاهر يرد هذا القول، وحق له أن يُرد، لأنه معنى كون هذه الألفاظ معجزة جهل العرب بها قبل نزول القرآن، وأنهم لم يسمعوها إلا بعد أن نزل بها القرآن الكريم وهذا غير مقبول، لأن ألفاظ القرآن الكريم لا يجهلها العرب، ولهذا لم تكن غريبة عليهم .

الاحتمال الثاني: أن يكون الذي أعجز العرب معاني الكلمات، وهذا مردود أيضاً، لأنه يلزم منه أن يكون للكلمة معنى قبل نزول القرآن، وأن يكون لها معنى آخر تجدد بنزول القرآن الكريم، وهذا غير مقبول لأن معنى الحمد والكتاب والريب والفلاح والخداع والفساد والاستهزاء والعبادة والفراش والأرض والسماء وغيرها من الألفاظ، إن معنى هذه قبل نزول القرآن وبعد نزول القرآن شيء واحد .

الاحتمال الثالث: أن يكون سبب عجز العرب القالب الشكلي الذي جاءت عليه الكلمات القرآنية، بيان ذلك أن كلام العرب ليس نوعاً واحداً، فمنه الشعر ومنه الرجز ومنه السجع، منه كلام موزون وكلام غير موزون، والبنية الشكلية التي جاء عليها

---

(١) الدلائل ص ٣٩١

القرآن الكريم تختلف عن كل ما ألفه العرب وعرفوه، فليس شعراً وليس سجعاً، وليس شيئاً آخر من هذه الأشكال التي نطق بها العرب، ويرد عبد القاهر هذا الاحتمال، لأن من ركب جملاً تشبه الجمل القرآنية حري أن يكون كلامه معجزاً، ومنه هذه الحماقات التي قيل إنها عورض بها القرآن مثل (والطاحانات طحناً، والعاجانات عجناً) و (الفيل وما أدراك ما الفيل) ومثل (إنا أعطيناك الجماهر فصلّ لربك وجاهر) و (ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى) ولا يشك أصحاب هذه الكلمات بأنها حماقات ركيكة.

الاحتمال الرابع: أن يكون وجه الإعجاز الفواصل القرآنية، ويرد عبد القاهر هذا الاحتمال لأن الفاصلة مثل القافية في الشعر، ولقد برع القوم في الشعر -كما نعلم- ومن برع في الشعر وقوافيه لا يعجز أن يجعل للكلام خاتمة تشبه القافية.

ولا بد أن نعلق هنا بكلمة قصيرة، وهي أن عبد القاهر ينفي أن يكون وزن الفاصلة وجهاً من وجوه الإعجاز، أما اختيار الكلمة في الفاصلة كأن نختار كلمة يفقهون في آية، ويعلمون في آية أخرى، وسميع بصير في آية، وغفور رحيم في أخرى، ولقوم يتفكرون في آية، وقوم يعقلون في أخرى فهذا يدخل في النظم الذي هو لب الإعجاز.

الاحتمال الخامس: أن تكون خفة الكلمات وعدم ثقلها وتنافرها هو وجه الإعجاز، ويرد عبد القاهر هذا القول بأن للعرب كلاماً مثيراً خالياً من الثقل والتنافر، متلائمة حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ولم يقل أحد إن ذلك من الإعجاز.

الاحتمال السادس: أن يكون وجه الإعجاز ما في القرآن الكريم من استعارات، ويرد عبد القاهر هذا القول بأن الاستعارات ليست في جميع الآيات القرآنية، فكثير من الآيات، أو أكثرها ليس فيه استعارة ويلزم على هذا القول أن تكون الآيات الخالية من الاستعارة غير معجزة وهذا أمر مجمع على رده.

وإذا بطلت هذه الاحتمالات كلها لم يبق إلا وجه واحد وهو النظم، فنظم القرآن هو الذي كان به القرآن معجزاً، وهو الذي أعجز العرب، ولذا لما قالوا: إن القرآن مفترى، قال لهم: هاتوا أنتم عشر سور مفتريات، افتروا معانيها كما تشاؤون، ولكن لتكن في نظم يشبه نظم القرآن، فعجزوا.

والحق أن عبد القاهر قد سلك لإثبات ما يريد طرقاً فجاجاً، ولم يترك منفذاً يرى فيه ثغرة لمعترض إلا سده. ولقد اشتمل كتاب الدلائل كما عرفنا من قبل على جانبين: الجانب النظري يناقش فيه الذين جعلوا الفضل للفظ ويرد عليهم ويقسو أحياناً، والجانب العملي الذي كان تطبيقاً لقواعد النظم.

وبعد فهذه نظرية عبد القاهر امتازت بعمق التحليل، وحسن السبك، وصحة الترتيب ودقة الموضوع. ولقد برز فيها جانبان اثنان: الجانب النفسي أولاً والجانب الفكري ثانياً.

أما الجانب النفسي، فيظهر في عمق التأثير الذي يحس به القارئ وهو يتأمل ويتدبر الكلام البليغ وفي مقدمته الآيات القرآنية، وأما الجانب الفكري، فتجده في العلاقة بين المعاني بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين الألفاظ لا من حيث الوضع فحسب، بل من حيث الوضع والترتيب كلاهما .

هذه خلاصة عَجْلى لتلكم النظرية العظيمة التي كانت نتاج فكر لأحد عظماء هذه الأمة – رحمهم الله –. رحم الله عبد القاهر وجزاه عن العربية، وكتابها المبين، ودينها الخالد خير الجزاء.

٤- الإمام محمود بن عمر الزمخشري [(١)] :

لقد كان فضل الله عظيماً أن قيض لكتابه أئمة أعلاماً يبرزون عرائس الإعجاز بأثواب قشيبة، ومظاهر خلابة جذابة، لقد كان فضل الله عظيماً أن قيض مثل عبد القاهر يبدع في نظرية النظم، ولقد كان فضل الله عظيماً أن قيض لنا مثل الزمخشري، يطبق هذه النظرية تطبيقاً عملياً تفصيلياً في تفسير كتاب الله تعالى تفسير الكشاف.

لقد كان الزمخشري بحق عالماً ألمعياً، وجهبذاً أحوذياً، هضم نظرية عبد القاهر في النظم، واستثمرها استثماراً تاماً في تطبيقها على آي الذكر الحكيم، وظهر ذلك جلياً في الكشاف كما قلت، بل زاد عليها كثيراً مما جادت به قريحته وأنتجه فكره، وسنضرب بعض الأمثلة التي أفادها الزمخشري من نظرية عبد القاهر في تفسيره.

عرفتم من قبل أن كتاب دلائل الإعجاز كان فيه جانب عملي، وهي الفصول التي كتبها عن التقديم والتأخير والحذف والذكر، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير، وغير ذلك مما عرضنا له من قبل، ولنعش مع الزمخشري، وهو يشرح لنا هذه الفصول شرحاً علمياً في تنزيلها على الآيات الكريمة.

١-عند قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

يتساءل الزمخشري: لم قدم الريب في هذه الآية الكريمة، وهو اسم (لا) النافية للجنس على الجار والمجرور، بينما جاءت آية أخرى على عكس ذلك، فتقدم فيها الجار والمجرور، وهي قوله سبحانه في وصف خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] فهو يفيد مما ذكره عبد القاهر في التقديم والتأخير، فتقديم الخبر على المبتدأ يفيد

---

(١) محمود بن عمر بن محمود بن أحمد الزمخشري، جار الله، أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله، ولد عام ٤٦٧ هجري وتوفي عام ٥٣٨ هجري، من كتبه تفسيره الكشاف، والفائق في غريب اللغة، والمستقصى في الأمثال وغيرها.

التخصيص، لذلك جاء نظم كل من الآيتين متفقاً ومنسجماً مع المعنى الذي تحدثت عنه كل منهما.

فقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كل الذي يفيده نفي جنس الريب عن القرآن الكريم دون التعرض لغيره من الكتب، إذ لو قال: (لا فيه ريب) لكان المعنى نفي الريب عن القرآن وإثباته لغيره من الكتب الأخرى، وهذا غير مراد هنا.

أما قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فالمقصود منه شيء آخر، إذ للقرآن هنا هدفان اثنان: نفي الغول[1] عن خمر الآخرة وهو ما فيها من ضرر، وهذا هو الهدف الأول، أما الهدف الثاني فهو إثباته في خمر الدنيا، ولو قال: (لا غول فيها) لم تفد إلا شيئاً واحداً وهو نفي الغول عن خمر الآخرة[2].

وقد تقدم لكم الفرق بين قولنا: (لا ضجة في الحجرة المجاورة). وقولنا: (ليس في الحجرة المجاورة ضجة).

٢-عند قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، يتساءل الزمخشري، لم وسطت الواو في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ﴾ ولكننا لا نجدها في آية الأعراف ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعرف: ١٧٩]

ويجيب الزمخشري بأن الواو وسطت في آية البقرة، لأن الجزاء مختلف فللمتقين جزاءان: صحة المنهج وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ثم الغاية والنتيجة وهي قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فالأمران مختلفان، لذا جاء حرف العطف، أما آية الأعراف فليس فيها إلا شيء واحد، فإن كونهم كالأنعام بيان لغفلتهم، ولو أن الواو ذكرت في الآية

---

(١) الغول: إهلاك الشيء من حيث لا يحس به، ولذا قال في صفة خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] [المفردات: ٣٦٩].

(٢) الكشاف (١/ ٣٤)

فقال: (وأولئك هم الغافلون) كما جاءت آية البقرة، لترتب عليه أمر محال وهو أن الأنعام ليست غافلة. وهذا ما بينه عبد القاهر بياناً شافياً في حديثه عن الفصل والوصل[1].

٣-عند قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، يبين الزمخشري حكمة مجيء الخبر جملة فعلية وهي (يستهزئ)، وعند قوله سبحانه: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] يبين الحكمة من مجيء الخبر اسماً.

أما الأولى فلقد جاء الخبر جملة فعليه لأنه يدل على التجدد، وأما الثانية فلأن مجيء الخبر اسماً يدل على الثبوت[2]، وهذا ما بينه عبد القاهر وهو يتحدث عن الفروق بين الخبر.

٤-عند قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يبين الزمخشري الحكمة من مجيء ضمير الفصل (هم) والحكمة من تعريف الخبر (المفلحون) فضمير الفصل يؤتى به للتأكيد ولبيان أن ما بعده خبر لا صفة، كما يبين أن الهدف من التعريف الاختصاص، أي هم المفلحون لا غيرهم. وكل هذا مما عرض له عبد القاهر وأطال النفس فيه[3].

٥-وعند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

يقول: فإن قلت: لم ترك المفعول غير المذكور في قوله: (يسقون) و (تذودان) و (لا نسقي) و (فسقى لهما)؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيها إبل مثلاً،

---

(١) الكشاف (١/ ٤٣).

(٢) الكشاف (١/ ٦٧).

(٣) الكشاف (١/ ٦٧).

وكذلك قولهما: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣] المقصود فيه السقي لا المسقي[1].

وقد ذكر هذا الإمام عبد القاهر، وبين أن المفاعيل حذفت من الأفعال الأربعة لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي، وأنه كان من موسى بعد ذلك سقي، أما ما كان المسقي أغَنَماً أم إبلاً فخارج عن الغرض، ولو قال: (تذودان غنماً) لظن أن موسى عليه الصلاة والسلام لم ينكر عليهما الذود من حيث هو ذود ولكنه أنكر عليهما أن تذودا غنماً، ولو ذادتا بقراً لما أنكر ذلك[2].

وهكذا نجد الزمخشري يعيش مع نظرية عبد القاهر في تفسير الكشاف، بل لا يكتفي بذلك فيبين لنا من الإعجاز البياني. ولعلنا لا نغالي ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن الإبداع في تقرير قضايا الإعجاز وقف عند ما قرره عبد القاهر في نظريته، وطبقه الزمخشري في كشافه، والذين جاؤوا من بعدهما لم يزيدوا شيئاً ذا بال، إنما كان الذي ذكروه شرحاً أو اختصاراً، أو نقلاً وقد تظهر عليه سمات التكلف.

---

(١) الكشاف (١/ ٤٥).

(٢) الدلائل ص ١٦١.

الفصل الثاني

المحدثون والإعجاز

ونتحدث فيه عن:

- إعجاز القرآن للرافعي
- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز
- إعجاز القرآن عند سيد قطب وكتابه التصوير الفني
- إعجاز القرآن للدكتورة عائشة بنت الشاطئ
- الشيخ محمد متولي الشعراوي في إعجاز القرآن
- موريس بوكاي في كتابه دراسة الكتب المقدسة

الفصل الثاني

المحدثون والإعجاز

يحمل هذا العلم في كل زمن قوم ينفون عنه كل تحريف، ويميطون عن طريقه كل أذى، لذا رأينا للمحدثين في هذا العصر جهوداً طيبة مشكورة في موضوع الإعجاز، وإن كانوا قد أفادوا كثيراً ممن تقدمهم من العلماء، فلقد كان لكثير منهم ملحوظات جديرة بالتقدير، حرية بالتسجيل، ثم إن لكل عصر أسلوبه الذي يلائمه، وطريقته التي تناسبه، وسنطلعكم على نتاج هؤلاء لتقطفوا من جناهم، محاولين أن نذلل لكم هذه القطوف لتكون دانية إن شاء الله.

كان للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده-رحمه الله- جهد لا ينكر في النهضة التفسيرية، وما يتصل بعلوم القرآن الكريم، ولغته وبلاغته، فلقد ظل كتابا عبد القاهر –رحمه الله- الدلائل والأسرار بعيدين عن متناول العلماء والأدباء المثقفين حقبة طويلة من الزمن حتى جاء الشيخ –رحمه الله- فحببهما إلى المثقفين، وكان له حلقة علم في تدريسهما، كما كان له مجالس في جامع الأزهر لتدريس التفسير، وكان من نتائج ذلك كله هذه الجهود الطيبة التي وجدناها في آثاره وآثار العلماء من بعده.

١-إعجاز القرآن للرافعي :

كان أول كتاب ظهر في إعجاز القرآن الكريم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله- والرافعي منحة من منح الله لهذه الأمة في عصر كان الناس في أمس الحاجة إليه، فلقد وهبه الله قلماً ذاباً عن القرآن ولغته، أمام هجمات شرسة، وحقاً كان الرافعي كاتب العربية المنافح عنها، جعل الله منه في الأواخر كما جعل من حسان في الأوائل.

وكانت كتابته تتصف بالعمق في الأسلوب مع سعة في الاطلاع، مع قوة في العرض،

يزين ذلك كله عاطفة صادقة وإحساس مرهف وخيال خصب، وذهن ثاقب.

كان يرقى مع قارئة في سلم البيان، ليصل به إلى السمو الأدبي، ولنستمع إليه في هذه الكلمة الحية الموجزة المعبرة (عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف ولكن... الحق كذلك، وبأنه محير ولكن.. الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحر فلا تنتظر الدر، وإن لم يكن السحاب فلا تنتظر المطر، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنظر البيان).

والرافعي أديب، ولم يقتصر أدبه على النثر وحده، بل كان كاتباً وشاعراً، وناقداً كذلك، وقليل أولئك الذين اجتمعت لهم هذه الصفات كلها، وكما كان الرافعي شاعراً وكاتباً له طابعه المميز في الشعر، وأسلوبه الواضح في الكتابة، فقد كان أيضاً ناقداً له منهجه المستقل في نقده، ولم يخرج نقد الرافعي عن الهدف العامّ الذي دار في إطاره أدبه وهو: الذود عن حمى الدين واللغة العربية، ولقد أفاد الأدب العربي ولغته، وانتفعت حقول الفكر وميادين الثقافة من جهود الرافعي في النقد إفادة غير محدودة[1].، ولعل أعظم كتبه من حيث القيمة العلمية (تاريخ آداب العرب) ويتكون من ثلاثة أجزاء كان الجزء الثاني منه حديثاً عن القرآن الكريم وهو أصل لكتاب الإعجاز، فقد وسعه الرافعي وزاد ما شاء الله له، فكان كتابه (إعجاز القرآن) .

يحتوي الكتاب على موضوعين كل منهما ذو شأن وخطر:أحدهما إعجاز القرآن والثاني البلاغة النبوية.

بدأ هذا الكتاب بكلمة رصينة جزلة عن القرآن الكريم ثم تحدث عن علوم القرآن الكريم: نزوله وجمعه وقراءاته، وغير ذلك من موضوعاته، وأخذت هذه ما يقرب من

---

(١) بلاغة القرآن في أدب الرافعي / د. فتحي عبد القادر فريد ص ٥٩.

نصف الكتاب، ثم تحدث عن معنى الإعجاز، وذكر جهود السابقين وعلق عليها، وبعد أن انتهى من ذلك كله أَنشَأ يتحدث عن الإعجاز كما يراه فبين بادي بدء أن القرآن الكريم معجز من جهات ثلاث :

١-من حيث تاريخه بين الكتب السماوية فهو كتاب محفوظ ولم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل.

٢-من حيث آثاره فلم يعرف في الدنيا كتاب، كان أثره وما يزال مثل هذا الكتاب المبين.

٣-من حيث حقائقه، وهي حقائق في مجالات متعددة، تعدد أنماط الحياة، ولكنها حقائق ليس فيها ثغرة يتسلل من خلالها زيغ أو زائغ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

وبين الرافعي أنه ليس له غرض في الحديث عن هذه النواحي الثلاث، وإنما غرضه في هذا الكتاب أن يتحدث عن الإعجاز البياني، وهي الجهة الرابعة من جهات إعجاز هذا الكتاب.

ويبين أن الفضل يرجع لهذا الكتاب في وحدة الأمة، وبخاصة وحدتها اللغوية، ويتحدث في هذا الباب عن أسلوب القرآن ونظمه وغرابة أوضاعه التركيبية، وهو وإن كان يلتقي في كثير من الحقائق مع ما كتبه الأقدمون، فإنه والحق يقال صيغ ذلك كله بصيغة جديدة ببراعة بيانه وقوة أسلوبه، وجميل تصويره، ونفث أحاسيسه، وصادق عاطفته، وشدة غيرته الإيمانية، وسعة معرفته باللغة وأسرارها، فلقد هضم ما كتبه الأقدمون في موضوع اللغة على تعدد جهاته ونواحيه، ففي حديثه عن أسلوب القرآن يبين أنه لما كان الأسلوب، أسلوب كل كاتب إنما ينعكس عن مزاج صاحبه، وكان القرآن كتاب الله تعالى، أدرك العرب لأول وهلة حينما سمعوه أنهم مهما أُتوا من حظ في أفانين الأساليب نظمها ونثرها، فسيظل أسلوب القرآن بعيداً عن متناول ألسنتهم، ومن أنْ تطمع فيه عقولهم مهما بذلوا في ذلك من محاولات.

أسلوب القرآن:

ويرى الرافعي أن سر التفاوت بين أسلوب القرآن وأسلوب البشر، مع أن المادة اللغوية واحدة لا تختلف يرجع إلى أمور أهمها.

أولاً: ما نجده في أسلوب القرآن من قوة نسج وإحكام في السرد، بحيث لو قرأته كله من أوله إلى آخره فإنك لا تحس بِنَبْوَة أو ثغرة، وأنت تنتقل من معنى إلى آخر، ومن الآية إلى التي بعدها، أو موضوع إلى موضوع.

ثانياً: إن هذا الإحكام وتلك القوة في الأسلوب القرآني نجدها في القرآن مكيه ومدنيه على السواء، وفي سوره الطويلة والقصيرة على السواء، فهو لا يختلف في تصويره اليوم الآخر، والحديث عن الكون وآيات الوحدانية، لا يختلف في هذه عنه في آيات الأحكام على تعددها، وهذا ما لا تجده عند فصحاء العرب شعراء وخطباء.

ثالثاً: وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم نسق واحد، وهذا ما يجعله يختلف عن أساليب البشر حيث كانت أمزجتهم تنعكس على أساليبهم.

وما قرره الرافعي في أسلوب القرآن نجده قريباً مما حدثناك عنه عند الباقلاني، لكن الرافعي أفرغه بقالب جديد، وأنشأ بناء محكماً قوياً، وأضفى عليه مما منحه الله من قوة أسلوبه، وأضاف إليه ما يتفق مع روح العصر.

نظم القرآن:

أما نظم القرآن عند الرافعي، فهو يتمثل فيما يلي:

أولاً: في الحروف وأصواتها.

ثانياً: في الكلمات وحروفها.

ثالثاً: في الجمل وكلماتها.

وهذا ترتيب طبعي منطقي، فالحروف هي التي تتكون منها الكلمات، والكلمات هي التي تتكون منها الجمل، ويرى الرافعي أن أصوات الحروف في القرآن الكريم منسجم بعضها مع بعض، بحيث يتكون فيها جرس صوتي خلاب، أو كما يعبر عنه بلغة العصر "موسيقى صوتية جذابة" فقد نجد ثقلاً في ضم حرف لحرف أو إتباع حركة لحركة ولكن هذا الثقل يتلاشى في نظم القرآن الكريم، ويمثل لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٣٦] فمع أن هاتين الضمتين على النون والذال ثقيلتان في كلام الناس، إلا أنهما جاءتا في القرآن الكريم بعيدتين عن هذا الثقل، بل جاءتا بجرس أخّاذ. ويتفنن الرافعي في بيان هذه الحركات، وقد تجيء الكلمة على حروف كثيرة مما يدعو إلى ثقلها في النطق وعلى السمع، لكنها في القرآن يذهب منها الثقل هذا، ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥] وما ذلك إلا لاختيار الحروف والحركات.

أما الكلمات فهي كلمات موحية معبرة فيها الانسجام بين الصوت والمعنى، وأما الجمل فهي جمل قدرت لها كلماتها تقديراً محكماً بحيث لا تجد كلمة زائدة، أو معنى فيه شيء من النقص، ولذا فإن الرافعي ينكر الزوائد في كتاب الله تعالى، كما يرى أن التكرار إنما جاء لحكم بيانية.

وقد تأتي الكلمة الغريبة في القرآن، لكننا إذا نظرنا لتأليف حروفها من جهة، وإلى غرابة المعنى الذي جاءت فيه من جهة أخرى، نجدها قد فصلت تفصيلاً بحيث لا يصلح غيرها مكانها، وذلك مثل كلمة ﴿ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢].

يقول الدكتور فتحي عبد القادر: من أبرز الأسباب التي كتبت للرافعي الشهرة والمجد وعلو المنزلة بين دارسي الإعجاز – وجعلت لكتابه (إعجاز القرآن) نمطاً معيناً بين ما كتبه القدامى والمحدثون عن الإعجاز القرآني – ما كتبه عن انسجام الحروف

وأثره في البلاغة القرآنية.

فما كتبه الرافعي عن الموسيقى القرآنية التي نشأت عن توالي الحروف وانسجامها يعتبر من غير شك ميزة وسبقاً وتفرداً له في ميدان البلاغة القرآنية[1].

الأصوات الثلاثة:

يرى الرافعي أنه ينتج من الكلمات في حروفها، والجمل في كلماتها، أصوات ثلاثة هي: صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس.

أما صوت النفس فإنما ينشأ من الكلمات ومعانيها، فكل لفظة تتساوق وتنسجم مع معناها الذي أُعدت له، وهذا ما يسمى في العصر الحديث بالإيحاء، وأما صوت العقل فإنما ينشأ من تركيب الكلمات في الجمل، ذلك لأن هذا التركيب، أعني تركيب الكلمات في الجمل، لا بد فيه من عمليات فكرية، فنحن بداهة بحاجة ماسة إلى الفكر والعقل لندرك الصلة بين الكلمات في الجمل، وهذان الصوتان قد عرفهما العرب من قبل.

أما صوت الحس فهو الذي لم يعرفه العرب قبل القرآن، وهو تقدير الكلمات تقديراً محكماً لمعانيها، بحيث لا نجد كلمة فضفاضة تزيد على المعنى الذي جيئت من أجله وأخرى لا تعبر عن المعنى تعبيراً تاماً، وهذا ما لا نجده في شعر أو نثر، فقد نجد البيت الواحد في القصيدة أو الجملة في الخطبة، ننعم النظر فيها ويمكن أن يُطرح ويُستغنى عنه وليس كذلك القرآن الكريم.

وهكذا يمضي الرافعي يحدثنا عن غرابة أوضاع القرآن التركيبية.

---

(١) بلاغة القرآن في أدب الرافعي، ص ١٨٧.

موقف الرافعي من القول بالصَّرْفَة:

عرفت أن معنى الصَّرْفَة: صرف الله العرب أن يأتوا بمثل القرآن، ومعنى ذلك أن الله سلبهم القدرة التي تمكنهم من المجيء بكلام يشبه القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه، كما يسلب الإنسان السليم القدرة على تحريك يده، وهذا الذي روي عن النظام المعتزلي شيخ الجاحظ.

وروي عن غيره ممن جاؤوا بعده أن معنى الصرفة: أن الله سلب العرب العلوم التي تمكنهم من الإتيان بمثل ما في القرآن.

ويترتب على هذا وذاك أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن ليس ناشئاً عن رفعة أسلوب القرآن وبديع نظمه، وعلو شأنه في البلاغة، بل هو راجع عند القائلين بالصَّرْفَة لأمر آخر خارج عن القرآن الكريم وهو أن الله حال بينهم وبين ذلك، وإلا – أي لولا أن صرفهم الله – لكان بمقدورهم أن يأتوا بمثله، كيف لا ولهم الكلام البليغ شعراً ونثراً.

عرض الرافعي – رحمه الله – للقول بالصرفة، ولشيء من سيرة النظام الذي اشتهر عنه هذا القول ثم قال بأسلوب ساخر:

وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدروه، لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا.

وإلا فإن مَن سُلِب القدرة على شيء بانصراف همته عنه، وهو بعد قادر عليه مُقْرِن له، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة، ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب، والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزاً، وقد يعتريه السأم ويتخونه الملال، فينصرف عن الشيء، وهو له مطيق، وذلك

ليس أحق بأن يسمى عجزاً من أن يسمى تهاوناً، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل الثقة...

وعلى الجملة فإن القول بالصُّرْفَة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد(١).

وتوضيحاً لكلام الرافعي نقول: إن القول بالصرفة لا يتفق مع الحكمة الإلهية بيان ذلك: أن الله قد تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بسورة منه، فهل يليق بالحكيم الخبير والحكم العدل، أن يقول لهم: لتجتمعوا، ولتتعاونوا، ولتبذلوا كل ما عندكم من جهد وطاقة، ولتستعينوا بمن تشاؤون، افعلوا كل ذلك من أجل الإتيان بسورة، ومع إرخاء العنان لهم يقول: سأمنعكم وأصرفكم عن هذا.

لنتصور مدرساً وضع أسئلة الامتحان لطلابه، ولكنه عند لحظة الامتحان جمع الأقلام من الطلاب، أو أطفأ الكهرباء، ولنتصور أحد الناس يتحدى حامل الأثقال، ولكنه حينما جاء ليحمل الأثقال قيد يديه، ماذا يقول الناس عن هذا المدرس وهذا المتحدي، إن عملهما ليس فيه شيء من الحكمة ولا الجدية، بل هو عبث.

وإذا كان هذا لا يليق بالبشر، فكيف يتفق مع الحكمة الإلهية؟ كيف يتحدى الله الخلق إنساً وجناً بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ثم بعد ذلك يصرفهم ويسلبهم القدرة، سبحان ربنا ذي الجلال والإكرام، أحكم الحاكمين!!.

على أن الجديد في كلام الرافعي عن الصرفة الموازنة بين هذا القول وقول العرب على

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٦.

القرآن الكريم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وقد ردّ الله هذا الافتراء وأبطله، وكذلك القول بالصرفة قول باطل يتنافى مع بدهيات العقل، ومسلمات المنطق، لأنه يتنافى مع الحكمة الإلهية.

إن كتاب إعجاز القرآن للرافعي، كتاب ينبض بالحياة والعاطفة الصادقة، ولكنه يغلب عليه الطابع النظري، وكنا نود أن يكثر فيه الرافعي من التطبيقات العملية، ولكن عذره في ذلك أنه كان عازماً على أن يكتب كتاباً آخر، وهو سر الإعجاز يفرده بجعله خاصاً بالتطبيقات العملية، وقد كتب بعض فصول هذا الكتاب، ولكنه فاضت روحه إلى بارئها قبل أن يتمه، هذه واحدة، أما الثانية فإن أسلوب الرافعي رصين قوي جزل، وقارئه لا بد له من مراس ومعرفة لغوية؛ لذا وجدناه يصعب فهمه على كثير من الناشئة اليوم، ثم إن الرافعي لم يلق أدبه عناية من المثقفين، وهذا أمر مقصود؛ لأن كثيراً من المثقفين تتلمذ لمدارس وكتّاب فتنوا بآداب الغرب.

رحم الله الرافعي رحمة واسعة، وجزاه عن العربية وكتابها خير الجزاء.

٢- أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله وكتابه النبأ العظيم:

لقد فتح الرافعي – رحمه الله – باب البيان القرآني في العصر الحديث، ولكنه كان ذا عمق في الفكرة، وعلو في الأسلوب، وسمو في العبارة، وربما يحول هذا كله بين بعض الناس وبين ولوج هذا الباب، فكان لا بد ممن يسير على منهجه من عمق في البحث، وسهولة في الأسلوب، ويسر في العبارة، وإلمام بالفكرة، فهيأ الله لكتابه ولتلك الأمة رجلاً جمع إلى تلك الخصال كلها روحانية الكلمة؛ ذلكم هو الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز – رحمه الله – إنه الرجل الذي يصل معناه إلى قلبك، حين وصول لفظه إلى أذنك، ولقد كانت كتابته ومحاضراته خير شاهد على ذلك.

وإن مما يسعدني وأفخر به وأعتز، وأشرف، شاكراً الله على نعمه، أن تتلمذت لأساتذة

فضلاء، جهابذة أفذاذ، منهم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز صاحب النبأ العظيم، ومنهم الدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمد الأودن والشيخ محمود الغنيمي وخالي الشيخ يوسف عبد الرزاق المشهور بالمشهدي وغيرهم – رحمهم الله – وجزاهم عني كل خير.

وكتاب النبأ العظيم في الإعجاز من خير الكتب وأدقها وأعمقها، إن لم يكن خيرها وأدقها وأعمقها، ويأتي في الترتيب الزمني بعد كتاب الأستاذ الرافعي رحمه الله، فقد بدأه الأستاذ – رحمه الله – منذ أن أنشئت الكليات الأزهرية عام (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م).

قسم أستاذنا كتابه إلى مبحثين:

الأول: في بيان مصدر القرآن الكريم.

الثاني: إعجاز القرآن.

وبعد أن انتهى من المبحث الأول قال: (وبعد فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحدّ لم نرد أن نعرض للقرآن في جوهره، بل كان قصارى ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها، فما وجدنا في اعترافات صاحبه، ولا في حياته الخلقية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن، إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب ننسبه إليه من دون الله.

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسلكها رجل وقف معنا على طرف صالح من هذه الحياة النبوية وملابساتها، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثالها، ويهتدي إليها بأقرب أماراتها، فمثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدي به.

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة إلا قليلاً – وكثير ما هم – والذين يريدون أن

يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، فهؤلاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى، نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم، يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادى بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وجد ملقى في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه.

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها، وقدرة الخالق على الممكنات لا حدّ لها، فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع في حدود القدرة الإلهية البتة ولا ثالث.

مثال ذلك: أن الرجل قد يصرع الرجل، وقد يصرع الرجلين، وقد يصرع الآحاد والعشرات، ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيقهر الأمم أفراداً وجماعات؟ والله يأتي بالشمس من المشرق فمن ذا الذي يأتي بها من المغرب؟ وأنت تستطيع أن تطفئ المصباح وأن توقده حين تشاء، ولكن هل يستطيع الناس جميعاً أن يطلعوا الشمس قبل وقتها، أو يؤخروها عن ساعتها، أو يطفئوا نورها أو أن يأتوا بمثلها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، فأنى لهم أن يضاهئوا تلك الكائنات العلوية التي لا تنالها أيديهم ولا قذائفهم، والتي لا يملكون من أمرها سوى النظر إليها والإعجاب بها والاستفادة منها والخضوع لها.

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخلق وعن محاكاة الصنعة هو آية كونها ليست من صنع الناس، وذلك هو الطابع الإلهي والمظهر السماوي الذي تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق، وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم.

غير أن من الناس فريقاً غريقاً في حمأة العناد، ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢] ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وآخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

فهؤلاء وأولئك؛ لا سبيل لنا عليهم، ولا ينفعهم نصحنا إن كان الله يريد أن يغويهم، إذ ليس من شأننا أن نسمع الصم أو نهدي العمي، ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون، أو يضعون أكفهم على أعينهم، فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١] وإنما سبيلنا أن ننصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق، ونوضح الطريق لسابلها من رواد اليقين.

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيّر به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة على أن تكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية، وسواء علينا أيضاً أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصاً خيالياً تجمعت فيه مرانات الأدباء وسلطات الزعماء، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله: هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب، وتتضاءل دونها قوة كل عالم، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب، بل قد تنقضي الدنيا ولما يحط الناس بتأويل كل ما فيه ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فلنأخذ الآن بعون الله وتوفيقه – في دراسة هذه النواحي الثلاث من الإعجاز القرآني: أعني ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي، ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية؛ لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه.

يبدأ الدكتور دراز حديثه عن الإعجاز اللغوي، فيبين أن القرآن معجزة لغوية، ولم لا يكون كذلك، وما هي الشكوك والشبهات التي عساها تحول بين المرء وبين صدق اليقين، يقول الدكتور دراز: من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه: فيم ذلك الشك؟:

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن، ولكنه لم يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته؟

أم علم أنهم قد عجزوا عنه، وأنه هو الذي أعجزهم، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس، ولكنه لا يوقن أنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به؟

أم هو يؤمن بهذا كله، ولكنه لا يدري: ما أسراره وما أسبابه؟!

هذه وجوه ستة لكل وجه منها علاج يخصه.

وفي أثناء رده على هذه التساؤلات يعرض لقضيتين اثنتين، ففي رده على التساؤل الثالث يبطل قضية الصَّرْفَة، وفي رده على التساؤل الخامس يبين الفرق بين أسلوب

القرآن وأسلوب الحديث، ويذكر أن أسلوب النبي ﷺ وإن كان ﷺ أفصح العرب فإنه يظل بعيداً عن أسلوب القرآن الكريم، لأنه بشر والقرآن الكريم كلام الله.

إبطاله للصرفة:

أما القول بالصرفة، فهو يرى أنه باطل، ذلك أن معنى القول بالصرفة أن يكونوا حاولوا الإتيان بمثل القرآن، ولكنهم صُرِفوا عن ذلك، فمثلهم كمثل الذي حاول أن يرفع جسماً ثقيلاً لظنه أنه يستطيع ذلك، وبذل جهده، ولكنه عبثاً يحاول، إن هذا الإنسان بان عجزه بعد أن بذل أكثر من محاولة، وكذلك هؤلاء كان سيبين لهم عجزهم بعد أن يحاولوا الإتيان بمثل القرآن، ولو أنهم حاولوا ذلك وصرفوا، لنقل عنهم، ولقالوا إننا كلما حاولنا الإتيان بشيء مثله، أحسسنا بصارفٍ يصرفنا عما نريد، لكنهم لم ينقل عنهم شيء من هذا، كما لم ينقل أن أحداً من فصائحهم حاول أن يأتي بشيء مثل القرآن، وما ذلك إلا لأنهم حينما سمعوه أدركوا أنه فوق مستوى كلامهم، فلم يروا أن من الحكمة معارضته، ولنستمع إلى ما قاله رحمه الله:

«أما لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم، حال بينهم وبين شيء في مقدورهم، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم إليه، ويجربوا قدرتهم عليه، لأنه ما كان لامرئ أن يحس بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقعود إلا بعد محاولة وتجربة، ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلهم عدداً، وأسفههم رأياً، فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنه فطري عتيد، كعجزهم عن إزالة الجبال، وعن تناول النجوم من السماء، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب.

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عنه بادي بدء، وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في

مستوى كلامهم، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم، كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمام؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز، فجاؤوا بشيء منه في محاذاته، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينهم وبين كلامهم، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صريحاً، (ما هذا بقول بشر)[1].

النظام الصوتي في القرآن:

وبعد الرد على هذه التساؤلات الستة يشرع رحمه الله تعالى بأسلوبه العذب، وكلماته الجذابة التي لا يمكننا أن نختصرها، ببيان كون القرآن الكريم معجزة لغوية فيذكر أن أول ما بهر العرب من هذا الكتاب الكريم نظامه الصوتي، **وهذا النظام الصوتي له مظهران اثنان:**

الأول: ترتيب الحروف في كلماتها من حيث الحركة والسكون، فهذه حركة تعقبها حركة أو يعقبها سكون، وكل ذلك يستهوي الأذن من قبل أن تعرف ذات الحرف وحقيقته.

أما المظهر الثاني: فهو وضع الحروف بعضها مع بعض، فهذا حرف مجهور، وآخر شديد، وثالث مهموس، ورابع فيه صفير، وخامس فيه قلقلة.

وهذان المظهران يمثلان جمال الإيقاع في القرآن الكريم، وهو ما يعبر عنه بالجرس الصوتي، أو موسيقى الألفاظ وهو ما تحدث عنه الرافعي رحمه الله من قبل. وهذه هي

---

(١) النبأ العظيم: ص ٨٢..

القشرة السطحية كما يسميها رحمه الله، يقول:

«من هذه الخصوصية والتي قبلها - المظهران - تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلّت قدرته قد أجرى سنّته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها، انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ويغريهم عليها بطلاوته... ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق، وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]»[١].

وبعد هذا يحدثنا الأستاذ رحمه الله تعالى عما وراء هذه القشرة السطحية، وبعد حديثه عن جمال الإيقاع في كتاب الله يحدثنا عن جمال التنسيق، يقول: «فإذا أنت لم يلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون، بل فلّيت القشرة عن لبها، وكشفت الصدفة عن درها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع»[٢].

ويحدد مراتب أربعاً ليتحدث عنها وهي:

١- القرآن في قطعة قطعة منه.

٢- القرآن في سورة سورة منه.

(١) النبأ العظيم: ص٩٨.
(٢) النبأ العظيم: ص ١٠٠.

٣- القرآن فيما بين السورة والسورة.

٤ - القرآن في جملته.

ولكننا لم نتعم إلا بالمرتبتين الأوليين القرآن في قطعة قطعة، والقرآن في سورة سورة، وفاضت روحه إلى بارئها رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

القرآن في قطعة قطعة:

خصائص أسلوب القرآن:

يبين الشيخ رحمه الله خصائص الأسلوب القرآني وهي:

١-القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى: وهاتان نهايتان لا يستطيع أحد من الكتّاب الجمع بينهما، فالذي يعمد إلى ادخار لفظه، والقصد فيه، وعدم الإنفاق منه إلا على حدّ الضرورة لا بد أن يحيف على المعنى ولا يوفيه حقه، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز دقائقه، لابد أن يطيل الكلام ويمد فيه.

لكن القرآن الكريم استطاع أن يجمع بين هاتين الخاصتين، فإنك إذا نظرت إليه «تجد بياناً قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف، ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه»[1].

٢- خطاب العامة وخطاب الخاصة: وهاتان كذلك غايتان متباعدتان عند الناس، فإن الكاتب إذا أراد مخاطبة العامة لا بدّ أن ينزل إلى مستواهم فيوضح ويبين، ولو

---

(١) النبأ العظيم: ١٠٦.

خاطب بهذا الأسلوب الخاصة لعد كلامه معيباً، لأن الخاصة تكفيهم اللمحة والإشارة، وهكذا تجد أن هناك أسلوباً للخاصة وآخر للعامة، ولا يمكن أن تخاطبهما بجملة واحدة، ولكنك واجد هذا في القرآن الكريم، فإن الجملة الواحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، والأذكياء والأغبياء.

٣- **إقناع العقل وإمتاع العاطفة:** في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان، وكل منهما تحتاج إلى ما لا تحتاجه الأخرى، والحكماء والعلماء لا يخاطبون إلا العقل والفكر، والأدباء والشعراء لا يخاطبون غالباً إلا الوجدان، فإنك لا تجد فيلسوفاً يخاطب عاطفتك، أو شاعراً يخاطب عقلك، فالحكماء هم الذين يقنعون العقل، والشعراء والأدباء هم الذين يمتعون العاطفة ولا نجد من يجمع بينهما في الخطاب إلا ما نجده في كتاب الله تعالى.

٤- **البيان والإجمال:** وهذه كذلك عجيبة لا نجدها عند الكتاب، فمن أراد أن يجمل لا بد أن يذهب إلى الإبهام والإلباس، ومن أراد تحديد غرضه وتوضيحه لم تتسع تلك لتأويل، فهذان الطرفان لا يجتمعان إلا في كتاب الله، فإنك إذا قرأت القطعة من القرآن وجدت الإحكام والدقة والخلو من الغريب، ويخيل إليك أنك أحطت بها وبمعانيها، ولكنك لو رجعت إليها كرة أخرى لاستخرجت منها معنى آخر جديداً غير الذي فهمته من قبل، وهكذا تجد للكلمة الواحدة والجملة الواحدة وجوهاً عدة، كلها صحيحة.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[البقرة:٢١٢] وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس، ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء ؟ أصبت.

ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير، ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد أصبت،

ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت، ولو قلت: إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت، ولو قلت: يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين. وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه، وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم غنى من حيث لا يظنون، وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدّ، ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب[1].

ويطبق الدكتور دراز هذه الخصائص على قطعة من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١]،

ففي هذه القطعة تبرز بعض العناصر وهي:

أ- مقالة ينصح بها الناصح لليهود؛ إذ يدعوهم للإيمان بالقرآن.

ب-إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.

ج- الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

ويبدأ الحديث عن المقصد الأول، ونلحظ فيه القصد باللفظ والوفاء بالمعنى، فقد

---

(١) النبأ العظيم: ص ١١٢ (في التعليق).

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، ألستم قد آمنتم بالتوراة، التي جاء بها موسى، لأنها أنزلها الله، فالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ أنزله الله، فآمنوا به كما آمنتم بها.

ثم كان هذا المقصد الثاني وهو رد اليهود، فقالوا: إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة، ليس كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا، والقرآن لم ينزله الله علينا، فلكم قرآنكم، ولنا توراتنا، وهنا نلحظ كذلك القصد باللفظ والوفاء بالمعنَى.

ويبين الله سبحانه بأنهم قد كفروا بما وراء التوراة، أي بكتابي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يكفروا بما قبلها، لذلك قال: «بما وراءه».

ثم يأتي المقصد الثالث، وهو الرد والمناقشة، فبين لهم أولاً أنه (هو الحق) فكتابهم حق ينبغي أن يبعثهم على الإيمان بما هو حق، والقرآن حق كذلك، وثانياً بقوله: (مصدقاً) أي هذا الحق وهو القرآن جاء كذلك مصدقاً لما في التوراة، وثالثاً (لما معهم) فلو كان ما جاء به القرآن لا يعرفونه، أو قد خالف ما جاء في التوراة لكان لهم بعض العذر في عدم الإيمان به، ولكن هذا الحق جاء مصدقاً لما معهم.

ويذكر بعض اللفتات البيانية في الآيات، فقد قال: (تقتلون أنبياء الله) بصيغة المضارع، وهذا يدل على استحضار الصورة، وقال: (من قبل) وفيه تطمين للنبي ﷺ أنه تعالى عاصمه من القتل.

ونجد في الآيات الإجمال والبيان فقد قال: (مصدقاً) ولم يذكر بماذا، هل هو في أصول الدين أو الفروع أو ماذا ؟ ونجد الإقناع والإمتاع في قوله: (وهو الحق).

الإيجاز والإطناب:

وينتقل للحديث عن الإيجاز والإطناب، ويذكر أن الكتاب الكريم إذا أطنب فإنما هو إيجاز، إذ المعنى هو الذي احتاج لكثرة الألفاظ، فهو إيجاز، وهذا هو ما قرره الجاحظ

والرماني من قبل.

رده القول بالزياده:

ويرد القول بالزيادة، ويذكر أن كل كلمة لها معناها في القرآن، ويمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ويقول: إن للناس في هذه رأيين: فأكثرهم قالوا: الكاف زائدة، لأن الآية بوجود الكاف تنفي المثل عن شبيه الله، فكأنها تسلم بثبوت المثل، وقليل منهم مَن ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً، لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً.

وقد رد ما ذهب إليه هؤلاء، بأن هذا الحرف جاء في موقعه، وأنه لو سقط لسقطت معه دعامة المعنى، ولتهدم ركن من أركانه، وبيَّن هذا من طريقين:

الأول: لو قال: «ليس مثله شيء» لكان هذا نفياً للمثل المكافئ فقط، ولكنه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ليفيد نفي المثل المكافئ له في كل صفاته، ونفي من هو أقل منه.

الثاني: إنه إذا قال: «ليس مثله شيء » لكانت هذه دعوى فقط ولكنه قال: «ليس كمثله شيء» فهي دعوى ودليلها معها كذلك، ومثال ذلك، لو قلت: (فلان لا يكذب) لكانت هذه دعوى، لكن إذا قلت: (مثل فلان لا يكذب) لكانت دعوى ودليل كذلك.

القرآن في سورة سورة منه:

يتحدث الدكتور دراز عن الوحدة الموضوعية في السورة، فيقول: إن أي كاتب لو أراد الكتابة في معنى لا بدّ أن تكون عنده القدرة الفائقة للربط بين جمله وفقراته، فما بالك فيمن يكتب في أكثر من معنى، فلا نجد كاتباً أو شاعراً ينتقل من معنى إلى معنى دون أن

يشعر القارئ بالانتقال.

ويذكر أن هناك أسباباً كان من الممكن أن تجعل القرآن الكريم مفكك الأوصال وهي:

١-الزمن الطويل بين نزول الآيات.

٢-الطريقة التي اتبعت في ترتيب الآيات.

٣-الاختلاف الذاتي بين دواعي الآيات، لأنها تنزل حسب الوقائع والأحداث، ولكن مما يدل على إعجاز القرآن، وعلى أن مصدره ليس محمداً ﷺ أنه جاء مترابطاً في آياته وسوره على الرغم من تلك الأسباب، ونحن إذا قرأنا السورة الطويلة المنجمة في نزولها، لا نحس بشيء من تناكر الأوضاع، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، ويذكر أننا ينبغي أن ندرس السورة كلها حتى نستطيع البحث عن الصلات بين كل مجموعة من الآيات أو بين آية وأخرى.

طريقة القرآن في الجمع بين الآيات:

يذكر الكاتب أن القرآن:

١-يعمد إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج محاسن تلك ومساوئ الأخرى، ومن ذلك حديثه عن فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

٢-يعمد إلى الأمور المختلفة غير المتضادة فيجعلها تتعاون في أحكامها بالاستشهاد والاستنباط وغير ذلك.

٣-إن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر، نراه ينتقل إلى الحديث من أحدهما إلى الآخر بحسن التخلص.

وطبق الوحدة الموضوعية واتساق الآيات بعضها مع بعض على سورة البقرة، وهي

أطول سورة في كتاب الله، وقد استغرقت العهد المدني كله، فكان نزولها في عشر سنين، فقد ذكر فيها آيات تحويل القبلة، وكان في السنة الثانية للهجرة كنا نعلم، كما ذكرت فيها آيات الربا وهي من آخر الآيات نزولاً، كما ذكر فيها قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١] وقد نزلت قبل انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بثمان ليال.

وعلى الرغم من هذه المدة الزمنية الطويلة وهي عشر سنين، فإن الذي يقرأ هذه السورة الكريمة لا يجد فيها موضعاً لثغرة من الثغرات، والذي لا يعرف المدة التي نزلت فيها السورة الكريمة لا يرتاب في أنها نزلت دفعة واحدة، وفي وقت واحد، وذلك لما بين آياتها من صلات وثيقة، وروابط محكمة، واتساق بديع.

رحم الله أستاذنا الفاضل رحمة واسعة، وجزاه عما قدم للمسلمين في كشف إعجاز الكتاب الكريم خير الجزاء، وما أعظم الفائدة التي كنا نجنيها لو أن الخطة التي وضعها الشيخ لكتابه قد كملت، فحدثنا عن الفصلين الباقيين في المعجزة اللغوية، وهي القرآن فيما بين السورة والسورة، والقرآن في جملته، وعن الوجهين الآخرين للإعجاز: العلمي والتشريعي، ولكنها مشيئة الله (وإنا لله وإنا إليه راجعون).

إن كتاب الشيخ في الإعجاز، هو بحق فتح جديد، فلقد هضم الشيخ كل ما كتب قبله وأفاد منه، وقد منحه الله قوة في التقرير، وإصابة في الفكر مع سعة علم وصدق عاطفة.

ونعترف هنا بأن ما كتبه الشيخ رحمه الله يصعب تلخيصه، ولكننا اجتزأنا منه ما أمكننا، والذي يود أن ينعم بكلام الشيخ فحري أن يقرأ كتابه مرة بعد مرة ونحن على يقين أنه سيجد في كل مرة فيه جديداً.

٣-الإعجاز القرآني عند سيد قطب:

الشهيد سيد قطب أديب مطبوع معطاء، وكاتب فذّ مرهف، ثري العواطف، غني المشاعر، ألمعي الذهن، متقد القريحة، وهو قبل ذلك كله وبعده يمتاز بسمو الروح، وعمق الإدراك، وقوة الإيمان، تفاعل مع القرآن الكريم، فتفاعل القرآن في نفسه، وكان هذا التفاعل خالياً من الشوائب، بعيداً عن الشبهات، ذلكم أن تفاعل الرجل رحمه الله مع القرآن كان نتيجة رحلة طويلة قضاها مع أفكار أرضية متضاربة متباينة، وثقافات متعددة كان أسيرها، استهوت فؤاده، وملكت عليه لبه، ولكنه بعد أن خبرها جميعاً وجدها نخالات وعفارات فكان لا بد من أن يرجع إلى القرآن وثيقة السماء الوحيدة الخالدة، رجوعاً فيه سلامة العقيدة وصفاء الفكر وحاجات النفس.

ولقد سعدت المكتبة الإسلامية بهذا النتاج الثري المبارك، فمن التصوير الفني في القرآن الكريم، إلى مشاهد القيامة، إلى غير ذلك من كتب ومقالات، ولقد بلغ هذا الإنتاج قمته بما تفتق عنه فكره وقلمه ونفسه رحمه الله، وهو كتاب الظلال.

إعجاز القرآن عند سيد قطب:

إن سيد قطب رحمه الله لم يكتب كتاباً خاصاً في الإعجاز، ولكن ما كتبه عن القرآن الكريم وهو كثير نتذوق فيه حلاوة الإعجاز، ويسري فيه روحه، ونجد فيه لبه وحقيقته، ومن نافلة القول أن يكون الإعجاز البياني الوجه الأول والأتم عند سيد قطب رحمه الله، ولكنه مع ذلك لم يفته أن ينبه على وجوه كثيرة من وجوه إعجاز القرآن، يقول: «إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به»[1].

---

(١) الظلال (١٥/ ٦٧).

الإعجاز البياني: (الكلمة القرآنية):

المتتبع لما كتبه سيد قطب – رحمه الله – يجده يولي الكلمة القرآنية كثيراً من العناية، وهو ينبه على سرها، ويبين جمالها في موضعها، ودقتها في سياقها، وأحقية مكانها بها، فقد اختيرت اختياراً دقيقاً، لأن غيرها لا يؤدي ما تؤديه، وهذا ما نبه عليه وأشار إليه العلماء السابقون كما عرفنا، وإليكم بعض النماذج مما ذكره رحمه الله.

يقول وهو يقارن بين هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

لقد جاءت كلمة خاشعة في الآية الثانية، لأنها تتفق مع السياق، فالسياق هنا سياق عبادة، لأن الآية التي قبلها تحدثت عن سجود الليل والنهار والشمس والقمر، فكان من الحكمة البيانية أن يذكر هنا الخشوع، لأنه متصل بالعبادة، أما الآية الأولى فلقد جاءت الكلمة في سياق الحديث عن نهاية الدنيا وزلزلة الساعة، وإثبات البعث، فكان المتلائم مع السياق أن تذكر كلمة هامدة.

ويحدثنا عن سر التعبير في كلمة (سجى) من قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢] دون أظلم ودون يغشى، ذلك لأن هذا يتناسب مع السياق الذي جاءت له الآيات، من انقطاع الوحي مدة وفتوره، فما هي إلا حالة تشبه «سجى الليل» دون أن يعم ظلامه [١].

وأشار إلى دقة التعبير عند قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦] فقال: والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء، وإن كان الشر قد غلب عليه،

---

(١) معنى (سجى الليل): أظلم وسكن، انظر لسان العرب (١٤/ ٣٧١).

وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه، وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه، وهو سوء - ولو مؤقتاً- لأبيه، فلهذا اختار تسميته كيداً على إجمال اللفظ، وبالإلماع إلى ظاهره، وهو من دقائق التعبير» (١٣/ ٣٤).

وقال عند قوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الكهف:١٦]: ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة، ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الكهف:١٦] ولفظه (ينشر) تلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب (١٥/ ٨٣).

ويبين سر اختيار كلمة (تظلم) في قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣] قال: ويختار التعبير كلمة (تظلم) في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر (١٥/ ٩٤).

ويبين سر التعبير عند قوله سبحانه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩] فما السر في استعمال كلمة (عنده) ولم يقل:

معاذ الله أن نأخذ بريئاً مكان سارق، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق.

وهذا قليل من كثير عند سيد رحمه الله.

مميزات الأسلوب القرآني وخصائصه:

وكما حدثنا رحمه الله عن سر الكلمة، فهو يحدثنا عن مزايا أسلوب القرآن وخصائصه، وهو ما يجعل القرآن الكريم في أعلى طبقات البلاغة:

١-تأثيره على النفوس: يقول سيد قطب: «إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، أن له سلطاناً عجيباً على القلوب، ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر

بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً»[1].

٢-استثماره الألفاظ القليلة في التعبير عن القضايا الكبرى، يقول سيد قطب:

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، بحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال، ويبلغ من ذلك مستوى لا يدرك إعجازه أحد كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً[2].

٣-احتمال النص لمعانٍ كثيرة كلها صحيح مقبول، يقول سيد قطب: النص الواحد يحوي مدلولات متنوعه متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء، واختلاط بين المدلولات، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى[3].

٤-استحضار المشاهد وتجسيم الأحداث وتصويرها تصويراً ينفذ إلى أعماق النفس: يقول: وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه، كما لو كان المشهد حاضراً، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولا يملك الأداء البشري تقليدها، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة[4].

---

(١) الظلال (٣/ ١٧٨٦).

(٢) الظلال (٣/ ١٧٨٧).

(٣)الظلال (٣/ ١٧٨٧).

(٤)الظلال (٣/ ١٧٨٧).

ويكاد هذا يتفق مع ما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز من قبل، مع اختلاف في الأسلوب والتعبير.

نظرية التصوير الفني:

واذا كان ما تقدم من الإعجاز البياني يشارك فيه سيد غيره من العلماء – رحمهم الله جميعاً – فإن مما امتاز به الرجل حديثه عن التصوير الفني في القرآن الكريم، وهو جانب من الإعجاز البياني – كما يراه كثير من الناس – إن الأساس الذي يقوم عليه التصوير الفني كون التصوير هو الأداة المفضلة للتعبير، والقاعدة الأساسية في الكتاب العزيز، عدا آيات الأحكام بالطبع، وهذا التصوير ليس للمعاني المجردة وحدها، بل هو للحالات النفسية والحوادث التاريخية والقصص والأمثال كذلك، وهذا التصوير يقوم على التجسيم المحسوس والتخيل، وهو إذ يأتي بأمثلة لذلك، يشعر القارئ وكأنه أمام مناظر بديعة، تصور حالات من مشاهد الكون، بل والحق يقال إن ما تحدثه الآيات في النفس أعظم وأكثر روعة وأشد أثراً من تلك.

خصائص التصوير الفني:

ويتحدث عن خصائص التصوير الفني في القرآن وهي:

أولاً: التخييل الحسي:

وهو أن القرآن يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة من الأغراض والموضوعات التي يبحثها، بحيث ترتسم صورة فنية متخيلة في خيال القارئ وهذا التخيل ألوان كثيرة منها:

التخييل بالتشخيص: بأن تخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية ومن ذلك:

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨] يخيل إليك من هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها

ثناياه، وهو يتنفس، فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء، على وجه الأرض والسماء.

وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار، فلا يستطيع له دركاً ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤] ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة والتي لا نهاية لها ولا ابتداء، أو هذا هو الليل يسري ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر:٤] فتحس سريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد[1].

ومن ألوان التخييل تلك الصور المتحركة التي يعبر بها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني، فالخيال في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف:١٠٩]، يظل بتصور تلك الحركة الدائبة، حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله في غير ما توقف ولا انتهاء إلى أن ينتهي البحر بالنفاد.

ومن ألوان التخييل ما يتمثل في الحركة المتخيلة التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات مثل: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣] فهي تخيل للحس حركة النثر وصورة الهباء دون الحركة التي تسبقها حركة القدوم.

ثانياً: ومن خصائص التصوير التجسيم:

ويعني به تجسيم المعنويات على وجه التصيير والتحويل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ ﴾ [الأنعام:٣١] وفي هذا تجسيم للذنوب كأنها أحمال تحمل على الظهور، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨]، فالقلوب كأنها تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق (٦٧).

---

(١) التصوير الفني، ص٦٢.

ثالثاً: التناسق الفني:

ويتحدث بعد ذلك عن التناسق الفني في الآيات، من إيقاع بين أجزائها، وتلاؤم بين ألفاظها ومعانيها، ومواقع كمواقع النجوم لكلماتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢] فإن الدواب تطلق عادة على الحيوان – وإن كانت تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض - ولكن شمولها هذا للإنسان، ليس هو الذي يتبادر إلى الذهن، لأن للعادة حكمها في الاستعمال، فاختيار كلمة «الدواب» هنا، ثم تجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهدى بوصفهم «الصم البكم» كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية، التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون لأنهم «لا يعقلون».

ومن هذا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]، فقد رسم لهم بهذا التشبيه صورة دقيقة، إنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذي ينتظرهم، كما تأكل الأنعام وتمرح، غافلة عن شفرة القصاب، أو غافلة عما سوى الطعام والشراب[١].

ومن التناسق كذلك استقلال اللفظة الواحدة برسم الصورة كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء:٧٢] فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها، وفي جرس (ليبطئن) خاصة، وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها[٢].

ومن هذا التناسق تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات، ومن ذلك نموذج من المقابلة النفسية بين الكافرين والمؤمنين في سورة الغاشية[٣].

ومن التناسق كذلك التقابل بين صورتين إحداهما حاضرة والأخرى ماضية، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] فالصورة الحاضرة هنا هي

---

(١) التصوير الفني، ص٧٥.

(٢) التصوير الفني، ص٧٦.

(٣) التصوير الفني، ص٨١.

صورة الإنسان الخصيم المبين، والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان، ولهذا جعل الصورتين متقابلتين، وأغفل المراحل بينهما لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص.

ويحدثنا عن هذا التناسق الفني في سورة ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢] إنهما شيئان: أسود وأبيض، ليل ونهار، وكأن الصورة كلها تقوم على ذلك المشهد، فهناك الذكر والأنثى، وأعطى واتقى، وبخل واستغنى، واليسرى والعسرى، والآخره والأولى، والأشقى والأتقى.

كما يحدثنا دون تكلف عن سر الإعجاز في الفاصلة القرآنية، وسر تغيرها، فهذه الفاصلة في سورة مريم، وهي تتحدث عنها وعن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ - ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الآيات:١٦-٣٥] لماذا ؟

يقول: إنه الحكم يصدر ولهجة صدور الحكم تختلف عما قبلها من لهجات المرافعة والإدعاء.

وهكذا نسير معه والآيات تسير به، وهكذا تنكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح، إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخييل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى، إلى تفنن في الإخراج، وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز.

القصة في القرآن:

وحينما يعرض للقصة في القرآن، ويذكر أغراضها الدينية، يقفي على ذلك بالخصائص الفنية للقصة في القرآن، ويذكر من هذه الخصائص: تنوع طريقة العرض، وتنوع المفاجأة، والفجوات بين المشهد والمشهد، ليتأمل السامع، أما الخصيصة الرابعة وهي أهم الخصائص فهي التصوير في القصة، سواء كان هذا التصوير لقوة العرض أو العواطف والانتقادات أو رسم الشخصيات، فمثلاً تجد أن نهاية القصة في القرآن تتفق فنياً مع المشهد الأخير لنهاية كل قصة، فهذه قصة موسى عليه السلام، ذكرت آخر ما ذكرت في سورة المائدة، حينما وصل بنو إسرائيل إلى التيه ولم ينزل شيء بعد ذلك على سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام.

أما في تصوير العواطف والانفعالات، فأكتفي بمثال واحد مما ذكره، ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن قصة مريم عليها السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فها هي ذي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في جَمامها، ولكن ها هي تفاجَأُ مفاجأة عنيفة، تنقل تصوراتها نقلة بعيدة، ولكن بسبب ما هي فيه أيضاً ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٧].

ولئن كنا نحن نعلم أنه الروح الأمين، فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة، ذات التقاليد العائلية الصالحة، وقد تربت تربية دينية وكفلها زكريا، بعد أن نذرت لله جنيناً، هذه هي الهزة الأولى.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩] ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى، مقدار الفزع والخجل، وهذا الرجل الغريب، الذي لم تثق بعد بأنه رسول رَبِّها، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها – يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول، وهو أنه

يريد أن يهب لها غلاماً وهما في خلوة وحدهما، وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠] هكذا صراحة، وبالألفاظ المكشوفة، فهي والرجل في خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً، فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً، وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ فقد تكون هذه خدعة فاتك كما قلنا، فالحياء إذن ليس يجدي، والصراحة هنا أولى.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٢١] ثم ماذا؟.

هنا نجد فجوة من فجوات القصة، فجوة فنية كبرى، تترك للخيال تصورها، ثم تمضي القصة في طريقها، لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٢-٢٣] وهذه هي الهزة الثالثة.

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية تواجه الألم الجسمي الحاد الذي «أجاءها» إجاءة إلى جذع النخلة، وهي وحيدة فريدة تعاني حيرة العذراء في أول المخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء، فإذا هي قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها ونلمس مواقع الألم فيها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

وهذه هي الهزة الرابعة، والمفاجأة العظمى، وإنا لنكاد نحنُ، لا مريم نهب على أقدامنا وثباً، روعة من هذه الهزة وعجباً، طفل ولد اللحظة، يناديها من تحتها، ويمهد لها مصاعبها ويهيِّئ لها طعامها، ألا إنها الهزة الكبرى[1].

وتحسبها قد وهنت طويلاً وبهتت طويلاً، قبل أن تمدّ يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً، لتتأكد على الأقل، ويطمئن قلبها لما تواجه به أهلها، ولكن هنا فجوة تترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة، ويعبرها.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم:٢٧].

فلتطمئن الآن مريم، ولتنقل الهزات النفسية إلى سواها، ﴿قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخرية والتهكم على «أخت هارون» أو في تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

فأشارت إليه «ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا، أما هم فما عسى أن تقول في العجب الذي يساورهم، والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، ثم تتبجح فتشير إليهم ليسألوه عن سرها؟ ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

ولكن ها هي ذي المعجزة المرتقبة، ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

---

(١) كان والدي - رحمه الله - ذا عاطفة جياشة، وحس مرهف كان كلما قرأت له هذه القصة، من بداية تأليف الكتاب، وخلال مراجعته وتصحيح طبعاته كان يجهش بالبكاء من شدة تأثره.

لولا أننا قد جربنا من قبل، لوثبنا على أقدامنا فزعاً، أو لسرنا في مواضعنا دهشاً، أو لفغرنا أفواهنا عجباً، ولكننا جربنا، فلتفض أعيننا بالدمع من التأثر.

في هذه اللحظة يسدل الستار والأعين تدمع للانتصار، وفي هذه اللحظة، تسمع في لهجة التقدير، وفي أنسب فرصة للإقناع والاقتناع.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:٣٤-٣٦].

لقد برز الغرض الديني هنا، وبرزت مشاهد القصة، وبرزت معها قوة العواطف والانفعالات وهي شيء، وهذا اللون هو يطبعها، ويغلب فيها على الألوان الأخرى».

تلك هي الزاوية التي تنبه عليها رحمه الله، فتناول النص القرآني من خلالها، وهو كما قلت من قبل، مجرد مبتكر كسابقيه، وإن كان لكل واحد منهم زاوية خاصة استنار بها في عرض النص القرآني.

أما كتابة مشاهد القيامة، فإنما هو عرض للآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر، مصورة تلك المعاني الذهنية، فيشبه أن يكون فصلاً شاملاً، أو تطبيقاً عملياً لما جاء في كتاب التصوير.

سيد قطب والإعجاز العلمي:

قلنا إن الإعجاز القرآني عند سيد - رحمه الله- إعجاز عام لا يقف عند اختيار الكلمة، وسر التعبير بها، ولا عند الأسلوب والبيان، ولقد أشرنا من قبل عند حديثنا عن التحدي إلى آراء العلماء في وجوه الإعجاز، فمنهم من يرى أن القرآن معجزة بيانية فحسب، وأن التحدي بالبيان وحده، وأكثرهم يرى أن وجوه الإعجاز متعددة منها

البياني والعلمي وسنزيد هذه المسألة تفصيلاً إن شاء الله في الباب الثاني.

ولكن ترى في أي اتجاه سيسير صاحب الظلال وهو يتحدث عن الآيات العلمية في القرآن ؟ أيسير مع هؤلاء الذين يرقصون طرباً ويفرحون جذلاً حينما يستشفون من قرب أو بعد موافقة آية من كتاب الله لمسألة علمية، حتى لو كانت لا تزال نظرية ليثبتوا أن القرآن كتاب الله، ولذلك تحدث عن هذه المسائل العلمية قبل أزمنة بعيدة ؟، أم يسير مع أولئك الذين يرفضون كل الرفض ويأبون كل الإباء أن تفسر آي القرآن بشيء من مسائل العلم ولو كانت حقائق ثابتة، حتى لا يسمحوا بأن يستشهد بآية من كتاب الله على مسألة ما ولو كان دون المساس بالتفسير بحجة أن القرآن لم يأت للإشارة إلى المسائل العلمية، وإذن فلا ينبغي أن تؤخذ منه تلك الإشارات ؟.

يقيناً إنه لا يسير مع الفريق الأول الذين يلهثون وراء النظريات العلمية أياً كانت، ذلك لأن إيمانه بالقرآن بأنه كتاب الوجود الأكبر الذي ينظم شأن الإنسان ويسمو به، يجعله يحدد موقفه من تلك القضية، التي طالما تشعبت فيها الآراء تحديداً دقيقاً، فالقرآن الذي يسمو بالإنسان ليس كتاباً يتحدث عن الآلة الصماء، لأن الله الذي خلق الإنسان تكفل أن يهديه ليطلع على أسرار هذا الكون بفكره.

وإذا كان صاحب الظلال لم يسر مع هذا الفريق، فهل تستطيع أن تجعله من الفريق الآخر الذين ينكرون على الذي يحوم حول المسائل العلمية، وهو يفسر آي القرآن، ولوكان ذلك استطراداً أو إشارة دون أن يمس قدسية الآية، أو أن ينال من لغتها أو مما ورد فيها من الآثار الصحيحة ؟ .

الحق أننا حينما نستعرض موقفه نجد أنه ليس من هذا الفريق كذلك، لقد كان الرجل معتدلاً في نظرته لتلك الأمور غير متنكب لصراط الحق السوي، لا يتجاوز نص الآية أو روحها، ولكنه لا يجمد كذلك على ما ذكره المتقدمون دون أن يستفيد من ظلال الآيات

الممتدة في جذور الحياة وأثناء الكون، فهو لا يمنع أبداً أن يتسع في تفسير الآيات لتشمل ماقرره العلم من حقائق ثابتة مادام ذلك ليس فيه تكلف أو تعسف ممجوج ولا تعارض محجوج، فالحقائق العلمية - كما يقول - إذا كنا سنتكلف لها بتحميل الآيات أكثر مما تتحمله، حري بنا أن لا نخلط بينها وبين القرآن، فما بالك بالنظريات التي لم تثبت .

وها هو يرد على الذين يلهثون وراء النظريات العلمية مبيناً الأسباب التي حملتهم على ذلك، واضطرتهم إليه، يقول:

«وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة، متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لاتليق بجلال القرآن الكريم .

الأول: الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه، والعلم مايزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل مايصل إليه غير نهائي ولا مطلق.

الثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق بقدر ماتسمح طبيعة الإنسان النسبية مع طبيعة هذا الوجود وقاموسه الإلهي.

الثالث: التأويل المستمر مع التمحل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد .

وهو يرد على الفريق الثاني كذلك الذين يجمدون عند ظواهر الآيات بحجة أن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف الصالح من الصحابة و التابعين رضي الله عنهم ومن بعدهم، ولنستمع إليه رحمه الله:

ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ومن حقائق، عن الكون والحياة والإنسان، كلا إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان، ولقد قال الله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل مايكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا، فكيف؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة .

يقول عند قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها وبسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا ويتكون سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص.... هي التي تصلح للحياة وتوائمها فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة... هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وتعميقه في تصورنا، هذا جائز ومطلوب... ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى .

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ثم توجد نظرية في النشوء والإرتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة وأن هذه الخلية نشأت في المادة وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان... فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن..... لا.... إن هذه النظرية أولاً ليست نهائية، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً... وهي معرضة غداً للنقض والبطلان بينما الحقيقة القرآنية نهائية وليس من الضروري أن يكون هذا معناها .

ويقول القرآن الكريم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾

[الأنبياء: ٣٠]، ثم تظهر نظرية تقول: إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها، فنحمل النص القرآني ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية ونقول: هذا ما تعنيه الآية القرآنية .

لا ليس هذا هو الذي تعنيه فهذه نظرية ليست نهائية، وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمي، أما الحقيقة القرآنية، فهي نهائية ومطلقة، وهي تحدد فقط أن الأرض فصلت عن السماء... كيف ؟ ماهي السماء التي فصلت عنها ؟ هذا مالا تتعرض له الآية... ومن ثَمَّ لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع إنه المدلول النهائي المطلق للآية .

وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تطابق وتصدق... وفرق بين هذا وذاك[1]

ولا نودّ أن نسترسل فنذكر أمثلة للإعجاز العلمي عند سيد، حتى لا تتسع مساحة الكتاب، ثم إن أمثلة الإعجاز العلمي أو التفسير العلمي تكاد تكون واحدة عند العلماء المحدثين، وسنفصل القول في هذا عند حديثنا عن الإعجاز العلمي إن شاء الله .

الإعجاز التشريعي عند سيد قطب:

قلنا إن صاحب الظلال - رحمه الله – يرى أن الإعجاز القرآني عام لا يخص جانباً دون آخر، وطبيعي أن يلمس القارئ ذلك وهو يتحدث عن آيات الأحكام، فهو رحمه الله ينأى بالقارئ عن التفريعات والتشعيبات والخلافات الفقهية والتشاد المذهبي إلا ماتمس له الضرورة وتدعو إليه الحاجة، إنك تلمس وتدرك وأنت تقرأ تعليقهُ على آيات الأحكام تفرد القرآن بهذا السمو في التشريع وتلك العظمة في تقرير الأحكام، إنه يوجه

---

(١) الظلال (٢/ ٩٤-٩٩).

المسلمين نحو هذا القرآن كتاباً إنسانياً تاماً في أحكامه، كاملاً في هدايته، حياً في منهجه، حركياً في هيمنته على النفوس، متناسقاً في مبانيه، متسقاً في معانيه، ويستثير عواطفهم ليعيشوا في ظلال التوجيهات الربانية.

وإنك تجده وهو يتذوق الإعجاز القرآني لا يفصل بعضها عن بعض، فهو، وهو يتحدث عن الإعجاز التشريعي في الآيات لا يفوته أن يحدثك عما فيها من إعجاز بياني كذلك، استمع إليه وهو يتحدث عن آية الدَّيْن، يقول: إن الإنسان يقف في عجب وفي إعجاز أمام التعبير التشريعي في القرآن حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى مايبدل لفظ بلفظ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل، عميق الإيحاء، قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية.

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل أوضح وأقوى [1] لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد.

ولن نتوسع في نقل كثير من النصوص حتى لا تتسع مساحة الكتاب من جهة، ولأن لهذا الوجه التشريعي من الإعجاز مكانه في هذا الكتاب من جهة أخرى،ونكتفي بمثال واحد، يصلح لأنه يكون إعجازاً تشريعياً من جهة وعلمياً من جهة أخرى.

يقول رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾

---

(١) لسنا مع المؤلف في قوله "بل هو أوضح وأقوى " إذ إن الإعجاز واحد في وضوحه وقوته في جميع آيات القرآن، نقول هذا لأن عبارته تشير إلى التفاضل.

[النحل: ١١٥] فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم، والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل، أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة) ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر ؛ لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة، وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن ذا الذي يجزم أن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لهذا، ونحرم ما حرمت، ونحلل ماحللت، وهي من لدن حكيم خبير »[١]

(١) الظلال (٢/ ٥٧)

٤-الإعجاز البياني في القرآن / بنت الشاطئ:

يشتمل هذا الكتاب كما سمته كاتبته على موضوعين اثنين:

الأول: إعجاز القرآن .

الثاني: مسائل نافع بن الأزرق .

وكنا نود أن يكون كل من الموضوعين في كتاب مستقل، والذي يعنينا هنا الموضوع الأول (الإعجاز البياني) حيث بدأته الكاتبة بقولها: " لولا نسب لي في الشيوخ عريق، لتهيبت التصدي لهذا الموضوع الدقيق الصعب، الذي توارد عليه أئمة من علماء السلف، أفنوا أعمارهم في خدمة القرآن الكريم، وقدموا إلى المكتبة الإسلامية ثمار جهودهم السخية الباذلة "[(١)] وقد عرضت الكاتبة فيه عدة مباحث:

١- مدخل إلى الموضوع .

٢- المبحث الأول: وفيه المعجزة، وقضية التحدي، وآيات المعاجزة، ووجوه الإعجاز، والبلاغيون والإعجاز .

٣- المبحث الثاني: رأي في الإعجاز وفيه:

أ- فواتح السور وسر الحروف .

ب- دلالات الألفاظ وسر الكلمة .

ج- الأساليب وسر التعبير .

---

(١) الإعجاز البياني / بنت الشاطيء "ص١١" وليت الكاتبة بقيت عند ماقالته ، لكننا سنجدها فيما بعد تنكرت لهؤلاء الأئمة.

المدخل: عرضت فيه المسيرة التاريخية للإعجاز منذ القرن الثالث الهجري إلى هذا القرن، ولنا عليها في مدخلها هذا ملحوظتان:

الملحوظة الأولى: أننا نجد الكاتبة تحاول أن تنقص من قدر علمائنا السابقين، وتصورهم جميعاً صورة مستكرهة منفرة، ولم تتحدث بكلمة واحدة تبين فيها منزلة هؤلاء الأعلام الأقدمين منهم والمحدثين، بل همزتهم ونالت منهم جميعاً، وليس هذا أمراً مقبولاً، كما أنها أهملت ما ذكره السابقون من الإشادة بفضل من سبقهم، فهي مثلاً تنقل تكفير ابن حزم للباقلاني، لكنها تهمل إشادة العلوي بعبد القاهر الجرجاني [(١)] وهذا أمر ما أظنه يليق بصاحبة النسب العريق بالشيوخ كما ذكرت عن نفسها .

الملحوظة الثانية: حينما تتحدث عن القرن الثامن تذكر قول صاحب الطراز يحيى بن حمزة العلوي،«أن السابقين أغفلوا بلاغة القرآن ثم تقول: ثم لو عذرنا من كان منهم ليس له حظ في المباحث الكلامية الإلهية، ولا كانت له قدم راسخة في العلوم الإلهية وهم الأكثر كالسكاكي وابن الأثير وصاحب التبيان » وتعلق في الحاشية بأن صاحب التبيان لعله ابن قيم الجوزية صاحب التبيان في أقسام القرآن .

وما كان ينبغي للكاتبة، وهي التي تتحدث عن الإعجاز وتاريخه أن تفوتها مثل هذه البدهية لما يلي:

أولاً: لا ينكر أحد أن ابن القيم كان ذا قدمٍ راسخة في علم الكلام، فلا يمكن أن يقصده العلوي .

ثانياً: إن كتاب ابن القيم أقسام القرآن ليس كتاباً في موضوع الإعجاز .

---

(١) الطراز (١/ ٣-٤)

ثالثاً: ذكر العلوي في الطراز أن اسم صاحب كتاب التبيان عبد الكريم[1] أو عبدالواحد[2]، وابن القيم اسمه محمد بن أبي بكر، إن صاحب التبيان هذا هو ابن الزملكاني، وهو معروف في بيئة الذين كتبوا عن الإعجاز .

ثم تحدثت عن المعجزة وآيات التحدي، وما نظنها جاءت بجديد، ولكنها لا تدع فرصة تسنح لها إلا وتنال من الباقلاني وترد عليه، وهناك بعض الملحوظات على ماقالته، منها: أنها ذكرت أن أول آيات التحدي كانت في سورة الإسراء، وسورة الإسراء كما نعلم جميعاً كانت متأخرة النزول ؛ لأن الإسراء كما يرى أكثر العلماء كان قبل الهجرة بسنة أو أكثر قليلاً، فلا يعقل - إذن- أن تكون آية الإسراء هي أول آيات التحدي .

وعند حديثها عن وجوه الاعجاز، تنقل آراء السابقين، وتركز على أن أعظم هذا الوجوه، الإعجاز البلاغي، وتبين أنها لا تتعرض للإعجاز العلمي، لأن كثيرين ممن عرضوا لهذا الوجه ليسوا من ذوي الاختصاص .

البلاغيون والإعجاز:

وفي هذا الفصل أسهبت الكاتبة في الحديث عن الذين كتبوا في الإعجاز: الخطابي، والرماني، وعبد الجبار، وعبد القاهر، وكانت لها ملاحظ ومآخذ لانرى ضرورة لذكرها هنا، وقد سجلناها كلها في كتابنا الأم (إعجاز القرآن المجيد عرض ونقد وتجديد) .

وأول الموضوعات التي بدأت بها هذا المبحث فواتح السور، وقد ذكرت أقوال

---

(١) الكتاب هو: التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، وقد طبع في بغداد سنة ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م، بتحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب، ومؤلفه هو: كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١هـ.

(٢) الطراز (٣/ ٣٦٨) والصواب أن مؤلف كتاب التبيان هو عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني. انظر «الأعلام» للزركلي ٤/ ١٧٦.

المفسرين في هذه الحروف، وخلصت إلى ماقرره الزمخشري وكثير من المحققين، وهو أن هذه الحروف قصد بها التحدي، وذلك لأنها كان يذكر بعدها القرآن الكريم مباشرة مثل قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم:١]، ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١]، ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١].

أما الموضوع الثاني الذي تحدثت عنه في كتابها، فهو سر الحروف وابتدأت الحديث عن الزوائد.

١- تنكر الكاتبة الزوائد في كتاب الله تبارك وتعالى، وهي تتحدث عن الباء في خبر (ليس) التي عدها النحويون زائدة.

أحصت الكاتبة مواضع مجيء الباء في خبر ليس فكانت في ثلاثة وعشرين موضعاً، وذكرت بأن مجيئها مطرداً في هذه الآيات، وهذا في مقابل آيات ثلاث جاء فيها خبر ليس غير مقترن بالباء، وهذه الآيات هي آية النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء:٩٤]، وفي هود ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:٨]، وفي الرعد ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [الرعد: ٤٣] وهذه المواضع لم تقترن فيها الباء بخبر ليس ؛ لأن المقام مستغن عن تقرير النفي كما في هود.

أما إذا كان الخبر منفياً بما وليس في الجمل الخبرية واقترن الخبر بالباء، فإن هذه الباء تفيد تقرير النفي بالجحد و الإنكار، وقد يأتي بعد النفي الفعل (كان) وفي هذه لا يقترن الخبر بالباء ؛ وذلك لأن النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد أصالة.

أما الجمل الاستفهامية فيطرد فيها اقتران خبر ليس بالباء، وبها يخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير باتٍ كقولك: «أليس الله بقادر» والإجابة تكون بـ (بلى) وفي هذا إثبات وتقرير لهذا الأمر.. وهو جهد للكاتبة مشكور.

٢- القول بحذف بعض حروف المعاني، وتناوب الحروف بعضها مكان بعض: وتعرض الكاتبة لموضوعين هما من صلب مباحث البيان الأول: قضية حذف بعض حروف المعاني، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] حيث قررت أن لا صحة لما قيل من أن هنا حرفاً محذوفاً والتقدير (وعلى الذين لا يطيقونه) قالت: إن معنى الآية وعلى الذين يطيقونه، أي: يصومونه بصعوبة ومشقة، ونحن معها في إنكار أن يكون في الآية حرف محذوف، ولكننا لسنا معها في التفسير الذي ذهبت إليه ؛ لأنه لا يتفق مع الرحمة والحكمة، ومع يسر التشريع، فلا يعقل أن يقول القرآن للذين يصعب عليهم الصوم، كالشيخ الهرم والمريض مرضاً مزمناً: إذا كان الصوم يصعب عليكم، فإنه يمكنكم أن تخرجوا فدية، ولكن صومكم خير لكم .

وتعرض الكاتبة لإلغاء الحروف ونيابة بعضها مكان بعض، وتمثل لهذا بقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٤٤] وتقول: إن صريح سياق الآية نفي استئذان المؤمنين في الهجرة، وحملها مفسرون على نفي استئذانهم في التخلف والقعود وترك الخروج للجهاد، وترى أن هذا القول يضيع به جلال الموقف ومناط الاعتبار، و أن الآية ينبغي أن تفهم على صريح نصها في نفي استئذان المؤمنين أن يجاهدوا لا أن تختلفوا ويقعدوا، فليس المؤمن بحيث يستأذن في أن يؤدي فريضة الجهاد، كما لا يستأذن في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج[١].

وتمثل للثاني: - أي نيابة بعض الحروف مكان بعض - بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وتقول: كأنهم حسبوا أن العطف بالواو يعطي حاصل الجمع تسع نساء، قالوا: إن الواو فيها نائبة عن

---

(١) الإعجاز البياني ص ١٨٥

أو، وتنقل رد ابن هشام على هؤلاء «ولا يعرف ذلك باللغة، وإنما يقوله بعض ضعاف اللغويين والمفسرين »

وتمثل كذلك بقوله تعالى حديثاً عن المنافقين ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] وتقول «قيل: إن حرف (في) يمكن أن يتأول بحرف من أو اللام، على تقدير: فهم من ريبهم، أو لريبهم يترددون، وتأبى هذا القول، لأنه لا يمكن أن يقوم أحد الحرفين مقام الحرف في النص القرآني، وتبين أن مناط التعبير هنا هذا الانغماس والملابسة الملحوظة في ظرفية (في) [1].

وتمثل كذلك بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وتقول: إنها تستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في الآية، بأنه سهو في الصلاة.

ونحن مع الكاتبة في نفي زيادة بعض الحروف، ونفي إلغائها، ونفي التناوب، ولكننا لسنا معها ولن نكون معها كذلك، إذ تنسب هذا إلى المفسرين، وكنا نتمنى أن تحدثنا عن أولئك المفسرين الذين نسبت إليهم الأقوال، وها هم أئمة التفسير البياني، وها هي الكتب المعتبرة في التفسير، وعلى سبيل المثال، ها هو تفسير روح المعاني لعلامة الرافدين الآلوسي – رحمه الله – وهو آخر التفاسير من حيث التحقيقات البيانية وما يتصل بها، لا نجد فيه شيئاً مما ذكرته الكاتبة.

ولقد ذكر الخطابي في رسالته بسنده أن رجلاً سأل أبا العالية عن قوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥] بحضرة الحسن البصري، فقال أبو العالية: هذا لمن يسهو في صلاته، قال الحسن البصري - رحمه الله -: لا يا أبا العالية إن الله يقول: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم) .

ولقد تحدث المفسرون عن سر استعمال (الواو) في قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:

---

(١) الإعجاز البياني ص ١٨٨

٣] بدل (أو)، أفيجوز للسيدة الكاتبة أن تطلق هذا الكلام إطلاقاً من غير تمحيص، وتقول: يقول المفسرون ؟ وهي تعلم أن كثيرين سينقلون كلامها على أنه من المسلمات.

إن تصيد الأقوال الشاذة، ونسبتها إلى جمهور المفسرين و العلماء لا يقره منطق الأمانة والعلم.

وتنتقل إلى فصل آخر وهو (دلالات الألفاظ وسر الكلمات) تعالج فيه قضية الترادف في العربية، وقد بينت اختلاف العلماء في هذه المسألة فمنهم من يقول بالترادف، ومنهم من ينكره، وظل هذا الخلاف قائماً حتى راج في العصور الأخيرة القول بالترادف، ثم اقترح أحد السادة الأعضاء في المجمع اللغوي في القاهرة أن يصنف معجم الألفاظ العربية يخفف فيه من ثقل المترادفات، والكاتبة بدورها تنكر وجود الترادف في العربية، وقد مثلت لذلك بكلمات وردت في القرآن الكريم. منها:

١- **الرؤيا والحلم**: بينت أن الحلم يأتي في القرآن الكريم ويكون المقصود منه الأضغاث المشوشة، والهواجس كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ [يوسف: ٤٤]، أما الرؤيا فجاءت في الرؤيا الصادقة، واستعملت مفردة دلالة على تميزها ووضوحها وصفائها.

٢- **أنس وأبصر**: الإيناس ليس مجرد الأبصار، ولكنه يزيد عليه بالطمأنينة المؤنسة، وهذا ما يدل عليه السياق في الآيات ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: ١٠] وهو قد أبصرها وأنس بها، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ [النور: ٢٧] ليس مجرد الاستئذان، وإنما هو حِسُّ الإيناسِ لدى أهل البيت.

٣- **النأي والبعد**: النأي هو الإعراض و الصد و الإشاحة نقيض الإقبال ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] أما البعد فهو ضد القرب، ويأتي في

القرآن على الحقيقة والمجاز في البعد المكاني أو الزماني، المادي منها والمعنوي[1] ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وهكذا تبين الكاتبة مشكورة مدلولات الألفاظ، فلكل كلمة في كتاب الله معناها ومدلولها، وهو ملحظ دقيق طيب، لم تكتف الكاتبة فيه بالدراسة النظرية، بل قامت مشكورة بدراسة عملية تطبيقية.

وتنتقل إلى فصل آخر بعنوان (الأساليب وسر التعبير) و تتحدث عن حذف الفاعل: فالأفعال في القرآن الكريم كثيراً ما تأتي مبنية للمجهول، أو مسندة إسناداً مجازياً، ذكرت الكاتبة أن البلاغيين يكتفون بالقول بأن الفاعل قد حذف للعلم به أو الجهل، أو الخوف منه أو عليه، وتبين هي أن الفعل إذا كان مبنياً للمجهول، يكون حذف الفاعل لتركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن المحدث، وأن الإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصلي، ويظهر هذا في مشاهد يوم القيامة مثل ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] فلم يذكر الفاعل هنا وذلك للتركيز على الحدث.

وقد لا يذكر الفاعل ليبين أن الحدث كان تلقائياً، أو على وجه التسخير، كأنه ليس بحاجة لفاعل كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وما ذكرته الكاتبة أشار إليه عبد القاهر - رحمه الله - ثم ذكره مَنْ بعدَه من المفسرين وعلماء البلاغة.

وقد تحدثت بنت الشاطيء كذلك عن القسم بالواو، وخالفت المفسرين فيما ذهبوا إليه، وارتأت أن الواو هنا قد خرجت عن أصل معناها اللغوي وهو القسم للعظم إلى معنى بلاغي هو اللفت إلى حسيات لا تحتمل أن تكون موضوع جدل، وهذا يكون

---

(١) الإعجاز البياني ص ٢٠٣

توطئة لبيان معنويات يهارى فيها، فالقسم بالفجر والصبح والشمس والنهار، يجلو معاني من الهدى والحق والضلال والباطل .

ولسنا معها فيما ذهبت إليه بالطبع، بل نحن مع جمهور المفسرين، ولقد ناقشنا هذا القول ماله وما عليه [1].

وتتحدث الكاتبة عن السجع، وتذكر آراء العلماء السابقين، وهي لا ترى بأساً أن يكون في القرآن سجع، وأن تسمى رؤوس الآيات فواصل، وهو ما ذهب إليه أكثر العلماء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] قالوا: إن المفعول قد حذف مراعاة للفاصلة، ولكنها ترد هذا القول بأن حذف الكاف من (قلى) مع دلالة السياق عليه تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة هي تحاشي خطابه تعالى رسوله في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك ؛ وذلك لما في القلى من الإبعاد وشدة البغض، أما التوديع، فلا شيء فيه، وهو لا يكون إلا بين الأحباب ويكون مع رجاء العودة و أمل اللقاء .

وهذا القول سبقها إليه أئمتنا و إن لم تشر إليهم .

وأخيراً تتحدث الكاتبة عن سر التعبير في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ ، وبعد أن تذكر أقوال العلماء جميعاً و تردها تبين رأيها، فقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ هو قسم من الله تبارك وتعالى، ولا حاجة لله في أن يقسم، لذلك كانت تسبق (لا) النافية كل فعل قسم مسند لله تبارك وتعالى، وذكرت أن هناك فرقاً بعيداً بين أن تكون (لا) لنفي القسم، وبين أن تكون لنفي الحاجة للقسم، ومن نفي الحاجة للقسم يأتي التأكيد والتقرير ؛ لأنه يجعل المقام في غنىً بالثقة و اليقين عن الإقسام، ومثلت لذلك بقولك لصديقك: " لا أوصيك بكذا "

---

(١) المجلة الثقافية / الجامعة الأردنية، العدد السادس، ١٩٨٥، ص ٩٧.

تأكيداً للتوصية بنفي الحاجة إليها .

ولكن إذا كان الله تعالى ليس بحاجة إلى قسم، فكيف يتفق هذا مع قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة: ٧٦- ٧٧] وقد أقسم الله تعالى هنا .

هذه خلاصة موجزة لكتاب الإعجاز البياني لبنت الشاطئ، وقد توسعنا الكلام عنه في بحثنا الذي أشرنا إليه آنفاً، وفي كتابنا (إعجاز القرآن المجيد) .

٥-الشيخ محمد متولي الشعراوي:

عرفه الناس عن طريق الإذاعة والتلفاز، وهو متحدث لَسِنٌ، يشرب حديثه شيئاً من اللهجة المصرية، وهو إذ يتحدث يحسن العرض بأسلوب شيق، لذا أُعجب به كثير من المشاهدين والمستمعين، وتدور أحاديثه أكثرها حول تفسير لبعض آي القرآن الكريم، ولم يخرج الشعراوي كتباً، ولكن أحاديثه للإذاعة التلفاز كانت تسجل ثم تفرغ من الأشرطة على الورق، و يراجعها بعض المعجبين، ويدفعون بها إلى بعض دور النشر، و منها كتاب المعجزة [1] و هو كتاب يتكون من أربعة أجزاء، و ما دام الرجل لم ينقح ما سيرسله إلى المطبعة، فإن من الطبيعي أن يغلب طابع التكرار على ما في هذا الكتاب، حتى إننا لنجد القضية الواحدة تذكر مرات عديدة، هذا من حيث الشكل و القالب .

أما من حيث الموضوع و المضمون، فإن ما تحدث به الشيخ الشعراوي، و نشر فيما بعد فيه كثير من اللفتات، و قد تكون هذه اللفتات بيانية، و قد تكون تاريخية، و قد تكون علمية، تتصل بالكون و الإنسان، و إن المتتبع لما ذكره الشيخ يصل إلى النتائج التالية:

---

(١) ذكر الدكتور صلاح الخالدي أن هذا الكتاب كتبه الشعراوي بقلمه، وكلمة الناشر، لا تتفق مع هذا القول وتشير إلى ما قلناه

١- إن أكثر ما ذكره الشيخ قد ذكره العلماء من قبله، و لكن أسلوب الشيخ و جدة العرض أولاً و عدم صلة أكثر الناس بالتراث ثانياً، و سكوت الشيخ عن مراجعه ثالثاً، هذه الأسباب كلها جعلت الناس يظنون أن ما يأتي به الشيخ جديد .

٢- إن ما ذكره الشيخ من القضايا المعاصرة قد سُبِقَ إليه كذلك .

٣- إن الكتاب الذي سمي إعجاز القرآن، و الذي يتكون من أجزاء أربعة، أحرى به أن يسمى دروساً في التفسير، فإن ناشر الكتاب حاول أن يصنف بعض موضوعاته، ومع ذلك كان التكرار سمة ظاهرة في الكتاب، هي دروس في التفسير، حاول الشيخ و هو يتحدث أن يبين القيم الكثيرة التي تشتمل عليها الآيات، فهو يتحدث مثلاً عن بعض الآيات في بعض السور، و ما يعرض له من خواطر في هذه الآيات: في القصص القرآني، و في آيات التشريع، و في آيات البر، و الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة بطريقته الجذابة و أسلوبه الشيق.

٤- إن كثيراً مما يتحدث به الشيخ قد يظهر فيه التكلف والخروج عن المقبول والمعقول ؛ و لذا وجدنا من الكتاب المسلمين من يناقشه و يرد عليه، و من هؤلاء مثلاً: كتاب بعنوان (أمانة التفسير و فلسفة الإيمان... لا يا فضيلة الشيخ)، و يقصد بالشيخ هنا الشعراوي، مؤلف الكتاب الدكتور علي حسن، و قد قدم لهذا الكتاب، الأستاذ عبدالكريم الخطيب - رحمه الله -، و هو يثني على الكتاب والكاتب [1].

هذه هي أهم الملحوظات على دروس الشيخ الشعراوي التي أُخرجت فيما بعد في كتاب سمي (معجزة القرآن) .

وسأكتفي بنقل نماذج ثلاثة للتدليل على ما قلت، و قد قلت: إن كثيراً مما ذكره الشيخ يظهر في بعضه التكلف، و بعضه قد ذكره أئمتنا و علماؤنا الأقدمون، أما ما ذكره من

(١) سنناقش كل ما ذكره الشيخ في كتابنا (إعجاز القرآن) إن شاء الله.

قضايا التفسير العلمي، فهي مما نبه عليه ذوو الاختصاص في التفسير العلمي .

النموذج الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، يقول: لماذا قال: سيروا في الأرض و لم يقل على الأرض ؟، إن حرف (في) يدل على الظرفية لأن الأرض ظرف المشي والسير، إن الأرض التي أمرتنا الآية بالسير فيها، ليست هي الأرض بمفهومها المادي فقط، أي ليست هي الكرة الأرضية بما فيها من ماء ويابسة، ولكن الأرض هي بغلافها الجوي، فالغلاف الجوي جزء من الأرض يدور معها و يلازمها ومكمل للحياة معها... فما دام الإنسان في الغلاف الجوي فهو في الأرض، وهنا نعرف الحكمة من التعبير بكلمة (في) دون كلمة (على) [1].

وما ذكره الشيخ هنا لا يخلو عن مناقشة، لا لأننا ننكر الغلاف الجوي للأرض، بل لأن المتدبر لآي القرآن الحكيم يجد في تفسير الشيخ تحميلاً للآية فوق ما تحمل .

إن القرآن الكريم استُعمِلت فيه كلمة الأرض كثيراً. وكانت تُستعمل مجرورة بحرف الجر (في) في جميع الآيات القرآنية ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [براءة: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الروم: ٩]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٢٨] واستُعمِلت مجرورة بحرف الجر (على) في قوله سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣] والتي تعنينا هذه الآية الثانية، فلماذا استعمل حرف الجر (في) في الآيات السابقة، و استعمل حرف الجر (على) في هذه الآية، و الغلاف الجوي هو هو ؟

إن حرف (على) يدل على الاستعلاء، و (في) تدل على الظرفية، و الله تبارك وتعالى من رحمته مهد الأرض، و ذللها لنا ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

(١) معجزة القرآن للشعراوي، ص ٤٥.

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وجعلها لنا مستقراً، وجعل لنا فيها متاعاً، جعل منها حياتنا ومماتنا ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة، يمكننا أن ندرك السر الذي استعملت من أجله كلمة (في)، فقد هيأ الله لنا هذه الأرض نسير فيها دون تكلف، ونمشي فيها دون عناء، ظاهرها لنا أحياء، و باطنها لنا أمواتاً ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٧].

فكلمة (في) تفيد هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم: " إياكم والجلوس في الطرقات "[١]، وكلمة (على) لا تعطي هذا المعنى، لا تعطي معنى التذليل والتسهيل والتسخير، بل (على) تعطي شيئاً غير هذا، تقول: سرت على السطح و على الجبل، و الوصول إليهما لا بد له من جهد و عناء، ثم لماذا استعملت كلمة (على) في قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ؟

إن لذلك سراً بيانياً عجيباً، إن عباد الرحمن أكرمهم الله بالعزة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فهم الأعلون دائماً، و هذه هي الآية الوحيدة التي استعملت فيها كلمة (على) فهم يشعرون بهذا العلو الذي ميزهم الله به، ولكنه علو ليس فيه فساد، إنما هو علوّ فيه شكر لله وتواضع له، و هذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهكذا يبرز السر البياني لكل من الحرفين، و لقد ناقشنا الشيخ الشعراوي في مواضع من كتابه في غير هذا الكتاب .

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

النموذج الثاني قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، فقد زيدت اللام في آية الشورى، و السر في ذلك أن المصائب التي تصيب الإنسان نوعان: الأول: مصائب ليس فيها غريم مثل المرض و الجوع، والألم، و هذا النوع هين لا يملك الإنسان رده، و الصبر عليه لا يحتاج إلى طاقة كبيرة وهذا النوع الذي أشارت إليه الآية ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

والثاني: مصائب يوقعها بالإنسان شخص آخر، غريم له، وله رغبة نفسية في الانتقام منه، ورد اعتدائه و الصبر على هذا النوع يحتاج إلى طاقة كبيرة، لأنه يضبط فيه نفسه وانفعاله، و هذا النوع الذي أشارت له الآية ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣][1] .

هذا ما ذكره الشيخ، ولنستمع إلى ما قاله أحد علماء القرن الخامس الهجري صاحب درة التنزيل:

للسائل أن يسأل عما اقتضى توكيد الخبر باللام في سورة (حم عسق)، في قوله ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] و تركه في سورة لقمان ؟

والجواب أن يقال: إن ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه، ويهب له من القصاص حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله، إلا أن الله تعالى حَسَّنَه بما وعد من عفا عما يجب له من الأجر الذي ضمنه، ففيه مع جزيل الثواب إصلاح ما بين عشيرته وعشيرة الجاني عليه بإطفاء النائرة عنهما وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب من توكيد الكلام فيه ما لا يجب في غيره فأدخلت اللام على ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] على معنى أنه من الأمور التي

---

(١) المعجزة، ص ٤٧.

تحتاج إلى توطين النفس عليها و تخير أرفعها و أعلاها، وليس كذلك ما في سورة لقمان، لأنه قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وليس يختص صبراً على ظلم يلحقه فيرغب بالعفو عن الظالم، بل تكون شدائد لا يهيج النفوس الانتصار فيها ولاتدعو دواعٍ إلى الانتقام لها من الرزايا في الأنفس و الأموال». [1]

النموذج الثالث ومن أمثلة الإعجاز العلمي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، فهذه الآية تتضمن حقيقة علمية لم تكتشف إلا حديثاً، إن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة، و هذه الأعصاب هي التي تشعر بالألم و تجعل الإنسان يحس به بواسطة الجهاز العصبي.... إلى الخ[2]

وهذا التفسير لا نكاد نجد كتاباً في التفسير العلمي، مما كتب قبل الشيخ، أقول: لا نجد كتاباً إلا و يذكر فيها هذا التفسير، و أرجو أن لا يفهم أحد، أني أغض من قيمة ما كتبه الشيخ، فنحن إن شاء الله لسنا من الذين يبخسون الناس أشياءهم وينقصونهم حقوقهم، معاذ الله، فكتاب الشيخ مليء بالفوائد، لكن الذي كنا نوده أن ينبه الشيخ على ما سطره أئمتنا الأوائل، و أن يعترف لهم بالفضل، و أن لا ينقل كلامهم دون التنويه بشأنهم.

٦-موريس بوكاي:

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

كتب الطبيب الفرنسي موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) وقد هدف من كتابه هذا دراسة الكتب المقدسة: التوراة، والإنجيل، والقرآن

---

(١) درة التنزيل المنسوب للخطيب الإسكافي / ص ٤٢٧.

(٢) ص ١٠٣.

الكريم، ليرى مدى توافق معطيات كل كتاب مع معطيات العلم الحديث.

بدأ بدراسة التوراة أولاً، فوجد أن أسفار التوراة جميعها تتناقض مع العلم الحديث، وأكثر هذه المتناقضات في سفر التكوين في قضايا ثلاث جوهرية، وهي:

١- خلق العالم ومراحله.

٢- تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣- رواية الطوفان.

وكذلك في حديثه عن الإنجيل، وجد التناقضات الصريحة بين روايات الأناجيل نفسها، في نسب المسيح عليه الصلاة والسلام، وفي رواية الآلام، وظهور المسيح بعد قيامته، وصعود المسيح وغيرها من القضايا، وخلص إلى أن الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده، وهي أمور غير معقولة لا تتوافق مع معطيات العلم الحديث.

وانتقل للحديث عن القرآن الكريم، فذكر أن القرآن الكريم لم يعتره أي تحريف أو تغيير أو ضياع، ويدل لذلك: الأمانة والدقة التي توخيت في جمع القرآن الكريم، وكتابته، وبين أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من تأليف النبي ﷺ، لأن للنبي ﷺ أسلوباً آخر عرفت به (الأحاديث النبوية) وهي تختلف كثيراً عن القرآن الكريم، ولا يعقل أن يكون لشخص واحد أكثر من أسلوب في التعبير، ثم إنه لا يمكن لإنسان – كان في بداية أمره أمياً – ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة[1].

---

(١) دراسة الكتب المقدسة / ص ١٥٠

وفيما يلي عرض لجملة من القضايا التي تعرض لها بوكاي في كتابه دراسة الكتب المقدسة:

أولاً: قضية خلق السموات والأرض:

١- ثم ذكر بعد ذلك نقاط الاختلاف والتجانس بين رواية التوراة ورواية القرآن في قضيةالخلق، فالتوراة تذكر أن السماوات والأرض خلقتا في ستة أيام وتبعها يوم الراحة يوم السبت، ويوم في مفهوم التوراة المسافة الزمنية بين إشراقتين متتاليين للشمس أو غروبين متواليين، والقرآن كذلك يذكر أن السماوات والأرض خلقتا في ستة أيام، واليوم في اللغة له أكثر من معنى:

أ- إنه الساعات الأربع والعشرين بين شروقين أو بين غروبين.

ب- النهار حين تظهر الشمس.

ج- المدة من الزمن، وهذا ما اختاره الكاتب في تفسير اليوم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

٢- يذكر أن القرآن لا يحدد ترتيباً في خلق السماوات والأرض، ففي آية تقدم (الأرض) وفي أخرى تقدم السماوات، والواو لا تفيد ترتيباً، ولكن هناك سورة واحدة حددت هذا الترتيب وهي سورة النازعات ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠].

٣- وتحدث عن عملية تشكل الكون، وانتهائها إلى تكوين العالم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٤- ويرى أن رقم (٧) في قوله ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] رمزي يراد به

العدد الكثير، كما عرف عند اليونان والرومان، فهذا الرقم يرمز إلى التعدد دون تحديد، ولا نستطيع أن نوافق الكاتب على هذا الرأي، فإن هذا العدد ذكر كثيراً في كتاب الله، وتأكيد القرآن ذكر هذا العدد في آيات كثيرة دليل قاطع على أن هذا العدد مقصود لذاته، وأن السماوات سبع، كما قال تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وكما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الملك: ٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، فهذه الآيات وغيرها تدل دلالة بيّنة على أن للعدد مفهوماً، فهذه الآيات الكريمة قطعية الدلالة على تحديد هذا العدد تحديداً منضبطاً.

٥- وذكر أن مما يثير دهشة القارئ تلك الآيات التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات:

أ- تلك التي توجد في السماء.

ب- تلك التي توجد على الأرض.

ج- تلك التي توجد بين السماوات والأرض.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه: ٦]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨] وهذه الآية ترد على اليهود الذين ادّعوا أن الله تعالى تعب في اليوم السادس فاستراح في اليوم السابع.

وينتهي المؤلف من عرض آيات الخلق إلى نقاط استنتجها:

١- وجود ست مراحل للخلق عموماً.

٢- تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.

٣- خلق الكون من كومة أولية فريدة كانت مجتمعة فتفصلت.

٤- تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.

٥- وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض(١).

ثانياً: قضية الفلك:

وينتقل المؤلف للكلام على علم الفلك، ويذكر أن القرآن الكريم احتوى أكثر من أربعين آية تتحدث عن علم الفلك، وما جاء فيه يُعَدّ حدثاً جديداً في التنزيل الإلهي، فلا الإنجيل ولا التوراة عالجا ترتيب الكون، ويذكر أن القرآن الكريم لا يذكر النظريات التي كانت سائدة في عصر التنزيل من تنظيم العالم.

ويعرض الكاتب هذه الآيات المتحدثة عن الفلك، ويبين أنها متوافقة مع ما توصل إليه العلم الحديث، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وهذه الآية تشير إلى قضية الجاذبية، فمن المعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طردياً مع الكتل نفسها يشكل أساس توازنها، فكلما تباعدت الأجرام وهنت قوة جذب كل منها للآخر، والتقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدي لا محالة إلى إصدامهما.

ومن ذلك وصفه الشمس بالسراج، والقمر بالنور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]. فالشمس هي مصدر الإشعاع ولذا وصفت بالسراج، والقمر مظلم يتلقى الضوء ويعكسه نوراً .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة / ص ١٦٦

ثالثاً: الأرض وما يتصل بها:

فتحدث عن دورة الماء والبحار كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وتحدث عن البحار، وعن الثروات المستخرجة منها: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

وتحدث كذلك عن تضاريس الأرض وتشكل الجبال ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

رابعاً: وأخيراً تناول بالبحث حديث القرآن عن النبات والحيوان.

فتحدث عن تنوع المأكل وتناسل النبات، ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠]، وتناسل الحيوان ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]، ويشير إلى حديث القرآن عن مجموعة من الحيوانات (النحل، العنكبوت، الطيور) وهي تشكل أمثلة غاية في الجمال عن النظام الراقي، إلى غير ذلك من القضايا التي ذكرها القرآن الكريم.

وأخيراً انتقل الكاتب إلى المقارنة بين روايات التوراة وروايات القرآن في بعض القضايا التاريخية، كالطوفان، وخروج موسى من مصر، ووجد أن هناك اختلافات بين هذه الروايات، ولكن روايات التوراة متناقضة فيما بينها، وهي مثيرة للنقد الموضوعي، أما رواية القرآن فهي خالية من أي عنصر مثير للنقد.

خامساً: الطوفان:

ذكرت التوراة روايتين حررتا في عصور مختلفة، الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن

التاسع قبل الميلاد، والرواية الكهنوتية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وينقل الكاتب عن الأب ديفو أن هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث، فبين النصين توجد تناقضات صارخة، فهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التي أدت إلى الطوفان، كما يختلف زمن وقوعه، ويختلف عدد الحيوانات التي شحنها نوح بالسفينة.

وعليه فإن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة لسببين: الأول: أن العهد القديم يعطي طابعاً عالمياً للطوفان، والثاني: أن الرواية الكهنوتية وحدها تحدد زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع فيه كارثة من هذا النوع، وزمن الطوفان كما بينت في القرن (٢١) أو (٢٢ ق.م)، وفي هذا العصر ازدهرت حضارات كثيرة وخاصة في مصر، وليس لدينا ما يدل على حدوث الطوفان في هذا الزمن.

أما القرآن الكريم فقد عرض للعقاب الذي وقع على قوم نوح عليه الصلاة والسلام في سورة هود، ونوح، والشعراء، وسورة هود تحدثت عن الطوفان، والقرآن حينما يتحدث عن كارثة الطوفان، يتحدث عنها باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح، ولكن التوراة كما ذكرنا تجعله عقاباً عالمياً، وهذا الفرق الأول بينهما، أما الفرق الثاني فإن القرآن لا يحدد زمن الطوفان.

أما الفرق الثالث فإن القرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح، ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، أما التوراة فإن بين رواياتها تناقض صريحاً، فالرواية الكهنوتية تذكر نوحاً وأسرته دون استثناء وزوجاً من كل نوع، والرواية اليهودية، تميز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور، وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى، فالسفينة تحتوي على سبعة أزواج من الطاهرة، وزوج واحد فقط من النجسه، وهناك رواية ثالثة تذكر أنه حمل

زوجاً من كل نوع طاهر ونجس، وهذه الاختلافات لا نجدها في سور القرآن (هود، والمؤمنون).

وعلى ذلك فإن رواية التوراة لا تتفق مع مكتسبات المعرفة الحديثة، أما رواية القرآن فهي خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي.

سادساً: الخروج من مصر:

تحدثت التوراة عن خروج اليهود من مصر، وهي تتشابه في خطوطها العريضة مع معطيات القرآن، فالتوراة لا تذكر اسم فرعون مصر وقت ولادة موسى عليه السلام وكذلك القرآن الكريم، إلا أن القرآن يذكر اسم أحد أعضاء مجلسه وهو هامان في أكثر من موضع.

وتتحدث التوراة عن العقاب الذي أنزله الله على مصر، وهي تحول مياه النهر إلى دم، وغزو الضفادع والناموس، وموت القطعان، وظهور الأورام على الجلود، والجراد، وموت المواليد، تتحدث عنها بشكل مفصل أما القرآن فإنه يذكرها بإيجاز موجز ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وتذكر التوراة عدداً ضخماً لجماعة موسى عليه السلام التي خرجت معه هاربة من فرعون، وهذا مالا يشير إليه القرآن الكريم، ثم ينفرد القرآن بالحديث عن جثة فرعون ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢].

ويذكر الكاتب أن علماء الآثار حاولوا معرفة اسم فرعون الذي كان في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فتوصل بعضهم إلى أنه رمسيس الثاني، وآخرون إلى أنه تحتمس الثاني، وغيرهم إلى أنه منبتاح ابن رمسيس، ويرجح الكاتب أن موسى عليه الصلاة والسلام، قد عاصر رمسيس الثاني ومنبتاح، إذ إن معطيات التوراة الخاصة بعصر موسى

لا يمكن أن تدخل إلا في إطار تعاقب حكمي رمسيس الثاني ومنبتاح، وكل شيء يسمح بالتفكير بأن موسى عليه السلام قد ولد في بداية حكم رمسيس الثاني، وكان ما زال موجوداً في مدين عندما مات بعد سبعة وستين عاماً من الحكم، ثم أصبح بعد ذلك المدافع عن العبريين في مصر أمام منبتاح ابن رمسيس الثاني، وعليه فإن رمسيس هو فرعون الاضطهاد، ومنبتاح هو الفرعون الغريق.

وموت فرعون عند الخروج يشكل نقطة شديدة الأهمية في روايات القرآن والتوراة، ولكن الأمر الغريب أن الكتّاب المسيحيين يسكتون عن حادثة موت فرعون، وروايات التوراة تذكر أن فرعون غرق هو ومن معه ولم يبق منهم أحد ولم تشر إلى جثة فرعون، ولكن بعض الكتّاب حاول التقريب – على رأيه – بين القرآن والتوراة فقال: "يشير القرآن إليه – أي موت فرعون – وعلى حسب التراث الشعبي فإن فرعون قد ابتلع بجيشه – وهذا ما لا يقوله النص المقدس – وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أي عجول البحر "(1).

وهذا الذي ذكره خرافات وأوهام فإن القرآن الكريم ورد فيه ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩١-٩٢] وقد اكتشفت الجثة في القرن التاسع عشر، وهي تقبع في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة.

هذه خلاصة موجزة لما جاء في كتاب موريس بوكاي، وقد رأينا الكاتب يعتمد في كتابه الطريقة العلمية الموضوعية، فهو يهدف مما كتبه الوصول إلى الحقيقة دون تعصب أو تحيز، ولا بد أن نشير هنا إلى أنه يقال: إن الكاتب لما بدأ كتابه لم يكن مسلماً، ولكنه بعد الوصول إلى تلك النتائج وهي دقة القرآن الكريم في معطياته وعدم تناقضها فيما بينها

---

(١) دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٦٨.

أولاً، وفيما بينها وبين معطيات العلم الحديث ثانياً أعلن إسلامه(١).

---

(١) قرأت قصة إسلام الدكتور موريس بوكاي على صفحة الإنترنت، وفيها بيان لعظمة هذا الدين، وصدق الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ولا بأس من أن أثبت هنا ما جاء في قصة إسلامه.

ولد من أبوين فرنسيين في ١٩ تموز (يوليو) عام (١٩٢٠)، وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية، ولما أنهى تعليمه الثانوي التحق بكلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

ولمهارته في الجراحة حدثت معه قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه، فقد اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتماماً بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١ طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات.. وفحوصات أثرية ومعالجة المومياء وترميمها.

ونقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر.. وهناك وعلى أرض المطار وقف الرئيس الفرنسي منحنياً هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه ما زال حياً..! وكأنه إلى الآن يصرخ في أهل مصر﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤].

وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا حملت مومياء الطاغوت بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين في ترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس بوكاي) مختلفاً عنهم للغاية، كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فوراً، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه.

لكن ثمة أمراً غريباً ما زال يحيره وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها مع أنها استخرجت من البحر..! كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائياً عما كان يعتقده اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بعد تطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق، فازداد ذهولاً وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا؟ وهذه=

=المومياء لم تُكتشف أصلاً إلا في عام ١٨٩٨ ميلادية، أي قبل مائتي عام تقريباً بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟

وكيف يستقيم في العقل هذا، والبشرية جمعاء –وليس العرب وحدهم- لم يكونوا يعلمون شيئاً عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط.

جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقاً بجثمان فرعون، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه في أذنه من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق.. بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه: أيعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟

وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا الأمر قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟

لم يستطع (موريس) أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله: (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد).. وبقي موريس بوكاي حائراً.

حتى الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه... وأعادت فرنسا لمصر المومياء في تابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون، ولكن موريس لم يهنأ له قرار ولم يهدأ له بال، منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة، فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر طبي يحضره جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق... فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢]

لقد كان وقع الآية عليه شديداً، ورجت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن).

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجاً، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم... دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).. فماذا فعل هذا الكتاب؟؟

من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات، ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأوردوية والكجوراتية والألمانية، وانتشر في كل مكتبات الشرق والغرب.

وتوفي موريس بوكاي في باريس يوم ١٧ شباط (فبراير) عام ١٩٩٨م.

قصة يوسف عليه السلام بين القرآن والتوراة:

وما دمنا بصدد الحديث عن مقارنة روايات القرآن الكريم بروايات التوراة والإنجيل، فمن المفيد أن ننقل هنا بعض ما ذكره الأستاذ مالك بن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية " عند دراسته لسورة يوسف عليه الصلاة والسلام، وقارن بين ما جاء بالقرآن الكريم وبين ما جاء في التوراة من قضايا تتعلق بالقصة، وَبيَّن أن هناك اختلافات بين الروايتين، يقول:

" إن سُدَى التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميّز كلتيهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما علم باختفاء يوسف عليه السلام، كما تتجلَّى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه، وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمتها طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها.

وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه أم مع السجان، فهو يتحدث حديث نبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها.

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية – الوثنية بالطبع – بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث كموحد، وفي القسم الخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة، فعبارة التوراة هي: (فابتلعت السنابلَ الجياد) أما الرواية القرآنية تعقبها فحسب.

والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة (الوضع التاريخي) للفقرة التي نناقشها، فمثلاً فقرة (لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين) يمكننا التأكد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن، التي أصابت بني إسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف عليه السلام.

وفي رواية التوراة يركب إخوة يوسف في سفرهم "حميراً" بدلاًمن " العير " في رواية القرآن، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل رعاة الأغنام والمواشي.

وأخيراً فإن (حل) عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة – التي آثرنا حذفها كيما نتجنب الإطالة المملّة – على تفاصيل ماديّة عن استقرار العبرانيين في مصر.

أما في القرآن فإن هذا الحل يدورحول الطابع المميز للشخصية المحورية، يوسف عليه السلام الذي يختم هذا الختام المنتصر ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠-١٠١][١][٢].

نكتفي بما ذكرناه من جهود السابقين في القديم والحديث وما كتبوه في إعجاز القرآن.

---

(١) يراجع في هذا الموضوع كتابنا قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، نقد وردّ.

(٢) الظاهرة القرآنية / مالك بن نبي، ص ٢٩٢ – ٢٩٤.

الباب الثاني

وجوه الإعجاز

الباب الثاني

وجوه الإعجاز

عرفنا من قبل عندما حدثناك عن وجوه الإعجاز أن العلماء ذهبوا أكثر من مذهب، فرأى بعضهم أن القرآن معجزة لغوية بيانية فحسب، وذهب آخرون – وهم الأكثرون – إلى أن القرآن معجز من أكثر من وجه، وهذا هو الذي اخترناه وأقمنا عليه الأدلة والبراهين.

ويقيننا أن القرآن معجز بكل ما تتسع له كلمة الإعجاز، وبكل ما يشتمل عليه القرآن الكريم من مجالات متعددة، ولكننا مع ذلك نرى أنه لا بد من تحديد أوجه الإعجاز الحَرِيَّة بأن يتحدث عنها المتحدثون، حيث أسهب بعض الكاتبين، وهم يتحدثون عن هذه الوجوه، فأوصلها بعضهم إلى نيف وثلاثين وجهاً[1]، ولكن عند التحقيق نجد أن أكثرها لا يستحق أن يذكر وجهاً خاصاً على حدة، ومن الوجوه التي ذكروها:

١ - الإعجاز بالنظم.

٢ - الإعجاز بالأسلوب.

٣ - الإعجاز بعدم التناقض.

٤ - أخبار الماضي.

٥ -أخبار المستقبل.

٦ -الإعجاز التاريخي.

---

(١) انظر كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي.

٧- الإعجاز الأخلاقي.

٨- الإعجاز النفسي.

٩- الإعجاز الروحي.

١٠- الإعجازالتشريعي.

١١- الإعجاز العلمي.

١٢- الإعجاز العددي.

١٣- الإعجاز التربوي.

إلى غير ذلك مما عددوه، ولكننا بعد روي وإجالة فكر، نجد أن كثيراً من هذه الأوجه يندرج مع غيره، فالإعجاز الخلقي والتربوي يمكن أن يندرج في الإعجاز التشريعي، كذلك الإعجاز النفسي والروحي، والأسلوب والنظم نستطيع أن نجعله كله في باب واحد وهو الإعجاز البياني، وسيأتيك نبؤه بعد حين.

وعلى هذا فالأوجه التي سنحدثك عنها أربعة:

١- الإعجاز البياني.

٢- الإعجاز العلمي.

٣- الإعجاز التشريعي.

٤- أنباء السابقين وأخبار المستقبل.

وسنشير في أثناء هذه الوجوه إلى الإعجاز النفسي والروحي، ونحدثك عن رأينا في الإعجاز العددي كذلك، والله من وراء القصد.

الفصل الأول

الإعجاز البياني

ونتحدث فيه عن:

أهمية الإعجاز البياني.

الكلمة القرآنية:

- أهميتها، وقيمة الكلمة في العصور السابقة.
- خصائص المفردات القرآنية – القيم التي تعطيها الكلمة القرآنية.

أولاً: دعوى الترادف في كتاب الله.

- لا ترادف في كتاب الله.
- كلمات يظن أنها مترادفة وهي ليست كذلك.

ثانياً: استعمال الألفاظ المختلفة في مواضع متشابهة من القرآن وأمثلة لذلك.

ثالثاً: رسالة الحرف في كتاب الله تعالى.

- استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة وأمثلة لذلك.

رابعاً: الجملة القرآنية، ونتحدث فيه:

أ- التأكيد في آيات من القرآن وتركه في أخرى.

ب- حذف كلمات في آيات وذكرها في أخرى.

ج- تقديم كلمات في آيات وتأخيرها في أخرى.

خامساً: الإعجاز في الفاصلة القرآنية وأمثلة لذلك.

سادساً: قضية التكرار في كتاب الله ومناقشتها بذكر أمثلة من الكتاب العزيز.

سابعاً: دعوى الزيادة في كتاب الله.

الفصل الأول

الإعجاز البياني

أهمية الإعجاز البياني:

إن أعظم وجوه إعجاز القرآن الإعجاز البياني، لأنه ينتظم القرآن الكريم كله، سوره على اختلافها طولاً وقصراً، أما الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فأنباء الغيب مثلاً ليست موجودة في كل آية من القرآن، وكذلك الإعجاز العلمي والتشريعي، ومن هنا كان الإعجاز البياني أهم هذه الوجوه وأعمّها، بل هو أتمها، لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه سورة على قصرها، بل هو في كل آية – تكون على مقدار السورة القصيرة – وليس كذلك الوجوه الأخر. وإذا كان الإعجاز البياني إنما يرجع في لبه وجوهره إلى النظم، وإذا كان القرآن الكريم كتاب الإنسانية جميعها، عربها وعجمها منذ أنزله الله ما دامت الحياة والأحياء، إذا كان كذلك فليس من المنطقي أن يكون هذا النظم خاصاً بالعرب وحدهم، وإنما غلط من غلط في هذه القضية، لأنهم ظنوا أن الإعجاز البياني إنما هو حديث عن الصورة التي تمتع العواطف، وتلذها النفس، وترهف الحس، الصورة التي تقوم على الاستعارة والكناية والتشبيه، وهذه تختلف عند كل قوم باختلاف بيئتهم، ولكن النظم ليس كما حسبوه، وإنما نعني بالإعجاز البياني الذي يقوم على النظم: ذلكم الترتيب الذي كان لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، وتلك قضية كان يدركها العربي عند نزول القرآن بذوقه وسليقته، أما العرب اليوم فإنما يدركونها بالفكرة لا بالفطرة بعد أن تفسر لهم وتبين لهم دقائقها وهم وغيرهم في ذلك سواء.

فإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النساء: ٥]، اختيرت فيه كلمة (في) على كلمة (منه) لأمر اقتصادي، وهو أن رزق أولئك ينبغي أن يكون مما تنتجه الأموال، لا من أساسه ورأسه، فإن غير العربي يمكن أن يعرف هذا حين تفسر له معاني القرآن.

وإذا أدرك العربي أن قوله سبحانه: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤]، استعملت فيه كلمة الإغراء دون الإلقاء لتدل على الإلصاق والدوام، فإن هذا يمكن أن يدركه غير العربي حينما يفسر له، ولا أدل على ذلك من وضعنا نحن اليوم، فنحن مع كوننا عرباً، ولكن بعدنا عن العربية سليقة، يجعلنا لا ندرك هذه الدقائق ولا نتذوق معانيها إلا إذا فسرت لنا، فنحن العرب وغيرنا سواء.

إن المحققين من العلماء ذهبوا إلى أن الاستعارة والتشبيه وأنوع البديع ليست من جوهر الإعجاز القرآني، ولكن النظم وحده هو جوهر هذا الإعجاز، والنظم كما بينا له جانبان اثنان: فكري ونفسي، لذا فإن القول بأن الإعجاز البياني خاص بالعرب وحدهم – مع أنه يكاد يكون من المسلمات- بحاجة إلى إعادة نظر، ولم أجد من نَبَّه على هذه القضية من قبل.

ولما كانت الكلمة هي أساس النظم فسنبدأ الحديث عن هذه الكلمة مستمدين العون من الله.

الكلمة القرآنية:

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم، وبين ما تنقبض منه نفوسهم، بالطريقة التي يتبعها الكاتب، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه الذي يخرجه للناس، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة، فإن الذي يهمنا هنا من هذه الدعائم أولاها وأولاها بالتقدير، ونعني بها الأصالة، وأول لبنة في هذه الأصالة الكلمة،

ذلك أن اللفظة الجيدة تدل على المعنى المراد، ووقوعها في المكان المناسب.

والكلمة أصل الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى، والصدق في الدلالة، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلت على المعنى كله، فإذا حشرت حشراً، أو قسرت قسراً، دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيره.

وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة، والنظام المطلوب، تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة.

" وللكلمات أرواح " كما قال (موباسان)، فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها، ولا عوض منها، ثم وضعتها في الموضع الذي أُعد لها، وهندس عليها، ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة، وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبعية والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف[1].

قيمة الكلمة في العصور السابقة:

لا عجب إذن أن نجد العرب في عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمة والبحث عنها وانتقائها مجندين لها ما منحوه من طاقات العقل، ودفقات الشعور، وجميل الأحاسيس، فلقد كانوا في جاهليتهم، يدركون ما للكلمة من شأن، أو ما تحدثه من أثر سلبي، فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق.

سمع طرفه بن العبد بيت المسيب بن علس:

وقد أتناسى الهَمَّ عند احتِضاره ... بنـــاجٍ عليه الصَّيعريَّةُ مُكْدَمِ

---

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات، مقدمة دفاع عن البلاغة، مطبعة النهضة ١٩٦٧م.

فقال: استنوق الجمل، لأن الصيعرية: سمة في عنق الناقة لا البعير[1].

ومن ذلك ما يروي عن حسان حينما أنشد:

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى وأســـيافُنا يَقطُرنَ من نجدةٍ دماً

فقيل له: لو قلت: (يسطعن في الدجى)، ولو قلت: (يجرين)، لكان أولى[2].

فإذا تجاوزنا العصر الجاهلي وجدنا ذلك واضحاً في العصر الإسلامي من ذلك: ما روي عن أفصح العرب وأبلغهم سيدنا محمد ﷺ وهو يوجه معلماً، مبيناً لأصحابه – رضوان الله عليهم – ولمن بعدهم مكانة الكلمة وأصالتها: (لا يقل أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَت) [3].

وكذلك ما روي عنه ﷺ، وهو يعلِّم أحد صحابته، البراء بن عازب – رضي الله عنه- أن يقول: (آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت) فقال البراء: (ورسولك الذي أرسلت) فقال ﷺ: (ونبيك الذي أرسلت) [4] . وما روي عن سيدنا عمر في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١]، " ولو شاء الله لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: كنتم في خاصة أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر "[5].

---

(١) البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، و د. حسن البصير، ص ١١.

(٢) تاريخ آداب العرب، للأستاذ مصطفى الرافعي، الطبعة الثانية (١٣٧٣ هـ – ١٩٥٣ م)

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٨/ ٥١)، كتاب الأدب، باب : لا يقل خبثت نفسي عن عائشة – رضي الله عنها – وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦٥) كتاب الألفاظ، باب كراهة قول الإنسان : خبثت نفسي ورقمه (٢٢٥٠). واللقيسُ: شَرِه النفسِ، الحريص على كل شيء. انظر «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحة (٨/ ٨٤-٨٥) كتاب الدعوات، باب : إذا بات طاهراً، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٨٠١)، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١٠).

(٥) محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر (٢٢٤-٣١٠هـ-٨٣٩-٩٢٣م) جامع البيان في تفسير القرآن (٤ / ٢٩)

وفي العصر العباسي، كان للكلمة منزلتها كذلك، ومما يروى في ذلك: أن رجلاً أنشد ابن هرمة بيته:

بالله ربكَ إن دخلتَ فقلْ لها   هــــذا ابن هرمةَ قائماً بالباب

فقال للرجل: ما كذا قلتُ، أكنتُ أَتَصَدَّق (أسأل) قال: فماذا ؟ قال ابن هرمة: واقفاً ثم قال: ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[1].

والمتتبع لآداب العرب، ومساجلاتهم في أسواقهم يجد كثيراً من ذلك، والحق أن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات الممجوجة، وجميل أن أنقل هنا كلمة ابن الأثير، قال:

" ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغصن) ولفظة (العسلوج) وبين لفظة (المدامة) ولفظة (الإسفنط) وبين لفظة (السيف) ولفظة (الخنشليل) وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفدوكس)، فلا ينبغي أن يخاطب، ولا يجاب بجواب، بل يترك وشأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله، ولو ألقى الجعر[2] في رحله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة، وشفة غليظة كأنها كلوة، وشعر قطط كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة، ذات خد أسيل وطرف كحيل، وجسم كأنما نظم من أقاح، وطرة كأنها ليل على الصباح[3].

---

(١) الدكتور شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦.

(٢) الجعر : هو الشيء المستقذر

(٣) المثل السائر لابن الأثير طبعة البابي الحلبي سنة ١٩٣٩ م، ج١، ص ١٤٩.
والطرة : الناصية، وطرة كل شيء طرفه. الصحاح (مادة طرر).

خصائص المفردات القرآنية:

وإذا كان هذا في كلام الناس، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً، يقول الإمام ابن عطية – رحمه الله تعالى:

" وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب – يومئذ – في سلامة الذوق، وجودة القريحة[1]".

وما قاله ابن عطية، كلام حري بالتقدير، جدير بالدراسة، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات، جمال وقعها، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

فالمفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتقاة، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر في المعاجم اللغوية نجدها زاخرة بالألفاظ الكثيرة، ولكل مادة اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه.

قال الراغب: فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة [2]".

---

(١) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق للحمصي، ص ٩٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٦ المقدمة.

القيم التي تعطيها الكلمة القرآنية:

إن اختيار الكلمة القرآنية مع ما لها من قيمة بيانية، نجد فيها قيماً كثيرة قد تكون اقتصادية كما مَرَّ معك في قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥] وقد تكون تاريخية كما في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤] كما ستعرف فيما بعد، وقد تكون علمية، وذلك كما نرى في قوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢] وفي آية أخرى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٢].

ألا ترى أن القرآن استعمل كلمتين اثنتين، فبجانب النجوم ذكر الانكدار، وبجانب الكواكب ذكر الانتثار، ولما كانت النجوم مضيئة كانت الكلمة التي تلائمها وتناسبها، ما ذكره القرآن الكريم (الانكدار)، ولما كانت الكواكب ليست كالنجوم، وإنما هي أجسام صلبة غير مضيئة بذاتها، كانت الكلمة التي تناسبها (الانتثار) لأنها تتحطم أجزاؤها وتتناثر.

وتدبر هاتين الكلمتين المتشابهتين، وهما كلمة بناء وبنيان، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، أما كلمة بناء فقد جاءت في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:٢٢] فانظروا أرشدكم الله إلى سر التعبير القرآني، كلمة (بنيان) جاءت فيما يعرفه الناس، فهم يبنون بيوتهم بطرق معلومة لهم من وضع الحجارة أو اللبنات بعضها فوق بعض.

لكن كلمة البناء جاءت حديثاً عن السماء، ولاريب بأن تغاير الكلمتين في كتاب الله، فضلاً عما له من قيمة بيانية يعطينا قيمة علمية كذلك، فبنيان الأرض له قواعده وأسسه، أما الأجرام السماوية، فتختلف اختلافاً تاماً عما عهده الناس في الأرض،فبناؤها ليس باللبنات، ولا الحجارة، ولكن يُشَدّ بعضُها إلى بعض بما أودعه الله في هذا الكون من

قوانين الجاذبية وغيرها .

التغاير بين الكلمتين له دلالاته العظيمة:

وهكذا يمكن أن تكون القيمة البيانية أساساً لقيم كثيرة،وهذا يؤيد ما قلته من قبل، وهو أن الإعجاز البياني، هو أعظم وأهم وأعم وجوه الإعجاز، لا لأنه ينتظم القرآن كله فحسب، بل لأنه ينشأ عنه كذلك قيم كثيرة متعددة، قيم إنسانية في التاريخ والتشريع والتشريح، وقيم كونية، قيم في شتى مجالات الحياة المتعددة.

من هنا كانت كلمات القرآن الكريم مقدرة خير تقدير،معبرة أصح تعبير وأصدقه، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر، وتقديمها في موضع دون آخر،وذكرها في موضع دون آخر، كل ذلك إعجاز كما سنطلعك عليه إن شاء الله.

أولاً: دعوى الترادف في القرآن:

ولنبدأَ الحديث أولاً بقضية شغلت العلماء قديماً وحديثاً، وهي قضية الترادف، والترادف هو تعدد الألفاظ بمعنى واحد، وهو غير المشترك؛ لأن المشترك اتحاد اللفظ وتعدد المعنى، وقد بحث العلماء هذين النوعين، ولهم أبحاث قيمة،أما قضية الترادف فلقد تحدث عنها أبو هلال العسكري في كتابه الفروق اللغوية، وابن فارس في «الصاحبي» والسيوطي في «المزهر»وكثير من المحدثين وكذلك قضية المشترك كتب فيها اللغويون والأصوليون، ومن أوائل من كتب في المشترك المبرد، فلقد كتب كتاباً بعنوان «ما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله .»[1]

والذي يعنينا الآن قضية الترادف.

---

(١)عد الدكتور صلاح الخالدي هذا الكتاب من باب ما كتب في الترادف، وليس الأمر كذلك، فكتاب المبرد إنما هو من المشترك الذي اتحد لفظه واختلف معناه، والترادف كما علمنا هو ما تعدد لفظه واتحد معناه، البيان في إعجاز القرآن / ص ١٦٤.

والترادف عند مثبيته أن يكون للكلمتين أو الكلمات معنى واحد، ويظهر أن الحديث عن الكلمات التي تبدو لأول وهلة أنها مترادفة، وتلمس ما بين هذه الكلمات من فروق ظهر مبكراً، فقد تم لنا من قبل قول ابن هرمة: (هذا ابن هرمة قائماً بالباب) وكيف أن ابن هرمة أنكر على منشده هذا البيت وصوبه له: هذا ابن هرمة واقفاً، وبين له أن الفرق بين الكلمتين فرق شاسع .

ومن هذا ما رووه عن النضر بن شميل من أنه دخل على المأمون، فقال له: اجلس مرتين أو ثلاث، فقال النضر: يا أمير المؤمنين إنما يكون الجلوس بعد اتكاء، وذكره بما جاء في السنة عن بعض الرواة، حيث كان ﷺ يعظ أصحابه ويعلمهم، فنهاهم عن الشرك بالله وعقوق الوالدين، قال راوي الحديث: وكان متكئاً فجلس[1]، ثم قال: «ألا وقول الزور» قال المأمون: فماذا أقول -إذن- قال: قل: اقعد، فأعجب المأمون ذلك .

ومما هو أصل في موضوعنا هذا واشتهر بين العلماء كلمة الجاحظ: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضوع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لايذكرون السغب ويذكرون الجوع، في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لاينتقون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٥٤) في كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور.
(٢) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجليل (١/ ٢٠).

فوائد تحديد معاني الكلمات:

ولقد كان لهذه الملحوظات وما يشبهها أثر غير خفي في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى فيما بعد، فلماذا استعملت كلمة القيام في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠] بينما استعملت كلمة الوقوف في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] ولم استعملت مادة القعود كثيراً في كتاب الله في مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٨٦] ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن:٩]، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٦٠] على حين لم تستعمل مادة الجلوس إلا في آية واحدة: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١] ولم استعملت كلمة الفعل في آيات وكلمة العمل في آيات أخرى؟ إلى غير ذلك من أبحاث شيقة مفيدة تحدد لكل لفظ معناه الذي لايشترك معه غيره فيه .

ولابد أن نقرر هنا أن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية، قد حرم الناس من فوائد كثيرة، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لمدلول الكلمة القرآنية، وسد أمامهم أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات الكريمة، ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً في ذلك كلّه حيث التقت هذه الكتب والمعاجم على أن تعطي المعنى القريب للكلمة القرآنية، فتشتبه المعاني، وتختلط بعضها ببعض .

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها، فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبية والإنكار[1]، وقد فطن بعض العلماء والباحثين لهذه القضية الخطيرة، وما يمكن أن تحدثه من أثر سلبي في فهم المعنى وإدراكه، فطرحوا قضية الترادف للبحث، ولم يقتصر ذلك على الأقدمين فحسب، بل تجاوزه إلى المحدثين كذلك.

---

(١) انظر : مجلة الثقافة – الأستاذ علي عبد الواحد، وافي – سنة (١٩٧٣م)

لا ترادف في كتاب الله تعالى:

ولا يعنينا تفصيل هذه القضية هنا [1]، والذي نطمئن إليه، وقد اطمأن إليه كثيرون قبلنا أن لاترادف في كتاب الله تبارك وتعالى، والكلمات التي ظنها بعض الناس مترادفة عندما ننعم النظر فيها، نجد أن لكلٍّ معناها الدقيق، وإليكم طرفاً موجزاً نطلعكم فيه على بعض الكلمات التي يظن أنها مترادفة.

كلمات يظن أنها مترادفة:

١-الخوف والخشية: لا يكاد كثير من الناس يفرق بينهما مع أن بينهما أكثر من فرق، منها أن الخشية أعلى من الخوف وأشد منه.

ولذا خصت الخشية بالله في كثير من الآيات ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١]

وفرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً.

ويدل لذلك أن (الخاء،والشين،والياء) في تقاليبها تدل على العظمة نحو شيخ:للسيد الكبير، وخيش: لما غلظ من اللباس[2].

ولذا وردت الخشية غالباً في حق الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وهذا الوجه الأخير هو الذي اقتصر عليه الراغب الأصفهاني حيث قال: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى بحثنا (الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية) مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، العدد الرابع (١٤٠٩هـ -١٩٨٩م) قطر.

(٢) معترك الأقران للسيوطي (٣/ ٦٠٢).

يكون ذلك من علم بما يخشى منه ».

ولكن السيد رشيد رضا-رحمه الله تعالى – لم يرتض ما ذكره الراغب، قال رحمه الله: «إن القيد الذي ذكره الراغب لايظهر في كل الشواهد التي وردت من هذا الحرف في القرآن وكلام العرب».وبعد أن استشهد على ذلك بشيء من أقوال العرب قال: «فإن كان بين الخوف والخشية فرق، فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل، ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية من مادة: خشت النخلة تخشو، إذا جاء ثمرها دقلاً(رديئاً) وهي مما يُرْجَى منها الجيد»[1]. وإذا تتبعنا الآيات القرآنية الكريمة، ندرك الفروق سواء ما ذكره الراغب أم غيره، فلا ضير أن يكون هناك أكثر من فرق بين الكلمتين، فقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] يشهد لما قاله صاحب المنار، من أن الخشية خوف في محل الأمل، ومن أحق من العلماء بهذا الخوف وبذلك الأمل، ولا يتنافى مع ما قاله الراغب، من أن الخشية: خوف يشوبه التعظيم، والعلماء حقيقون بهذا التعظيم، حريصون عليه .

كذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠] وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]

٢- ومن الكلمات القرآنية التي يظن أنها بمعنى واحد هاتان الكلمتان: جاء وأتى. فالكلمة الأولى تسند غالباً إلى الجواهر والأعيان، بينما تستند الكلمة الثانية: إلى المعاني والأزمان .

والمتتبع للآيات القرآنية يجد ذلك واضحاً كل الوضوح، قال تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: بصواع الملك ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:

(١) تفسير المنار: ٤/ ٣٢٢.

١٨] ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٢٤].

وقد اجتمعت الكلمتان في قوله تعالى في سياق قصة لوط – عليه الصلاة والسلام – ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر:٦٣-٦٤]، الذي جاؤوا به العذاب، وهو أمر مشاهد، والذي أتى به الحق، وقد ذهب الراغب إلى أن الإتيان إنما هو المجيء بسهولة، فهو أخص من مطلق المجيء، ومنه قيل: للسيل المار على وجهه أَتِيّ وأتاوِيّ.[1]

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود:٦٦] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤].

فإن المتحدث عنه في الآية الأولى: هو العذاب، وفي الآية الثانية هو الموت، وكأنه أمر مشاهد، ولهذا يعبر القرآن الكريم عنه بالحضور[2].

٣-وهناك كلمتان في كتاب الله تعالى بحق مظهر من مظاهر إعجازه، وأعني بهما: الفعل، والعمل، ويظهر أن الفرق بينهما من جهتين اثنتين:

أما أولاً: فإن لفظ (عمل) يستعمل لما يمتد زمانه.

وأما لفظة (الفعل) فعلى العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة .

والاستعمال القرآني يؤيد هذا الفرق. والآيات الكريمة تشهد له خير شهادة، قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥] ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ:١٣] ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ [التوبة:١٠٥].

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص٨.

(٢)البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ٨٠).

أما استعمال مادة الفعل، فليس لها زمان مستمر، وإنما تحدث دفعة واحدة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر:٦]. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١] ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٩].

وهذا الفرق هو الذي اقتصر عليه السيوطي(١) – رحمه الله تعالى–.

وهناك فرق آخر لا يقل عنه دقة وروعة. وهو ما ذكره الراغب – رحمه الله تعالى – حيث قال: «العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات»(٢).

ولم يذكر الراغب –رحمه الله – من الآيات ما يعد تطبيقاً لهذا الفرق، وهو ما سنذكره بعون الله .

فالمتأمل في الذكر الحكيم يجد ما يطمئن به قلبه، وتطيب به نفسه، قال تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]، وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وفي سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ -١٢].

أما الآية الأولى والثانية: فأمرهما ظاهر، فالفعل أسند إلى الحيوان من طير وغيره في الآية الأولى، وإلى الجماد في الآية الثانية.

وأما الآية الثالثة: فإنه يلوح لنا منها سر رائع، فتعالى الله، وجل المنزل حيث لم يقل: (يعلمون ما تعملون). لا من أجل غرض لفظي فحسب، وهو ما بين الفعلين يعلمون وتعملون،من تقارب وتشابه في الأحرف، وإنما لما هو أعمق من ذلك وأدق. وهو أن

---

(١) معترك الأقران للسيوطي (٣/ ٦٠٤).

(٢) المفردات/ ٣٤٨.

هؤلاء الملائكة لايعلمون ما تقصدون إليه من عمل فقط، وإنما يعلمون ما وراء ذلك من خلجات النفوس، وطرفة العين، والخواطر والهواجس، وكل ما لا يقصده المرء، فما أبدع الجمال القرآني، وما أجمل بديع كلماته.

ويظهر لي أن هذا يشبه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] حيث عبر بالقول دون الكلام.

ولا شك أن الكلام يشمل ما هو مفيد فقط، أما القول: فيشمل المفيد وغيره[1] ومن خير الشواهد التي توضح الفرق بين (الفعل) و(العمل) ما قصه الله علينا من نبأ موسى وفرعون، قال تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:١٩-٢٠] والفعلة: هنا هي قتل موسى عليه الصلاة والسلام للقبطي، وقد كان دفعة واحدة لا تدرج فيه من جهة، كما أنه من جهة أخرى كان أمراً غير مقصود ولا مراد لموسى عليه الصلاة والسلام، فكل الذي حدث منه، وكز القبطي، والوكز عادة لا يقتل، لذلك سماه القرآن فعلاً.

وفي قصة البقرة عن بني إسرائيل ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] والمنعم النظر في آي القرآن يجد من ذلك ما يثلج الصدر.

٤- ومن هذا القبيل كلمتا: القعود والجلوس.

والمتأمل لآي القرآن الكريم، واستعمال هاتين الكلمتين، يدرك روعة العربية من جهة، وإعجاز الكتاب الخالد من جهة ثانية، فالقعود إنما يستعمل لما فيه لَبْث ومكث، أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك. قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور:٦٠] ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦] ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ - ١٠٠٢م] الخصائص. تحقيق محمد علي النجار - طبعة دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - طبعة ثانية ج١ ص٧.

[القمر:٥٥] ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن:٩]، وهذا يبين حرصهم على استراق السمع .

أما مادة: جلوس، فلم تأت إلا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١]. وهذه المجالس عادة لايطول المكث فيها، ومنه الحديث الشريف «مثل الجليس الصالح وجليس السوء »[١] والحديث الآخر «إياكم والجلوس على الطرقات »[٢].

ومن أسرار العربية أن (القاف، والعين، والدال) تدل على اللبث والثبات فمنها مادة: قعد التي تحدثنا عنها من قبل، والدقعاء: للتراب الكثير الدائم الذي يبقى في مسيل الماء، ومنه: العقد الذي يستعمل لعقدة النكاح، والعقيدة: وهي قضايا ثابتة .

أما (الجيم واللام، والسين) فعلى العكس من ذلك، ففيها الحركة، ومنه: السجل للشيء المتحرك الذي لا يبقى عند صاحبه .

والطريف أنهم ضموا عين المضارع في قولهم: «يقعد» وكسروها في قولهم: «يجلس» والكسرة أخف من الضمة، فاستعملوها لما فيه الحركة، واستعملوا الضمة الأثقل لما فيه المكث .

٥- **الإعطاء والإيتاء**: مع ما بين هاتين الكلمتين من تشابه في اللفظ، واتحاد في الاستعمال عند كثير من الناس، ومع ذلك فبينهما فروق، ويشهد لذلك الاستعمال القرآني، فماهي الفروق بين الإيتاء والإعطاء يا ترى؟

ينقل صاحب البرهان عن الجويني – رحمهما الله تعالى – أن الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله.[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الذبائح والصيد / باب المسك (٥٥٣٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب المظالم / باب أفنية الدور والجلوس فيها(٢٤٦٥).
(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٨٥.

وهناك فرق آخر بين الإعطاء والإيتاء وهو أن الإعطاء إنما يكون على جهة التمليك، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩] وقد لا يكون الإيتاء على جهة التمليك .

وفرق ثالث: وهو أن الإيتاء لا يكون إلا للشيء الكثير، والعظيم الشأن، وقد يكون الإعطاء للقليل، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴾ [النجم:٣٣-٣٤].

ويمكننا أن نتدبر الآيات القرآنية على ضوء هذه الفروق التي ذكرناها، وأول ما يخطر للفكر معرفته ليلمح فيه الفرق بين هاتين الكلمتين قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النور:٥٦] وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

فانظر كيف عبر عن كلٍّ من الزكاة والجزية، ففي جانب الزكاة استعملت كلمة الإيتاء فيمكن أن نلمح الفروق التي ذكرناها من قبل، فهي عطاء على سبيل التمليك من جهة، وهي أكثر قوة في إثبات مفعولها كذلك، لأن المؤمنين يخرجونها خالصة من قلوبهم، ولا كذلك الجزية، ولقد استعمل الإيتاء كذلك بجانب الملك والحكمة، قال تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

أما الإعطاء. فيكفي أن نقرأ فيه هذه الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]، وإعطاء المنافقين لا لكونهم يستحقونه، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه)[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٧٨) – كتاب الزكاة – باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقد يتساءل بعضكم: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١] ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥].

والجواب عن ذلك: أن هذا الذي أعطيه النبي ﷺ،هو قليل في حقه،وهو قليل كذلك إذا قيس إلى ما هو أعظم منه .

٦-السنة والعام:

ونقرأ في كتاب الله تعالى آية ذكر فيها كلمتان اثنتان جاءت كل في موضعها لا أقول الذي يناسبها فحسب، ولكن أقول الذي لا يناسبها غيره، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]. وتأملاً في كل من الكلمتين على حدة نستنتج أن هناك أكثر من فرق بينهما .

فالسنة: تلقي من منطوقها ظلال الشدة والقحط والصعوبة، والعام: على العكس من ذلك، قال تعالى ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩].

وفي الأثر: (سنين كسني يوسف)[١]. فالسنة تدل على القحط، والعام يدل على الرخاء.

وهناك فرق آخر وهو أن السنة تستعمل أكثر ما تستعمل في السنة الشمسية على حين يستعمل العام للقمرية، ونحن نعلم أن بينهما أحد عشر يوماً تقريباً، ومن هنا فلا عجب أن تدهشنا روعة التعبير في اختيار الكلمات، حيث ذكرت السنة فيما قضاه نوح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه، وذكرت كلمة: العام بجانب المدة التي استثنيت من ذلك، وفي هذا تصوير لما عاناه عليه الصلاة والسلام من شدة في الأمر،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه(١٠٠٦)، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي: اجعلها عليهم سنين كسني يوسف.

ومقارعة لأعداء الله، وطول أمد، وإذا تدبرنا كتاب الله تعالى، فإننا لن نجد أي كلمة منه تشبه غيرها، فضلاً عن أن تسد مسدها .

٧-الحمد والشكر:

بدأ الله كتابه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، ولقد ذكرت هذه الجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مرات عديدة فاتحة لسور عديدة، ولكن كلمة الشكر ذكرت أكثر من كلمة الحمد، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل:١٩] ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الكلمتين ذواتا معنى واحد، والمحققون ذهبوا غير هذا المذهب .

وإذا كان من فرق بين الحمد والشكر، فإن الحمد يكون باللسان، أما الشكر فلا يختص به اللسان وحده، وإنما يكون بالقلب والجوارح .

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وهناك فرق آخر بين الحمد والشكر، وهو أن الشكر لا يكون إلا مقابل نعمة، أما الحمد فإنما يكون لأي شيء حسن، فأنت تحمد إنساناً لشجاعته أو كرمه دون أن ينالك منه شيء، ومن أجل ها اختيرت كلمة (الحمد) في فاتحة الكتاب العزيز.

٨- وهاتان كلمتان استعملتا في كتاب الله تعالى، وهما كلمتا شك وريب، والعجب كل العجب من الذين يحتجون على وجود الترادف في اللغة بقولهم: لو لم يكن هناك ترادف ما صح أن نفسر: الريب بالشك(١).

وإنما نعجب من أمره لأننا لا ندري كيف يفسر الريب بالشك،واستعمال القرآن

---

(١) المزهر السيوطي، حققه محمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل، ج١، ص٤٠٤.

شاهد لما بينهما من فرق، بل فروق، فالقرآن الكريم ينفي الريب دائماً عن القضايا الكبرى كالكتاب والساعة، كما أنه ينفيه عن المؤمنين في جميع أحوالهم، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المدثر:٣١] .

وإذا استعملت كلمة الشك مسندة إلى الكافرين، فإنها غالباً ما توصف بكلمة مريب ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤]، ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩] .

وقد نجد أن كلمة الشك، إذا ذكرت وحدها مسندة إلى الكافرين فإنه يضرب عنها، وينتقل إلى ما هو أكثر منها ضلالاً، وأشد منها سوءاً، قال تعالى عن الكافرين: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] واستعمل الشك، دون وصف في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤].

وهذه الآيات الكريمة تجعلنا غير مترددين في أن الريب شيء أكثر من الشك، فالريب ينم عن القلق في النفس وما يختلج فيها من أسباب الغيظ[١]، ومن ثم تنافي الطمأنينة، وهذا بعيد عن ساح المؤمنين فضلاً عن قلبه الشريف ﷺ لذلك حيل بينه وبين أن يسند إليه الريب .

أما الشك فمع بعده عنه ﷺ إلا أن الشك ليس فيه ما في الريب من محاذير، ذلك أنه أي الشك تردد بين شيئين، قال الراغب: «الشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمارة، والمرية: التردد في المتقابلين، وطلب الإمارة: من مَرَى الضرع، أي: مسحه للدر، والريب: أن يتوهم في الشيء، ثم ينكشف عما توهم فيه[٢].

---

(١) محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ - ١٨٥٤ م) روح المعاني، الناشر: الطبعة المنيرية ج١ ص١٠٦ .
(٢) الراغب، المفردات، ص ٢٠٥.

ونزيد هنا أننا نجد هذه المادة، يوصف بها المنافقون، وأن هذا الفعل يسند إليهم، قال تعالى في سورة براءة في سياق الحديث عن المنافقين: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥]، وقال سبحانه عن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١١٠].

وفي التنزيل آية جمعت الكلمتين معاً، وتدبرها يدل على ما بينهما من بون شاسع قال تعالى في سورة المؤمن وهو يحكي لنا خطاب هذا المؤمن الذي سميت السورة باسمه وقوله لآل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر:٣٥-٣٤]، ونرى من السياق الكريم الفرق الشاسع بين الكلمتين، حيث جاءت كلمة الشك مطلقة دون وصف، ولا يفهم منها أكثر من ترددهم فيما جاءهم به عليه السلام، أما كلمة مرتاب المشتقة من الريب فقد ذكرت مقترنة بالإسراف والإضلال، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنم عن سوء أولئك الذين استقر في قلوبهم الريب، ولو أننا وقفنا مع الآيات القرآنية التي ذكرت فيها إحدى هاتين الكلمتين لوجدنا أن كل كلمة لا يمكن أن تصلح مكان أختها.

٩ – اللوم والتثريب والتفنيد:

في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام جاءت هذه الكلمات الثلاث، وهي متقاربة من حيث المعنى، مما جعل بعض المفسرين يفسر بعضها ببعض، فيقول في قوله سبحانه: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤] لولا أن تلومون.

ولكن الدقة والإحكام في استعمال الكلمات القرآنية، يحتمان علينا أن نقف مع هذه الكلمات، وأن ننظر إلى السياق الذي جاءت في كل منها .

فاللوم وهو العَذْل – ولعل أشدها وأقواها وأكثرها قسوة – جاء من امرأة العزيز رداً على النسوة، وقد لاكتها ألسنتهن بكلّ قسوة وفظاعة، وانتشر حديثها بينهن، ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٠ – ٣١] وكان ما حدثنا القرآن الكريم عنه، ثم قالت لهن: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾[يوسف: ٣٢] . فجاءت كلمة اللوم هنا مستقرة في موضعها أصيلة في مكانها الذي استعملت فيه لا يسد عنها غيرها .

أما الكلمة الثانية وهي كلمة التثريب، فلقد جاءت حديثاً من يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته بعد أن ظهرت لهم الحقيقة، وشعروا بالذنب ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩١ – ٩٢].

فانظروا في سياق هذه الكلمة في كتاب الله، فلم يقل: لا لوم عليكم، كما جاء في الآية السابقة، واستعمال هذه الكلمة يدلنا على ما أكرم الله به نبينا يوسف عليه الصلاة والسلام من حسن الخُلُق كما مَنَّ عليه بحُسْنِ الخَلْق، فهو يقول لهم: «لاعتب وتأنيب، دعوا ما مضى، ولا تؤنبوا أنفسكم بما كان منكم، فلا تثريب عليكم اليوم» فكلمة التثريب هنا لا تسد مسدها كلمة أخرى.

أما الكلمة الثالثة وهي التفنيد، فقد ذكرها القرآن الكريم حديثاً عن يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] بعض المفسرين فسرها «لولا أن تلومون » ولكن استعمال القرآن الكريم لها في هذا الموضع يجعل لها كيانها الخاص وظلالها الخاصة كذلك، فالتفنيد

هنا ليس اللوم، وإنما أصله الإفساد، قال الراغب:

«التفنيد: نسبة الإنسان إلى الفند، وهو ضعف الرأي، قال: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قبل أن تلوموني، وحقيقته ما ذكرت، والإفناد أن يظهر من الإنسان ذلك»[1].

فقد رد الراغب تفسير الإفناد باللوم – كما رأينا –.

هذه كلمات ثلاث استعملت في مكانها اللائق بها، والموقف الخاص بها، فالكلمة الأولى كانت من امرأة العزيز للنسوة، وقد مكرن بها وشهرن، والثانية كانت حديثاً من يوسف عليه الصلاة والسلام تسلية لإخوته، كي يمحو من نفوسهم الشعور بالتأنيب، والكلمة الثالثة كانت حديثاً من يعقوب عليه الصلاة السلام كي لا يتهمه ذووه لشيخوخته بضعف الرأي وفساده.

وأكتفي بما ذكرت في هذا البحث عن تلك الألفاظ التي يظن أنها مترادفة متحدة المعنى. ولندع الكلام في هذا البحث، لننتقل إلى فصل آخر، وإلى روضة قرآنية جديدة، وعلى الله التكلان، ومنه التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثانياً: استعمال الألفاظ المختلفة في المواضع المتشابهة:

ومما يتصل بهذه القضية، استخدام القرآن الكريم ألفاظاً مختلفة في المعنى، ولكنها جاءت في مواضع متشابهة، **واختص كل موضع بما يلائمه ويناسبه ومن هذه:**

١ - **كلمتا: الإلقاء والقذف:** فقد وردت كل من الكلمتين في سياق الجهاد ومحاربة الأعداء، مسندتين إلى الله تبارك وتعالى المنعم على عباده بهذا الرعب إكراماً للمؤمنين، ويأساً على أعدائهم، ونسأله سبحانه ونحن في هذا الظرف، الذي تألبت علينا فيه قوى المكر والبغي بقيادة أمريكا الباغية وحلفائها وعملائها، نسأل الله أن يقذف في قلوبهم

(١) المفردات: ص ٣٨٦.

الرعب، وأن يثبطهم ويثبتنا، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[الأنفال: ١٢]، وقال في سورة الحشر ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

ومن كان له أدنى اطلاع ومعرفة في قضايا اللغة يدرك أن كلمة (القذف) تعطي من الدلالة، وتلقي من الظلال ما لا يوجد في كلمة (إلقاء).

فكلمة (القذف) إنما تستعمل لما فيه الشدة والقوة والضخامة، ولهذا يقال: «هم بين خاذف وقاذف» فالخذف: هو رمي الخذف، وهي الحصاة الصغيرة، أما القذف فلا يكون إلا بما كبر من الحجارة واشتد ضاربه فيه.

وحينما نقف أمام النصين الكريمين نتساءل متدبرين،لم جاءت كل كلمة في هذا المكان دون غيره !؟ والسياق كفيل بالإجابة على هذا التساؤل، لذلك كان السياق أمراً لابد منه لفهم الكتاب العزيز وتفسيره، وإذا كانت اللغة والمأثور لا غناء عنهما لمفسر القرآن فإن السياق كذلك. وإليك بيان ما نحن بصدده.

كلمة الإلقاء جاءت في سورة الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر، والتي كانت بين المسلمين وبين قريش، وكان المشركون من أهل مكة يقفون ويتجمعون في ذلك الموضع، لا يجدون ما يتحصنون به إلا تروسهم وأسلحتهم، ولكن كلمة (القذف) جاءت في سورة الحشر، سورة بني النضير، وهم الذين – كما حدثنا القرآن عنهم – كانت لهم حصونهم المنيعة الحصينة، والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك، وهو يمتن على المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

كانت كلمة الإلقاء إذن في مكانها المناسب، وجاءت كلمة القذف حيث لا يصلح أن تستعمل كلمة الإلقاء... وهكذا تتجلى لنا الكلمة القرآنية بهاء ورواء.

٢- حادّ وشاقّ هاتان كلمتان في كتاب الله، استعملت كل واحدة منهما في موضع معين، فقد استعملت الأولى في سياق الحديث عن المنافقين، واستعملت الثانية في سياق الحديث عن الكافرين، كما يشهد لذلك ما جاء في سورة براءة في سياق الحديث عن المنافقين ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٣]، وفي سورة المجادلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[المجادلة:٥] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة:٢٠].

وردت المشاقة حديثاً عن الكافرين في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في سورة الأنفال [الآية: ١٣] حديثاً عن المشركين، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سورة الحشر [الآية: ٤] حديثاً عن اليهود.

والسؤال: لم اختصت كل كلمة بموضعها ؟ وللإجابة على ذلك نقول:

إن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر، ففيها معنى البعد، أما المحادة:فليس فيها هذا المعنى، إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حدّ – أي علامة – توضع بين الفريقين كحدِّ الأرض، وهو ما فيها من علامات تميز بين الشركاء، وهكذا المنافقون يَدَّعون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكامه الظاهرة وليس الكافرون كذلك، لذا استعملت كلمة المشاقة في جانب الكافرين، وكلمة المحادة في جانب المنافقين، لأن المنافقين يَدَّعون الإسلام بألسنتهم.

٣- وهاتان كلمتان متجاورتان في سورة آل عمران: (الفعل والخلق)

إحداهما:في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠]. والأخرى في قصة مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٧].

فلقد عبر بالفعل (يفعل ما يشاء) في الآية الأولى، لأن لفظ الفعل غالباً ما يجري على

قانون الأسباب المعروفة. وعبَّر بـ (الخلق) في الثانية (يخلق ما يشاء)، فالخلق يجري في الإيجاد والإبداع. ولما كان إيجاد عيسى – عليه الصلاة والسلام- جرى على غير قانون الأسباب والمسببات فعبَّر عنه بالخلق (١).

٤- الإغراء والإلقاء:

ومما هو جدير بالتدبر، حريٌّ بأن تخشع له القلوب، هاتان الكلمتان من كتاب الله، وهما كلمتا الإلقاء والإغراء، ولنستمع:

في سياق الحديث عن أهل الكتاب ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[المائدة: ١٤] وفي آية أخرى ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤].

وقفت طويلاً عند هاتين الآيتين، أتساءل عن سر استعمال "أغرينا" في آية و"ألقينا" في أخرى، وكنت على يقين من أن وجود كل من الكلمتين في موضعها، لابد له من حكمة. والحقيقة أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا يختص بالعرب وحدهم – كما بينته لك من قبل – إنما كل من فقه العربية من غير العرب، أو ترجمت له معاني آي الكتاب الكريم، فإنه سيقف على هذا الإعجاز، كما يقف عنده العربي ذو الطبيعة المسترسلة، والسليقة المتأصلة.

---

(١)" ولا ننسى أن قصة زكريا ذكر فيها الغلام، وقصة مريم ذكر فيها الولد، لأن قضية الولادة هي المعجزة، أما ذكر الغلام في سورة مريم ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ [مريم: ٢٠] فموافقة جبريل حينما قال لها : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: ١٩].

جاءت كلمة الإغراء حديثاً عن النصارى، أما كلمة الإلقاء فجاءت في سياق الحديث عن اليهود، وإن كان كثير من المفسرين ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ [المائدة: ٦٤] أي بين اليهود والنصارى، وإذا أردنا تفسيراً قريباً للإغراء والإلقاء فإن الإغراء ببساطة هو الالتصاق بحيث إذا ألصقت شيئين معاً يصعب فصلهما، فهو مأخوذ من الغَرا (بفتح العين) أو الغِراء (بكسرها) وهي المادة المعروفة عند كثير من الحرفيين، أما الإلقاء فهو مجرد الطرح.

وبعد هذه المعرفة اللغوية إذا أردت أن تتذوق البيان في الآيتين الكريمتين، فلا بد لك من التاريخ والواقع، فلقد حدثنا التاريخ أن العداء بين الأمم النصرانية مستحكم ملصق بهم، والتاريخ يحدثك عن تلك الحروب الطاحنة، بين الشعوب الأوربية والطوائف النصرانية، ولقد كان آخرها شمولاً الحرب العالمية الثانية، وإنها قلنا آخرها شمولاً، لأن هناك عداوات إقليمية بين الكنائس النصرانية كما يحدث في ايرلندا وغيرها لا زالت على أشدها.

أما الإلقاء: فهو مجرد الطرح كما علمت، فإذا كان الضمير في قوله تعالى: (بينهم) راجعاً لليهود، فنحن نعلم أن ما بين اليهود من عداوة لم تصل إلى ما هي عليه عند النصارى، وإذا كان راجعاً لليهود والنصارى، - كما ذهب بعض المفسرين – فالأمر فيه ظاهر كذلك، فأمر العداوة لا يصل إلى ما هو عليه عند النصارى بعضهم مع بعض. وإن خير دليل على ذلك ما حدثنا عنه التاريخ مما كان بين النصارى واليهود، وبخاصة في أوروبا، ولكنه تحول اليوم إلى مودة ومعونة ومساعدة لما كان المسلمون طرفاً ثالثاً.

هذه شذرة من شذرات الإعجاز البياني، كما يصوره الكتاب الخالد وصدق الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

٥- الدثار والتزمل:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا (٢) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا (٣) أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (٤)﴾ [المدثر: ١-٤]، وكثيرون الذين يفسرون الدثار والتزمل بمعنى واحد، إلا أن اختيار الكلمة القرآنية في موضعها، يحتم علينا أن نبحث عن سر هذا الاختيار، فالدثار هو اللباس الذي يلي البشرة، أما التزمل فهو يعطي معناً زائداً على ما سبق، فالتزمل فيه معنى الثقل والكثرة، ومنه الزوامل التي تحمل الأحمال الثقيلة، ولما كان الدثار أمراً لا بد منه لكل من يقابل الناس، جاء قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ولما كان المتزمل المتلفف، المتثقل بما يضعه على بدنه من ثياب وغطاء وغشاء - والتزمل عادة إنما يكون في الليل عند النوم - جاء قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وهكذا تجد الكلمات القرآنية كل في موقعها الذي يصلح لها، وفي موضعها الذي لا تصلح إلا به.

ثالثاً: رسالة الحرف في كتاب الله تعالى:

وإذا كنا نتحدث عن الكلمة القرآنية، فإنا نعني بها الكلمة باصطلاح اللغويين، اسماً كانت، أو فعلاً، أو حرفاً، من حروف المعاني. لذلك كان لهذا الحرف نصيبه الأوفى، وحظه الأوفر في البيان القرآني، سواء كان ذلك من حيث حذفه وذكره، أم من حيث وضع حرف مكان حرف آخر.

وأحب أن أشير هنا إلى أن ما ذهب إليه الكثير من العلماء من تناوب الحروف بعضها مكان بعض، قضية غير مسلمة أو مستساغة في كتاب الله تعالى، فكل حرف له مدلوله الخاص به. فإذا قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] فإن حرف الجر

(في) جيء به قصداً، ولا يسد غيره مسده[1]. وهكذا كل حرف في كتاب الله تبارك وتعالى، لا ينبغي أن نقول: إنه جاء عوضاً عن غيره. فـ (عن) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] ليس المقصود بها أن تكون بمعنى (في) أي: في صلاتهم.

فلقد ذكر المحدث الخطابي[2] بسنده إلى مالك بن دينار، قال جمعنا الحسن – يعني البصري رحمهم الله جميعاً – من أجل عرض المصاحف، وكان في المجلس أبو العالية، فسأله أحدنا عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فقال أبو العالية: هو الذي يسهو في صلاته، فقال الحسن: لا، يا أبا العالية: إن الله يقول ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم)[3] فنحن نرى أن الحسن البصري – رحمه الله ورضي عنه – وهو الذي أرضع لبان النبوة فأكرمه الله أيما إكرام – أبى أن يستبدل الحرف القرآني بغيره.

استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابه:

١ – في سورة البقرة يقول ربنا تبارك و تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمرن:٨٤] فنحن نرى أنه عبّر بـ (إلى) حينما كان الخطاب للأمة لأن القرآن الكريم إنما أنزل إليهم. وتجيء (على) حينما كان الخطاب للرسول ﷺ لأن القرآن إنما أنزل عليه وحده.

٢ – ومن هذا القبيل ما نقرؤه في سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ

(١) ذلك لأن الحرف يصور لنا مافي نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين.
(٢) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – ص ٣٢.
(٣) وهذا هو رأي المحققين اللغويين ما نقله أبو هلال العسكري عن ابن درستويه. انظر: الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، ضبطه وحققه \ حسام الدين القدسي – طبعه دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (سنه ١٤٠١ هـ –١٩٨١ م) ص ١٣.

قِيَمًا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ ﴾ [النساء: ٥] وبعدها بآيتين نقرأ قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ ﴾ [النساء: ٨].

فلقد عبر بحرف الجر (في) في الآية الأولى لغرض رائع، وهدف بديع، ذلك أن إعطاء أولئك من المال لا ينبغي أن يكون من أصله وعينه، وإنما من ربحه وثمرته، فهي دعوة لاستثمار المال واستغلاله فيما يحل، هذه الدعوة العريضة-دعوة استثمار المال – حمل لواءها هذا الحرف وحده، ومن هنا قلت: إن كل حرف قرآني له رسالة يؤديها، وهذا لا يمكن أن يتصور في الآية الأخرى – آية تقسيم التركة – حيث يأخذ كل نصيبه الذي يستحقه، على أن يؤتى أولو القربى واليتامى والمساكين من هذه التركة.

٣- ونقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ولم يقل (علينا)، فوضع اللام هنا مقصودة، متفق مع نفسية المسلمين الذين يعدون كل ما من الله تبارك وتعالى خيراً ونعمة.

٤-وحينما نقرأ سورة الفتح نجد ربنا تبارك وتعالى يمن على نبيه ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بمنن كثيرة، منها إنزال السكينة، وهذه المنة تذكر مرات ثلاث في ثلاث آيات، تعدى فعل الإنزال في إحداها بحرف الجر (في)، وفي الآيتين الأخريين بحرف الجر (على) واليكم هذه الآيات لتتدبروها:

الآية الأولى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الفتح:٤] والآية الثانية: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفتح: ١٨] والآية الثالثة: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦].

والمتتبع لأحداث الحديبية يدرك ما أصاب المسلمين من هزات، وما أقلقهم من أحداث كان أولها، حينما صدهم المشركون عن البيت، ثم تلا ذلك ما أشيع عن قتل عثمان –رضي

الله عنه – وما أعقب ذلك من بيعة الرضوان، ولعل ذلك أشدها ما كان عند إبرام الصلح.

إذن كان المسلمون بحق بحاجة ماسة إلى هذه السكينة في هذه المواطن الثلاث، لذا أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين حينما صُدّوا عن البيت بسبب حمية الجاهلية، وهذا ما أشارت له الآية الكريمة: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦] فالمؤمنون يذكرون مع الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لانزعاجهم جميعاً من صد المشركين من أن يتموا عمرتهم.

ولكن المؤمنين خصوا بهذه السكينة عند بيعة الرضوان كرامة من الله، كما رأينا في الآية الكريمة ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ عَدَّى الإنزال بـ (على).

أما الموضع الأخير، وهو ما كان عند إبرام الصلح، وقد وجد المسلمون في أنفسهم من القلق والألم والاضطراب، فلقد عَدَّى الإنزال بـ (في)، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ فلقد كان المسلمون بحق بحاجة إلى السكينة تتغلغل في قلوبهم في هذا الموطن عند إبرام الصلح؛ لذا عدى الإنزال بـ (في) دون الموضعين الآخرين، لأن المؤمنين كانوا أكثر حاجة إلى هذه السكينة في هذا الموطن، وبدهي أن هناك فرقاً كبيراً بين (في) و (على) إذ تستعمل (في) للظرفية، وهذا يدل على تغلغل السكينة في أعماق المؤمنين وقلوبهم.

٥- ومن هذا القبيل، هاتان الآيتان الكريمتان: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل:٣٣].

فالآية الأولى تثبت أن الأمر ثابت لله وحده. لا يشاركه فيه غيره. أما الآية الثانية فإذا نظرنا في سياقها، وجدنا أن لها معنى آخر. فملكة سبأ حينما جمعت الملأ ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فهي لا تشك في أن الأمر لها هي، وهم لا

يشكون كذلك، ولذا قالوا لها مجيبين كما قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] فهم لا يريدون أن يبينوا أن الأمر ثابت لها، فهذا لا تجهله هي، ولا ينازعون هم فيه كذلك، إنما يريدون أن يبينوا – والله أعلم بمراده – أننا مهما أبدينا من آراء، وأياً كانت المشورة التي نشير بها، فإن نهاية ذلك كله إنما هو راجع إليك أنت، فآراؤنا جميعاً وأقوالنا ومشورتنا، ليست شيئاً مذكوراً فأنت صاحبة القرار الأخير.

وهكذا ندرك أن كلاً من الحرفين أعطى ما لم يعطه الآخر.

٦– ومن هذا ما نجده من أسرار بيانيه في استعمال الحروف بين هاتين الآيتين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] وقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] فالآية الأولى التي ذكر فيها اللام وما يشبهها، جاءت تبين أن الله أنزل الماء من أجلهم، لتحيا به الأرض، وليشربوا وأنعامهم، وهكذا نجد أن الآيات الكريمات التي ذكرت فيها نعمة إنزال الماء يذكر فيها هذا الحرف اللام (لكم).

ولعل الآية الوحيدة التي ذكر فيها حرف الجر (على) الآية الثانية ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم﴾، وهي كما نعلم جاءت تتحدث عن نعم الله على المؤمنين في بدر. فما سر هذه الهندسة الدقيقة في استعمال الحروف ووضع كل شيء في المكان الذي يتسق معه جمالاً وموضوعاً.

إن إنزال الماء من السماء، من أجمل نعم الله، فلا تتم الحياة إلا به ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩] لذا كانت اللام هي التي تدل هذه الدلالة الواسعة.

أما في آية بدر فكان إنزال الماء لحكمة اقتضاها الظرف الذي يعيشه المؤمنون في هذه

الفلاة من الأرض، فلقد كان إنزال الماء عليهم ؛ لأن هدفه تطهير أبدانهم مما أصابها من حدث، وذلك ليقابلوا العدو بنفوس طاهرة، وأجسامهم طاهرةٌ كذلك. وأيد متوضئة. أي بشر، بل أي أدب، بل أي عقل وأي دقة وأي إحكام يمكن أن تصل إلى هذه الدقة البديعة وصدق الله ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٧- ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص:٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]. وهكذا تجد الآيات التي جاء فيها الوحي جاءت على هذا النمط، ذكر فيها حرف الجر (إلى)، ولكن آية واحدة في كتاب الله وجدناها تخرج عن هذا النمط، ويخالف فيها ذلكم السياق، حيث لا يتعدى الفعل فيها بـ(إلى)، وإنها يذكر فيها حرف آخر وهو اللام، وهذه الآية هي قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٥].

وما نظن أن اللام وإلى يتعاقبان – كما قيل من قبل – ولكننا إذا أنعمنا النظر في الآيات، وجدنا هذه الآية دون غيرها، كان الوحي فيها للجماد ؛ وهي الأرض، أما غيرها من الآيات فكانت إما للأنبياء عليهم السلام، وإما لغيرهم من العقلاء، وإما لغيرهم من ذوي الحياة، كالنحل مثلاً، وهكذا نجد أن تغير الحرف إنما جاء يشير إلى أمر وقضية، حري بها أن تتدبر.

الوحي للجماد عدي باللام ومنه قول الراجز (وَحَى لها القرارَ فاسْتَقَرَّتْ) وذلك أن الأرض سخرت دون أن يكون لها جهد في هذا الوحي، أما غير الجماد فليس كذلك؛ لأن له جهداً فيما أوحي له، سواء كان هذا الجهد فكراً وتدبيراً، كما هو من العقلاء، أم كان سيراً وإلهاماً كما هو لغير العقلاء وكما تفعل النحل .

ثم إن آيات الوحي كلها كان الحديث عنها في الدنيا، أما هذه الآية الأخيرة فإن الحديث عنها في الآخرة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٦ - ٨].

حذف الحرف وذكره:

بعد أن حدثناك عن استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابهة، ورأيت من ذلك ما نرجو أن يكون قد اطمأن به قلبك وسكنت له نفسك. سنحدثك عن قضية أخرى من قضايا الحرف، لا تقل عن سابقتها، سحر بيان، ودقة معنى وإحكام نظم، ونعني بها ذكر حرف في آية وحذفه من أخرى، مع ما بين الآيتين من تشابه، فلماذا حذف ؟ ولماذا ذكر ؟ وسندرك أن كل حرف إن ذكر فإنما كان له سره وحكمته ودواعيه، أما إن لم يذكر فإن لذلك سره وحكمته كذلك.

١-قال تعالى في سورة الشعراء يحكى لنا ما قاله المعاندون لأنبيائهم، وبالتحديد ما قالته ثمود التي استحبت العمى على الهدى لنبيهم صالح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله الصلاة والسلام، وقد أمرهم بعبادة الله وحده وحذرهم، قال: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء ١٥٣ - ١٥٥] أما قوم شعيب عليه الصلاة و السلام فهذه مقالتهم كما جاءت في كتاب الله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦] فنحن أمام آيتين متحدتين في الجواب: ذكر حرف العطف في إحداهما ولم يذكر في الأخرى، فما هو السر البياني يا ترى ؟.

من المفيد أن نستمع الى ما قاله العلماء أولاً، ثم نحدثك بما يفتح الله به، وهو الفتاح العليم. فالشهاب الآلوسي[1]، وهو خاتمة المحققين في عصره، يرى سبب زيادة الواو يرجع

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي المسمى روح المعاني، ج ١٩ / ص ١١٩.

الى أن شعيباً عليه الصلاة والسلام كان خطيب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فأحب القوم أن يجاروه فيها وهب من قول فزادوه هذه الواو.

ومن قبل الشهاب الآلوسي –رحمه الله – يقول الكرماني صاحب متشابه القرآن، ما هو قريب من هذا: إن شعيباً زاد في الحديث، فزادوا له في القول، وأن صالحاً قلل فقللوا له[1].

وماأظن ذلك مقنعاً، ولا منسجماً مع بيان القرآن الكريم وروعته وإيجازه وإعجازه، فهل كان شعيب خطيب الأنبياء حقاً، وهل كان كلام صالح أقل من كلامه عليهما الصلاة والسلام؟ ولعل واقع الآيات التي جاءت كل من الجملتين بعدها لا يشهد لذلك ولا يقره.

وعلى التسليم بأن كلام صالح كان أقل، فهل وجود الواو من شأنه أن يكون زيادة في الحديث تتفق مع بلاغة شعيب وخطابه ؟ والعجب من الكرماني وغيره حيث عد الجملة الأولى (ما أنت إلا بشر مثلنا) بدلاً، والجمله الثانيه (وما أنت إلا بشر): عطفاً مع اتحاد المعنى، مع أننا نعرف أن البدل والعطف متغايران تماماً، فإذا قلنا: (قام زيد و أخوك) و(قام زيد أخوك) ففي الجمله الأولى ينبغي أن يكون زيد ليس هو الأخ ،أما الجمله الثانيه: فإن زيداً فيها هو الأخ نفسه، و إذاً لا يمكن أن تكون إحدى الجملتين عطفاً، والأخرى بدلاً، ويكون المعنى واحداً.

والذي ظهر لي –ولله الحمد و المنة، و الله أعلم – أن هنا شفافية من الإعجاز التاريخي والبياني معاً وإليكم بيان ذلك، و حاولوا أن تعدو أنفسكم لتلقيه و فهمه فهو بحق بديعة من بدائع إعجاز القرآن.

إن كلمه (مسحرين) لها معنيان يمكن أن تفسر بالمسحورين الذين أصيبو بمس و اختلط

---

(١) محمود بن حمزة الكرماني (ت نحو ٥٠٥ هجري –١١١٠ م) متشابه القرآن الذي غير محققه اسمه فسماه: أسرار التكرار/ دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا/ طبعة دار الاعتصام طبعة ثانية (١٣٩٦هـ ١٩٧٦م) ص١٥٥.

الأمر عليهم، و يمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورئة يأكلون و يشربون، و من هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها -: (توفي رسول الله ﷺ و هو بين سحري ونحري[1] وقد ذكر المفسرون ابن جرير والزمخشري والرازي هذين القولين، أما الزمخشري والرازي فلم يرجحا قولاً دون آخر، وأما ابن جرير فقد رجح أن كلمة مسحرين في الآيتين، تعني أنهم بشر يأكلون ويشربون.

والذي نراه هنا التفصيل فما قاله قوم صالح – عليه الصلاة والسلام – قصد به هذا المعنى الأخير، وهو ما رجحه ابن جرير، وما قاله قوم شعيب – عليه الصلاة والسلام – قصد به المعنى الأول، أي من المسحورين، وحجة ذلك [2].

أن كلمة مسحر: حينما تفسر بصاحب الرئة والمعدة، الذي يأكل ويشرب، فإنها تكون مساوية للبشرية، أما إذا فسرت بالمسحور، فإنها لن تكون كذلك بل كل منهما فيها معنى غير الذي في الأخرى، وقد قال قوم صالح: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤] فلم توسط الواو بين الجملتين، لأن معناها واحد، إذ معنى المسحرين الذي قصده قوم صالح هو أنك ذو رئة تأكل وتشرب، ثم جاءت الجملة الثانية تؤكد هذا المعنى ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، فإن كونه يأكل ويشرب، معناه أنه بشر، فالجملة الثانية إذن ليس أجنبية عن الأولى، بل هي تأكيد لها، فبين الجملتين كمال اتصال كما يقول علماء البلاغة، لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما، لأن العطف يقتضي التغاير، ولو وسطت الواو لكان لكل من الجملتين معنى يختلف عن معنى الأخرى.

وعلى العكس من هذا ما قاله قوم شعيب ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنه بلفظ (قالت: لما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري) حديث رقم (٢٤٤٣) (٤/ ١٨٩٣).

(٢) وليس في ذلك محظور أن تكون اللفظة الواحدة لها أكثر من معنى، وها هو أحد علماء اللغة وهو المبرد (ت٢٨٥هـ-٨٩٨م) يكتب كتاباً في هذا، وهو «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد».

مِثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦] فكلمة (مسحرين) يجب أن تفسر بالمسحرين الذين مسهم الشيطان واختلط عليهم الأمر، وهذا يختلف عن كونهم بشراً، قوم شعيب - إذن - ألصقوا بنبيهم تهمتين: كونه مسحوراً أولاً، وكونه بشراً ثانياً، ولا شك أن كلاً من التهمتين تختلف عن أختها، لذا وسطت واو العطف، لأن العطف يقتضي التغاير كما قلنا، ذلكم هو الإعجاز البياني في الآية.

بقي نوع آخر من الإعجاز، وهو إعجاز تاريخي، لكنه متفرع كما رأينا عن الإعجاز البياني، فالإعجاز البياني هو الأصل والأساس، فما هو هذا الإعجاز التاريخي؟

إننا ونحن نقرأ كتاب الله، يحدثنا عما كان يدور بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقوامهم، نجد أن التهمة بفرية السحر، لم تكن معروفة عند الأنبياء الأول، وإنما كانت متأخرة، وكأن قضية السحر لم تكن مشتهرة عند القبائل الأولى: عاد وثمود، وكل الذي يجيبون به أنبياءهم أنهم بشر يأكلون ويشربون، وأنهم اتبعهم الأرذلون، لذا لا نستطيع أن نفسر كلمة (مسحرين) التي قالها قوم صالح بمن أصابه السحر، لأن السحر لم يكن معلوماً لهم ولا معروفاً عندهم، إن السحر ظهر متأخراً، وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومدين منزل شعيب عليه الصلاة والسلام، لذا كان السحر معلوماً لهم معروفاً عندهم.

وهكذا ندرك نوعي الإعجاز في الآيتين - أعني البياني والتاريخي[1] كما قرر من قبل، والله أعلم، فلله در هذا التنزيل وما أعظم وأجمل رسالة الحرف، ونسأله أن يلهمنا الصواب، وأن يفتح علينا في فهم كتابه.

---

(١) فكلمة (مسحرين) التي قيلت لصالح تعني أنه يأكل ويشرب، وهذه هي البشرية بعينها، فليس هناك مكان للواو، أما ما قاله قوم شعيب عليه السلام، فهو من السحر، وهو زائد عن البشرية، لذا جاءت الواو.

٢- نقرأ في سورة الواقعة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٣-٦٥] ثم نقرأ قوله تعالى عقب الحديث عن (الماء) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠] فلماذا جاءت اللام في آية وحذفت من الثانية؟

الآية الأولى جاءت حديثاً عن الزرع، والثانية عن الماء، ونحن نعلم أن قدرة الناس – فيما يظنون – على التحكم بالزرع أكبر من قدرتهم على التحكم في أمور الماء، لذلك جاءت هذه اللام المؤكدة، فيما يظن الإنسان أن له قدرة عليه، وهو الزرع، لكنها حذفت عند الحديث عن الماء، حيث يعترف الإنسان بعجزه وتقصيره في هذا المجال، وتلكم هي دقة القرآن الكريم، حيث جاءت الكلمة فيه مقدرة بقدرها.

٣-تحدث القرآن الكريم عما خص به أهل الجنة، وعما أنعم الله به على الناس في الدنيا، ففي سورة المؤمنون يمتن الله على الناس بقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩]. ونقرأ في سورة الزخرف: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢-٧٣]. فلم جاءت هذه الواو في الآية الأولى حديثاً عن نعم الله على الناس في هذه الحياة، وحذفت عندما كان الحديث عن الجنة وأهلها؟

إن أدنى تأمل يطلعنا ونحن نتدبر الآيتين الكريمتين على مواطن الإعجاز ودقائق البيان، وسر التعبير وروعة التقدير. إن جنات أهل الدنيا ليست كلها معدة للأكل، فهناك أغراض كثيرة، لعل في مقدمتها التجارة، ومنها التصدق والإهداء.

أما فاكهة أهل الجنة فليست كذلك فإن الهدف الرئيس والغرض الأساسي منها هو الأكل وحده، وأظنكم بدأتم تدركون سر وجود الواو في الأولى وحذفها في الثانية؟

إن الواو حرف عطف – كما تعلمون – ولا بد لها من معطوف ومعطوف عليه، من أجل

ذلك كانت هذه الواو الدالة على أشياء معطوف بعضها على بعض، فكأنه قيل: أنشأنا لكم جنات، لتتجروا، وتدخروا، وتتصدقوا، وتعطوا، ومنها تأكلون كذلك. كان لا بد من هذه الواو - إذن - في الحديث عن جنات الدنيا، لكننا لا نجد لها ضرورة في الآية الثانية، إذ وجودها يكون زيادة يجل النظم الكريم عنها[1].

٤-قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقفت كثيراً مع الآيتين الكريمتين، أتأمل النظم راجياً من الله أن يكرمني بنور الفهم، والفرق بين الآيتين من حيث النظم ظاهر لك، ففي الآية الأولى ذكرت (لا) مرتين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، ولكنها في الآية الثانية لم تذكر إلا مرة واحدة ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ، ويعلم الله أن هذا القرآن يحمل حجته على أنه تنزيل ربّ العالمين، في كل آية من آياته، وأرجو أن تتدبر الآيتين تدبراً جيداً وما أظنك إلا أنك سيرقص قلبك، وتتيه نفسك، ويخشع فؤادك، ولقد وجدت ذلك كله - يعلم الله صدق ما أقول -.

ولعله قد بلغ بك الشوق مبلغاً، لتدرك سر النظم في الآيتين الكريمتين، فالآية الأولى جاءت تحذر المؤمنين من أمرين اثنين: الوهن والحزن، والوهن والحزن أمران ليس من الفضيلة ولا من الخير في شيء، فلا يجوز للمؤمنين أبداً أن يركنوا إلى واحدة من هاتين الصفتين، أو من هذين المرضين الاجتماعيين، اللذين ينخزان جسم الأمة، فيحولان بينها وبين نعمة الأمن، وحلاوة الاستقرار، والقدرة على التحفز، ولذة المقاومة، مقاومة الشر.

أما الآية الثانية: فكان النهي فيها عن أمرين اثنين كذلك: الوهن، وهو ما تشترك فيه مع الآية الأولى، وهو الأمر الأول، أما الأمر الثاني فهو الدعوة إلى السلم، ولكنه لم يقترن بحرف النهي (لا) الذي اقترن به الحزن ! وما ذلك - والله أعلم بما ينزل - إلا لأن الحزن

---

(١) متشابه القرآن للكرماني/ ص ١٣٦.

شر في كل وقت، أما الدعوة إلى السلم فليس كذلك، إنما هو شر حيناً، ولكنه قد يكون خيراً حيناً آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] ولكنه شر حينما يكون استسلاماً وحينما يقترن بالضعف والوهن، كما هو الشأن في أيامنا هذه، فلو أنه قيل: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى السَّلْمِ﴾ لكان محرماً على المسلمين في كل حين وعصر، وليس هذا من شأن الإسلام، لكن نظم الآية على ما هو عليه ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى السَّلْمِ﴾ جاء يحرم على المسلمين الدعوة إلى السلم الناشئة عن الضعف، والتي هي خضوع وخنوع وذل لا يرتضيه الإسلام ولا يليق بالمسلمين.

أرأيت إلى بديع النظم، أرأيت إلى رسالة الحرف القرآني التي يحملها للمسلمين، هذا الحرف ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦].

رابعاً: الجملة القرآنية:

في الجملة القرآنية مظاهر كثيرة من مظاهر الإعجاز، ومن هذه المظاهر ما نجده في بعض الجمل من تأكيد على حين نرى غيرها مما يشبهها خالية من هذا التأكيد، ومن مظاهرها كذلك الحذف والذكر، فقد نجد جملاً ذكرت فيها بعض الكلمات، على حين نجد جملاً أخرى متشابهة لها قد حذفت منها هذه الكلمات، على أننا قد نجد كذلك أن جملاً تامة قد ذكرت في بعض الآيات، ولكنها لم تذكر في آيات أخر، كذلك التقديم والتأخير، قد نجد بعض الجمل قدمت فيها بعض الكلمات، ولكن هذه الكلمات نفسها أخرت في جمل أخرى.

وسنحدثكم هنا عن بعض هذه المظاهر، راجين أن تتدبروا لتدركوا سمو النظم، وتتذوقوا حلاوة الإعجاز.

أ- التأكيد:

(١) يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

هاتان آيتان من كتاب الله تعالى ختمت الأولى بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وختمت الثانية بقوله سبحانه: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وما أظن الفرق بين الجملتين خافياً عليك، ففي الجملة الأولى جاء التأكيد بضمير الفصل (هو) وضمير الفصل هذا إنما يؤتى به للتأكيد، ولفوائد بلاغية ذكرت في كتب القوم، فإذا أردت أن تؤكد على أن الإسلام هو علاج الأمة من أمراضها جميعاً، فإنك تقول: (الإسلام هو العلاج) فتأتي بهذه الكلمة (هو).

أما الفرق الثاني بين الجملتين فهو أن الجملة الأولى جاء فيها الخبر مُعَرَّفاً (الغفور الرحيم) وليست كذلك في الجملة الثانية، وتعريف الخبر يفيد الاختصاص والقصر، ألا ترى أنك تتذوق الفرق بين قولك: (الله ناصر) وبين قولك: (الله هو الناصر)، لأنه في الجملة الأولى كل الذي أثبته وجود النصر من الله، إلا أنه لم يفهم من هذا القول أن غير الله لا ينصر، أما الجملة الثانية فإنها لا تثبت أن الله ناصر فحسب، بل تثبت أكثر من هذا، وهو أن النصر من عند الله وحده، وأنه لا ناصر إلا هو تبارك وتعالى.

وبعد أن عرفت هذا يمكنك أن تتساءل عن سر النظم في الآيتين الكريمتين، فإذا عرفت أن الجملة الأولى كان السياق الذي تحدثت عنه هو مخاطبة أولئك المسرفين على أنفسهم، الخائفين، القانطين، وأن الجملة الثانية إنما جاءت حديثاً عن المؤمنين الذين لم

يكن منهم كبير خطأ ولا عظيم ذنب، ولا كثير معصية، لرقص قلبك، واطمأنت نفسك إلى أن القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم قل لي بربك هل يمكن أن يكون هذا النظم لأمة دون أمة، أم أنه معنى يشترك فيه كل ذي فكر؛ لأنه ليس حديثاً عن جمال الصورة وحدها التي تحدث عنها علماء البيان.

التأكيد في الجملة الأولى – إذن – كان متفقاً مع نفسية أولئك الذين خاطبهم القرآن وكأنهم أسرفوا على أنفسهم ولا ضرورة له في الجملة الثانية، وهكذا ندرك أن ألفاظ القرآن الكريم مقدرة تقديراً دقيقاً في مخاطبة النفوس البشرية، فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

قف مع هذه الآية الأخيرة وستجد أن نظمها يختلف عن الآيات السابقة، فهذه الآية الكريمة كثرت فيها التأكيدات، ولعلك تلحظ هذا، ففي الجملة الأولى من الآية الكريمة ذكر ضمير الفصل (نحن) بعد إن واسمها الذي هو ضمير المتكلم سبحانه، وفي الجملة الثانية منها ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ذكر مع إن واسمها لام التأكيد، ثم جيء بهذه الجملة الاسمية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وبالجملة فقد أكدت هذه الآية الكريمة بمؤكدات كثيرة، وكانت هناك عناية كبيرة بشأنها.

فإذا أنعمت النظر في الآيات وفي الموضوعات القرآنية أدركت سر ذلك، فهذه الآية الكريمة جاءت تتحدث عن شأن خطير من شؤون الأمة، بل هو أعظم شؤونها، ذلكم الشأن هو تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا الكتاب، فلم يكله إلى الناس ليحفظوه كما وكل الكتب السابقة، وفي هذا إقامة الحجة على الأمة، فالأمم إن بدلت وغيرت فذلك

لتبدل كتبها، ولكن القرآن باق لا يتغير، فأي عذر للأمة إن هجرته وتركته واستبدلت به غيره.

الآية الأخيرة – إذن – لم تأت حديثاً عن إنزال القرآن فحسب، كالآيات السابقة، وإنما جاءت تحمل في أثنائها قضية من أخطر بل هي أخطر قضايا الأمة.

(٣) يحدثنا القرآن الكريم عن نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو يدعو قومه ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٢] إننا ونحن نتدبر هذه الآيات الكريمة نلحظ أمراً لا بد أن نقف معه، هذا الأمر يظهر في وجود ضمير الفصل مقترناً ببعض الأفعال دون بعضها الآخر، فقد جاء هذا الضمير مقترناً بالأمور التالية: الهداية، الإطعام، والإسقاء والشفاء، أما الخلق، والإماتة، والمغفرة، فجاءت خاليةً عن هذا الضمير، ولم يكن ذلك ناشئاً عن التفنن في العبارة، أو الاكتفاء بذكره في بعض المواضع دون بعضها الآخر، وإنما جاء ذلك لغرض وهدف ذلك أن قضية الخلق، والإماتة والإحياء، والمغفرة لا ينازع فيها أحد، فلا يستطيعون أن يَدَّعوها لأصنامهم التي يعبدونها ويعكفون عليها ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] فلم تكن هذه القضايا بحاجة إلى التأكيد بهذا الضمير.

أما الأمور الأخرى وهي الهداية والشفاء، والإطعام والسقيا، فهي مما يَدَّعون أن لغير الله فيها شأناً وغيرهم يطلبون منها الهداية والتوفيق والشفاء من أمراضهم، وإذهاب الفقر عنهم، ولذلك وجدناها مقترنة بضمير الفصل، لأنها بحاجة إلى التأكيد الذي يزيل شبهات النفس، ويجعل هذه الأمور جميعاً من أمر الله تبارك وتعالى وحده[١].

---

(١) انظر كتاب درة التنزيل المنسوب للإسكافي/ ص ٣٣٢.

(٤) يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ [النجم:٤٢، ٥٠].

إذا أنعمت النظر في الآيات الكريمة، وجدت أن الخلق والإهلاك جاءا خاليين من ضمير الفصل، وما ذلك إلا لأن أولئك لا ينازعون في قضية الخلق ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] كما أنهم لا ينازعون في قضية الإهلاك، فهي من الأمور المستقرة في أذهانهم، والتي يتناقلها أجيالهم بعضها عن بعض. أما الأمور التي جاءت مقترنة بهذا الضمير فلم تكن كذلك، أما الإضحاك والإبكاء فأمرهما ظاهر، وكذلك الإماتة والإحياء، ذلك أنهم كانوا يقولون ما بينه الله في كتابه ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ولعلك تتساءل ما الفرق بين هذه الآية وبين قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٨١]، حيث اقترنت هذه بضمير الفصل، ولم تقترن الأولى ؟ وهو تساؤل في محله، والجواب عن ذلك – والله أعلم - أن ذاك رد على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإبراهيم عاين إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأمر الإحياء والإماتة عنده عليه السلام بدهي مشاهد، أما الآية التي معنا فلقد جاءت بادي بدء تقريراً لأولئك القوم، فكانت بحاجة إلى هذا التأكيد، كذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ والشعرى كوكب كانوا يعبدونه في الجاهلية، فهم بحاجة إلى أن يبين لهم أن هذا المعبود إنما هو مربوب ومخلوق لله تبارك وتعالى.

ب – الحذف والذكر:

(١) قال تعالى حديثاً عن الزوجين اللذين لا يستطيعان مواصلة الحياة الزوجية ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠] وقال تعالى يخاطب المؤمنين ليحافظوا على شخصيتهم وعقائدهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأظنك تتساءل كما تساءلت أنا قبلك، لماذا ذكر في هذه الآية قوله: ﴿إِن شَآءَۚ﴾ ولم يذكر في الآية السابقة ؟ مع أن كل شيء بمشيئته سبحانه ؟ والذي يلوح لي – والله أعلم بما ينزل – أن الآية الأولى جاءت خطاباً لبعض الأفراد الذين تعسر عليهم مواصلة المسيرة مع أزواجهم، رجالاً كانوا أم نساء، فأراد الله تبارك وتعالى أن يبين لهم سعة فضله وواسع رزقه، وعظيم تيسيره، أما الآية الثانية فجاءت خطاباً للأمة، والأمة لابد أن تتعود التضحية، للمحافظة على عقائدها ومقدساتها مهما كلفها ذلك من ثمن، وقد يؤدي بها ذلك إلى أن تحرم بعض المكاسب، وتتحمل كثيراً من الأعباء، ولذا ذكر فعل المشيئة وفي هذه الآية التي تتحدث عن الأمة، فانظر إلى الروعة العظيمة في كتاب الله، ولقد قلت لك: إن الإعجاز البياني ليس حديثاً عن جمال الصورة وروعة التعبير فحسب، بل هو مع ذلك يشتمل على سمو التوجيه، فهو ينظم شؤون الحياة كلها.

وهذه آية أخرى نستأنس بها بهذا الاستنتاج، ونستعين بها على ما ذهبنا إليه وهي قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٢] فهذه الآية كما نرى لم تتقيد بالمشيئة، لأنها حديث عن شؤون بعض الأفراد والأسر، فهي شبيهة بالآية الأولى ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ ﴾ [النساء: ١٣٠] لكن تلك الآية في شأن انفصال كل من الزوجين عن الآخر، وهذه

تأمر بتزويج الأيامى، والأيم من لا زوج له ذكراً أو أنثى.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ [النساء: ١٩] مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٤] ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢]

ولكن آية النساء نسقها غير هذا كله، فلم يقل فيها: (لا ترثوا النساء كرهاً).

ولقد وقفت عند هذا النص الكريم أبحث عن سر التغاير، وبضم الآيات التي تشبه هذه الآية بعضها إلى بعض مثل قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ظهر لي – والله أعلم، ولله الحمد والمنة – أن هذه الكلمة إنما تجيء بجانب الأمور، أو بجانب القضايا التي كان الناس يزاولونها دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً، أما غيرها من المنهيات فهي أمور تنفر منها الطباع أو ينكرها العرف، فالقتل والزنا، و أكل مال اليتيم، وأكل أموال الناس بالباطل لا يقرها عقل ولا يحلها شرع، أما التحكم في النساء ووراثتهن كرهاً فإنها تختلف عن الأمور السابقة حيث رأينا أن بعض التشريعات والقوانين عند الأمم المتمدينة المتحضرة، كانت تجيز هذه ؟إلى عهد قريب، وهنا تبرز دقة التعبير في كتاب الله في مخاطبة النفس الإنسانية، فالأمور المتفق على تحريمها تلي حرف النهي «لا تقربوا»، «لا تأكلوا»، «ولا تقتلوا النفس» أما ما يظنه بعض الناس حقاً لا مرية فيه ولا غبار عليه، فإننا نجد القرآن يعبر عنه بأسلوب آخر حيث يلي حرف النهي هذه الجملة «يحل».

قولوا لي بربكم أتكون هذه الدقة والموضوعية، وهذه الفروق في التعبير في كلام الناس ؟ لا، لا وألف لا..... إن الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً هو الذي أنزل هذا الكتاب فقدر ألفاظه كذلك تقديراً يتلاءم مع موضوعاته من جهة، و مع نفوس المخاطبين وعقولهم من جهة أخرى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١].

٣-وهاتان آيتان من كتاب الله تعالى نرجو أن تتدبرهما لنرى سمو التعبير ودقة التقدير: الأولى قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] والثانية ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

فإحدى الآيتين: اقتصرت على لفظ الجلالة، وهي آية الحشر، التي تتحدث عن اليهود وعن بني النضير خاصة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر:٢]، أما الآية الثانية التي ذكر فيها سيدنا رسول الله ﷺ فإنها تتحدث عن العرب وعن أهل مكة خاصة، فما هو السر البياني وما هي الحكمة البلاغية؟ حيث ذكر لفظ الجلالة وحده في آية الحشر، وذكر معه الرسول عليه الصلاة والسلام في آية الأنفال؟ إن عداوة أهل مكة كانت عداوة مزدوجة، فهي عداوة للإسلام من حيث هو دين؛ لأنه جاء يبطل عقائدهم وكثيراً من أعرافهم، ثم هي بعد ذلك عداوة لشخص الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، حيث الحزازات والنعرات والعصبية القبلية، فهم ينكرون أن يخص الله من بينهم محمداً، ولم يكن ذا مال، وكان غيره أولى منه في ظنهم ولهم زعماء ووجهاء، أفليسوا أولى - بزعمهم - بالنبوة من محمد عليه الصلاة والسلام، ولقد حدثنا القرآن عن هذا الذي يجول في أنفسهم فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وينكر عليهم هذا القول بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وليست عداوة اليهود كذلك، إن عداوة اليهود للدين أياً كان نبيه، هاشمياً أم غير هاشمي، قرشياً أم غير قرشي، أظنكم بدأتم تدركون دقة التعبير، فالقرآن كما نعلم قدرت ألفاظه تقديراً محكماً يقتضيه المعنى والسياق، والموقف المتحدث عنه، لذا ذكرت كلمة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام في سورة الأنفال، حيث كان هناك داع وسبب لذكرها، لكنها حذفت من سورة الحشر. وهكذا ندرك أن لكل من الحذف والذكر في القرآن الكريم دواعيه ومقتضياته.

٤- ذكر الجهاد كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى أمراً للمؤمنين به تارة وثناء عليهم تارة أخرى.

فمن الضرب الأول في قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٤١].

ومن الضرب الثاني قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ -٢٢].

وهكذا نجد الآيات الكريمات في كتاب ربنا وهي تذكر الجهاد، تذكر له متعلقين اثنين:

- فهو بالأموال والأنفس من جهة.

- وهو في سبيل الله من جهة أخرى.

كل ما في الأمر قد يتقدم المتعلق الأول كما جاء في الآية الأولى، وقد يتقدم المتعلق الثاني كما جاء في الآية الثانية.

والذي يعنينا الآن هذه الآية الكريمة : ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨ – ٨٩].

فعبارة في (في سبيل الله) لم تذكر في هذه الآية الكريمة. وما أظن البحث عن السبب يكلفنا كثير فكر، وكبير عناء، فالآية جاءت تتحدث عن الرسول ﷺ وأصحابه البررة الذين شرفوا بمعيته، وهؤلاء لا يكون جهادهم – بالطبع – إلا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، من أجل هذا لم تذكر (في سبيل الله).

أما غيرها من الآيات الكريمات، فكانت إرشاداً للمؤمنين أن يخلصوا العمل فلا تشوبه شائبة رياء ليكون مقبولاً عند الله – تبارك وتعالى – ولن يكون كذلك إلا إذ اكان في سبيل الله.

٥- نقرأ في كتاب الله - تبارك وتعالى - هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات ١٥-١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:١٩-٢٥].

فكلمة (معلوم) ذكرت في آيات سورة المعارج، ولم تذكر في آيات سورة الذاريات، وسبب ذلك فيما يبدو لي - والله أعلم بمراده - أن الصفات التي ذكرت في سورة الذاريات، لا يبالي أصحابها بالمال الذي ينفقونه، فهم لا يخشون من ذي العرش إقلالاً، وكلما زكت نفس الإنسان كلما تغلب على شحه، ورضي الله عن سيدنا أبي بكر، وقد قال كلمته الشهيرة المأثورة التي ستظل نبراساً هادياً، وقد سأله الرسول ﷺ: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله[1].

أما آية المعارج، فكل ما ذكر فيها المصلون، ولسنا مع بعض المفسرين الذين يرون أن آية المعارج قد قصد بها الزكاة، لأن كلتا السورتين مكية - كما نعلم - والزكاة إنما فرضت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ولكنها كلمات القرآن تذكر - إن ذكرت - لهدف وغاية، وتحذف كذلك لهدف وغاية.

ج - التقديم والتأخير:

(١) كثير من الآيات الكريمة ختمت بذكر أسماء الله عز وجل وصفات من صفاته،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يلمس فيها أسرار الإعجاز ولطائف البيان ظاهرة بينة.

وكثير من هذه الآيات – بل أكثرها – نجدها تجمع بين اسمين أو صفتين لله تبارك وتعالى، ونجد أن بعض هذه الأسماء يطرد تقديم بعضها على بعض، فكثير من الآيات ختمت بقوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ و ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ولا نجد آية خرجت عن هذا النظم البديع، ليست هناك آية قدمت فيها الحكمة على العزة، فلم نقرأ (إن الله حكيم عزيز)، أو العزة على القوة (عزيز قوي) كما لم نجد أي آية قدم فيها البصر على السمع (بصير سميع)، ولا نجد آية كذلك قدم فيها خبير على عليم ذلك لأن الترتيب الطبيعي والمنطق البياني يستلزم ما جاء عليه النظم القرآني.

فإذا اجتمعت العزة و الحكمة، فحري أن تقدم العزة، لأن الحكمة لن تؤتي ثمارها، ولن تكون لها نتائجها إلا إذا سبقتها العزة، ونقيض العزة الذلة، وما أبعد الذلة عن الحكمة.

لكننا نجد أن القوة قدمت على العزة في مثل قول الله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ذلك لأن العزة بدون قوة دعوى لا تثبت أمام الأحداث، ولا تقوى على البقاء.

وكذلك السمع والبصر، نجد السمع يقدم على البصر في القرآن كله، سواء أكان ذلك في أوصاف الله تعالى، أم من أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم، مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[النحل: ٧٨].

وكذلك العلم والخبرة، لأن الخبرة أخص من العلم، لذا لم نجد آية جاء فيها (خبير عليم).

لكننا ونحن نتدبر الآيات الكريمة، حيث نجد أن بعض الأسماء الجليلة، قدم بعضها على بعض في بعض الآيات، وأُخر في بعضها الآخر، ونتدبر نماذج من الآيات الكريمة.

الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة:

جميع الآيات في كتاب الله تبارك وتعالى، قدمت فيها المغفرة على الرحمة، لأن المغفرة ستر للذنوب، أما الرحمة فتفضل و إنعام زائد على مغفرة الذنوب، لذا قدمت المغفرة على الرحمة، والتخلية مقدمة على التحلية.

لكننا نجد آية واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى قدمت فيها الرحمة على المغفرة، وهي قوله سبحانه في أول سورة سبأ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢]، فلم كانت هذه الآية بدعاً من أخواتها؟

إن المتدبر للسياق القرآني يمكن أن ينعم بالحكمة البيانية والموضوعية كذلك، التي جاء عليها نظم الآية القرآنية. إن السياق الذي جاءت فيه سياقُ القدرة والعلم، سياق العناية بهذه المخلوقات كلها، ما في السماوات وما في الأرض، ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ورحمة الله تبارك وتعالى تتجلى لهذه المخلوقات جميعاً، الشمس والقمر. والليل والنهار، والنجوم والجبال، والماء والمرعى، والنار والهواء، كلها تظهر فيها الرحمة، لذا كانت الرحمة جديرة بالتقديم في هذه الآية وحدها من كتاب الله.

أما غيرها من الآيات والتي قدمت فيها المغفرة على الرحمة، فقد ذكرت كلها في سياق ذنوب العباد، أو في سياق تقصيرهم فيما أمروا به. أما الآية التي قدمت فيها الرحمة على المغفرة، فليس فيها شيء من هذا كله، لا من ذنوب العباد، ولا من تقصيرهم فيما أمروا به.

أرأيتم إلى هذا البناء المحكم، وهذا النظم البديع ؟

الأنموذج الثاني: العلم والحكمة:

أكثر الآيات الكريمة جاءت على هذا النظم (إن الله عليم حكيم) أو(إن ربك عليم حكيم)، ولكننا نجد بعض الآيات قدمت فيها الحكمة على العلم، قال تبارك وتعالى يحدثنا

عن أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم ﷺ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩-٣٠].

والمتأمل في السياق، والمتدبر للآيات الكريمة، يجد أن هذا التقديم أو التأخير كان أمراً يحتمه المعنى ويتطلبه الموضوع، وتقتضيه الحكمة، فأما تقديم العلم على الحكمة، فأظنه ظاهراً لا يحتاج إلى بيان، إذ من مقتضيات الحكمة أن يسبقها العلم، وإليكم بعض هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

أما تقديم الحكمة على العلم فنجد أن الموضوعات التي جاء فيها هذا النظم، كانت الحكمة فيها هي الأساس، فبشارة إبراهيم وامرأته بالغلام، حيث يتعذر الحمل والإنجاب ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢]، أمر الله فيه حكمة ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠] .

ولا نود أن نستقصي هنا فنقف مع كل آية، وما على القارئ إلا أن يتدبر الآيات، ليدرك بذوقه و إحساسه وفكره وعقله دقة النظم، وسمو المعنى.

الأنموذج الثالث: المغفرة والحلم:

ختمت بعض الآيات الكريمة بهذين الاسمين الجليلين، تارة تتقدم المغفرة وأخرى يتقدم الحلم، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

تدبر الآيتين الأوليين، وهما مدنيتان، تجد فيهما – وهما خطاب للمؤمنين – تحذيراً من مخالفة حدود الله، والخروج على شرعه، لذلك قدمت فيهما المغفرة، والمغفرة ستر الذنب كما قلت .

وتدبر الآيتين الأخريين وهما مكيتان، وليستا خطاباً للمؤمنين، تجد أنهما تتحدثان عن العناية الربانية، فالله سبحانه لا يعجل العقوبة للناس، وهذا هو المراد بالحلم، إن سياق الآيتين الأخريين بعيد عن سياق الآيتين الأوليين، كذلك كان نظمهما غير نظمهما .

إن التقديم والتأخير في فواصل الآيات التي ذكرت فيها أسماء الله وصفاته، موضوع حري بالدرس، بل يستحق مؤلفاً خاصاً له فهو جدير بهذا، وسيجد الباحثون أسراراً مليئة بالحكم والفوائد.

(٢) صفات المؤمنين:

نقرأ في آخر آية من سورة الفتح ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩]، على حين نقرأ في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ففي كل من الآيتين ذكر للمؤمنين وصفان اثنان: فالآية الأولى قدمت فيها (الشدة على الكفار)، أما الثانية فقدمت فيها (الذلة على المؤمنين)، فلم هذا التقديم والتأخير في الآيتين؟ وما هو السر البياني؟

إن الآية الأولى من سورة الفتح، وهي تتحدث عن الجهاد ومجالدة الأعداء، لذا كان من

الحكمة أن تقدم فيها الشدة على الأعداء، أما الآية الثانية، فالسياق الذي جاءت فيه وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ونهيهم عن موالاة غير المؤمنين، لذا جاء نظم الآية على ما هو عليه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويزداد الأمر وضوحاً لك إذا عرفت أن سورة الفتح جاءت تتحدث عن صد المشركين، صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام، وعن أن يتموا عمرتهم، وسورة المائدة بدأت بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود، وهذه العقود تشمل ما بينهم وبين الله، وبينهم وبين الناس، ومن أهمها أن يكون ولاء المؤمن لله ورسوله والمؤمنين .

(٣) نقرأ في وصف المنافقين، وفي وصف الكافرين، هاتين الآيتين من سورة البقرة، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وتقديم الصم، هنا جاء في غاية الإحكام، لأن بداية ضلال أولئك الأقوام، حينما أصاخوا بسمعهم عن آيات الله التي تتلى عليهم .

ونقرأ في مشهد من مشاهد يوم القيامة عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧] لقد تغيرت الصورة هنا، لذلك تغيّر معها نسق القول، ذلك لأن السماع لم ينفع أولئك الناس يوم القيامة شيئاً ولا يعود عليهم بخير، ثم إن العمى هو من أشد الأمور مشقة وأكثرها صعوبة عليهم في ذلك اليوم[1].

(٤) ونقرأ قول الله تعالى يحث المؤمنين على العدل والقسط: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥] .

---

(١) وهناك فرق آخر وهو أن هذه الآية التي تتحدث عن يوم القيامة تحمل على حقيقتها، فهم يحشرون كذلك، يفقدون هذه الحواس الثلاث. أما آيتا البقرة، فالمقصود منهما التشبيه، لأن الكافرين والمنافقين لم يكونوا كذلك بل لهم آذانٌ وأعينٌ وألسنةٌ، لم يستعملوا حواسهم فيما هو خير فكأنهم لا حواس لهم.

وقوله سبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة : ٨]. فإذا عرفنا أن هذه الآية نزلت في شأن العدل مع أعداء الإسلام ، وأن الأولى نزلت في شأن تحقيق العدل مع ذوي الرحم، أدركنا سر النسق في الآيتين الكريمتين. فعدم العدل مع الأعداء ربما يظن أنه من الأمور المستحسنة التي يتقرب بها إلى الله، لذا تقدمت فيه كلمة (لله) ولا كذلك الآية الأولى لأن القسط فيها هو الأهم .

(٥) نقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال : ١١] ، ونقرأ قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران : ١٥٤].

فانظر كيف قدم النعاس في الآية الأولى على الأمنة ، وأخر في الآية الثانية ، ويقيناً لا بد من حكمة بيانية لهذا النظم البديع .

فإذا عرفنا أن آية الأنفال كانت في بدر ، وأن آية آل عمران في أحد ، وعرفنا أن حاجة المسلمين في بدر كانت إلى الراحة والنوم، لأن الله قد تكفل لهم بالنصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين ، أما في أحد فقد كانت حاجتهم بعد أن أصابهم ما أصابهم إلى الأمن والطمأنينة، إذا عرفنا ذلك أدركنا سر التقديم والتأخير في الآيتين الكريمتين فقدم في كل آية ما يتلاءم مع ظرف الجماعة المسلمة وحاجتهم .

(٦) نقرأ قول الله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١]. فالآية الأولى ، وكثير مثلها في كتاب الله تعالى تتحدث عن الجهاد في دور الإعداد ، ومن مقدماته الضرورية المال . لكن الآية الثانية تتحدث عن القتال في معمعة الوغى، لذلك قدمت الأنفس بدليل : ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة : ١١١]

(٧) **الجن والإنس** : تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الجن و الإنس ، ولكن الذي يلفت الانتباه ، ما نجده في النظم القرآني البديع ، من تقديم الجن تارة ، وتقديم الإنس أخرى ، وهذا ما يستدعيه السياق ، وتوجيه الحكمة البيانية ، ففي سياق التحدي بالقرآن الكريم ، يقدم الإنس على الجن ، لأن الإنس هم المقصودون بالتحدي أولاً وقبل كل شيء قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

أما في سياق التحدي بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض، فلقد قدم الجن لأنهم أقدر على الحركة من الإنس ، قال تعالى : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣].

أما قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦].

فلقد قدم الجن على الإنس؛ لأنه قد روعي السبق الزمني ، فإن الجن مخلوقون قبل الإنس .

وهكذا نجد الكلمة القرآنية تقدر في مكانها الذي جاءت فيه ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦]، ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ [الزمر: ١] .

(٨) **الصبر والتقوى** :

ومن جمال النظم القرآني أن نقف مع هاتين الآيتين الكريمتين، أما الآية الأولى فهي قوله سبحانه في سياق تحذير المؤمنين من موالاة أعدائهم، ونهيهم أن يتخذوا بطانة من دونهم: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] أما الآية الثانية فهي قوله سبحانه حديثاً عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

ففي مجال مكائد الأعداء ، وعدم موالاتهم، وعدم اتخاذهم بطانة ، وفي مجال التحذير من الوقوع في شرك الأعداء – وما أكثر الذين يفتتنون فيوالون أعداء الله – في هذا المجال يقول الله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦] فانظروا كيف قدم الصبر في هاتين الآيتين؛ لأنهما تتحدثان عن شؤون المؤمنين مع أعدائهم .

أما في الأمور المعتادة بين الناس فقد قدمت التقوى ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فالشأن هنا بين يوسف وإخوته .

وهكذا نجد أن لكل من الحرب والسلم سياقه الخاص به ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] .

خامساً : الفاصلة القرآنية :

يقصد بالفاصلة القرآنية ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية ، فكما سموا ما ختم به بيت الشعر قافية ، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة .

وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين (حدثوا أن رجلاً في عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قرأ ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ قرأها (غفور رحيم) فقال أعرابي: لا يكون ، وفي رواية أخرى أنه قال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم ، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه)[1].

وروي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر : ١٣ -١٤] بفتح الكاف (كَفَرَ) ، فقال الأعرابي : لا يكون، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء (كُفِرَ) فقال الأعرابي يكون [2].

هذا ما ذكره الأعرابي بطبعه وسليقته وسجيته ، ولكننا وجدنا أناساً في القرن العشرين ، وقفوا غير هذا الموقف ، نحن لا ننكر على الناس أن لا يعلموا كل شيء ، ولكننا ننكر أن يدّعوا علم كل شيء ، نحن لا نعجب ولا نستهجن أن يرد الحق خصومٌ ألداء، عرفوا بتعصبهم وتحيزهم ، نحن لن نفاجأ إن سمعنا من مبشر حاقد ، أو مستشرق جاحد ، إن سمعنا من هذا أو ذاك طعن على كتاب الله ، ودين الله، لكن الذي كنت لا

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٢٦٩).

(٢) البيان (٢/ ١٧٤) . قال الزمخشري في قوله تعالى:﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]: وهو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً، لأن النبي نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة، ومن هذا المعنى ما يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حمدتُ الله عليها. الكشاف: ٤/٤٣٥.

أوده أنا وأنت أيها القارئ معاً ، أن نجد مصدراً من مصادر المعرفة، طالما روّج له أصحابه وأحاطوه بهالات فخمة من الإجلال والتبجيل، وسوروه بأسوار البحث العلمي والنزاهة ، وألبسوه لباس الحقيقة ، بل عدوه حصناً من حصون المعرفة ، أن نجد من وصفوه بهذه الصفات ، بعيداً عن ذلك كله ، بل هو فوق ذلك ممعن في الافتراء ، بعيد عن النزاهة في البحث، مناف لقواعد العدل وأسس المنطق ، تلك هي دائرة المعارف البريطانية التي استدلت على أن القرآن مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية ، استدلت على هذه الدعوى بالفواصل القرآنية ، حيث جاء فيها : «وكان القرآن يعطي للقارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية ، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات ، بآيات مثل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٠٩] ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦] ، وأن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية .

ولقد رددنا هذا القول رَدّاً مفصلاً في كتابنا قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، وغرضنا هنا أن نبين لكم بإيجاز هذا الإعجاز في اختيار الفاصلة القرآنية ، فالفاصلة القرآنية لم تأت لغرض لفظي فحسب ، وهو اتفاق رؤوس الآي بعضها مع بعض ، وهو ما يعبرون عنه بمراعاة الفاصلة، إنما جاءت الفاصلة في كتاب الله تعالى لغرض معنوي يحتمه السياق، وتقتضيه الحكمة ، ولا ضير أن يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يتصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع ، ونرجو أن تتذوقوا ذلك كله ، أعني دقة المعنى وجمال اللفظ فيما نمثل به من آيات قرآنية كريمة .

وبادئ بدء نبين أن بعض هذه الفواصل القرآنية يمكن أن يدركه القارئ بأدنى تأمل ، فهو لا يحتاج إلى كثير فكر ، وكبير عناء ، على حين نجد بعضها الآخر بحاجة إلى تدبر وتأمل .

فمن النمط **الأول** بعض الفواصل التي ادعت دائرة المعارف البريطانية أنها منقطعة عما قبلها ، لا صلة لها بها البتة .

١-في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦].

أي منصف بل أي عاقل يدّعي أن هذه الفاصلة غير متصلة بما قبلها ؟ بل أي فاصلة يمكن أن تصلح بدل هذه الفاصلة ؟ يخاطب الله المؤمنين ، وقد كتب عليهم القتال والجهاد ، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم ، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم ، وربما يحبون شيئاً تكون فيه نهايته شراً لهم ، ووبالاً عليهم ، إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك .

أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي ختمت بها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

٢- وفي السورة نفسها تذكر الآيات بعض أحكام الطلاق ، وتنهى أولياء النساء أن يمنعوهن من الرجوع إلى أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، فبين لهم أن ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأن ذلكم هو أزكى لهم وأطهر، وتختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتمام الآية هو: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

قل لي بربك أي فاصلة يمكن أن تصلح لهذه الآية الكريمة ؟ وهؤلاء الإخوة والآباء يريدون أن يمنعوا أخواتهم أو بناتهم من الرجوع إلى أزواجهم ، وإنما يريدون ذلك أنفة واستجابة لدواعي الحمية أو انتقاماً من أولئك الأزواج ، من غير تفكير في النتائج والعواقب التي يمكن أن تنتج عن مثل هذا التصرف الخاطئ ، ما نظن أن هناك فاصلة ترجع أولئك الأولياء إلى رشدهم ، وتخوفهم من عواقب تصرفاتهم ، أجدى وأولى مما ختمت به الآية الكريمة .

أما النوع الثاني ، وهو ما يحتاج إلى تدبر وتأمل ، فمن هذا القبيل :

١- قال تعالى في سورة السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الآيات : ٢٦- ٢٧] ، فقد ختمت الآية الأولى بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ والثانية بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فما سر ذلك ؟

لن يحتاج الأمر منك إلى كثير تأمل ، فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة من قبل هؤلاء ، فهو حديث التاريخ -إذن- وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض ، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع متاعاً لهم ولأنعامهم ، وأمر التاريخ - لا ريب - يسمع سماعاً ، ولذا ختمت بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ، ولكن ما يشاهدونه يبصرونه إبصاراً، ولذا ختمت بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾.

قل لي بربك أي دقة تلك التي في الآيتين الكريمتين ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؟!

٢- في سورة العنكبوت نقرأ هذه الآيات ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [آية : ٤١] وبعد هذه الآية نقرأ قول الله: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [آية : ٤٣] .

فكر فيما عرفه الناس من أمر العنكبوت اليوم ، من حيث قوة خيوطه ، ومن حيث الفوضى الأسرية، - إن صح التعبير - والتمزق العائلي وعدم النظام ، فلقد قالوا: إن خيوط العنكبوت أقوى من خيوط الحرير ، ولكن الفوضى تدب في بيته ، فربما أكلت الأنثى زوجها، وبالتالي فالفوضى التي تدب في بيت العنكبوت لا مثيل لها البتة في بيت آخر ، إلا أن تكون في أمتنا العنكبوتية في عصرها الحاضر لا في عصورها الماضية ، أليس ذلك يحتاج إلى علم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؟ فانظر كيف ختمت الفاصلة بذكر العالمين لأن قضية العنكبوت لا يدركها إلا أولئك .

٣- ولقد نبه الزمخشري وغيره من الأئمة على ما في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٣] فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله: ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لأن المشاعر هي الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه، وهو الجهل ناسب أن تختم بالعلم.

قال الزمخشري – رحمه الله- فإن قلت : فلم فصلت هذه الآية بـ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ والتي قبلها بـ ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق، وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاير والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له[1].

٤- كما نبهوا على هذه الآيات في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام : ٩٧-٩٩] وختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فلما كانت قضية النجوم مما يعلمه العرب ويمكن أن تعرفه الأمم الساذجة كذلك ختمت بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولما كانت قضية النفوس دقيقة، لا يطلع عليها إلا الخاصة، ختمت بقوله تعالى: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لأن الفقه أخص من العلم، فهو

---

(١) الكشاف (١/ ٦٥)

العلم بدقائق الأمور، ولما كانت الآية الثالثة تظهر فيها دلائل القدرة الإلهية ختمت بقوله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

وأخيراً نذكر لك هذه الفاصلة ، وهي في قوله سبحانه وتعالى حديثاً عن السحر في سورة طه: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه :٧٠] مع أن غيرها من الآيات قدم فيها موسى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ٤٧-٤٨] فذهب بعضهم إلى أن موسى أخر في هذه الآية مراعاة لفواصل السورة ، حيث إن السورة كلها وهي سورة طه تنتهي بهذه الفاصلة ، ولقد قلت لكم من قبل، إننا مع تقديرنا لجمال الإيقاع وفنية الجرس ، لكننا لا نراه السبب الذي من أجله جيء بهذه الفاصلة بل لا بد من سبب آخر يتصل بالمعنى والسياق.

وذهب بعضهم إلى أن هذه الآية جاءت هكذا لأنها تحكي لنا ما قاله السحرة فبعضهم قال : (رب موسى وهارون) وبعضهم قال : (رب هارون وموسى) فحدثتنا كل آية عن فريق من أولئك المؤمنين، ونرى أن هذا لا يقدم لنا حلاً مقبولاً ولا يعطينا جواباً مقنعاً ، فالتساؤل لا يزال باقياً ، لماذا قدم هارون في سورة طه ، وأُخِّر في غيرها من السورة القرآنية ؟ إن الأمر – إذن – يحتاج إلى فكر وبحث .

الذي يبدو لي – والله أعلم بما ينزل – أن سورة طه هي السورة الوحيدة التي حدثتنا عما كان من موسى عليه الصلاة والسلام من خوف ، وكان حرياً به أن لا يكون منه ذلك ، فهارون أولى بالخوف من موسى عليهما الصلاة والسلام ، لأنه لم يشاهد ما شاهده موسى ولم يشرف بمناجاة الحقّ، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه : ٦٧-٦٨] ، فكان حرياً أن يكون رابط الجأش ثابت الجنان[1].

(١) ولقد ذكر في أول السورة الكريمة من أنه عليه الصلاة والسلام نهي عن الخوف حينما ألقى العصا ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١] وهكذا جاء في سورتي النمل والقصص ، بل ذكرت سورة النمل ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، فما كان ينبغي منه عليه الصلاة والسلام أن يوجس في نفسه خيفة.

من أجل ذلك يلوح لي أن هارون عليه الصلاة والسلام قدم في هذه السورة ، وهي قيمة قرآنية عظيمة حري بنا أن نقف عندها ونتدبرها وهي تقدير كل عامل بعمله .

ولا نود أن نسترسل معكم في الحديث عن الفاصلة القرآنية ، فإن كل فاصلة تظهر فيها الدقة والإحكام ، ويظهر فيها وجه الإعجاز مشرقاً متألقاً ، وإنما نرجو أن نكون وضعنا أيديكم على مكمن السر البياني ، وسلكنا بكم الطريق لتتدبروا ، ولتقفوا مع كل فاصلة في كل آية كريمة ، وسيظهر لكم ما حدثناكم عنه ، وصدق الله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١].

بقيت قضيتان في الإعجاز البياني ، جديرتان بالإشارة إليهما، حريتان أن ننبه عليهما، وهما قضية التكرار وقضية الزوائد ، أما قضية التكرار فلنا فيها بحث نشرته مجلة الشريعة الإسلامية الكويتية ، وقد وفقنا الله حيث توسعنا بالحديث عن هذه القضية ، وزدنا في هذا البحث لنخرجه كتاباً إن شاء الله ، أما قضية الزوائد فقد كتبنا فيها كتابين أحدهما لطائف المنان وهو مطبوع متداول ، وأما الثاني فهو سلامة الحرف من الزيادة والحذف ، وكان أصله بحثاً نشر في مجلة الشريعة الآنفة الذكر ، وقد زدنا فيه كذلك لنخرجه في كتاب أن شاء الله ، فنحدثك بإيجاز عن هاتين القضيتين:

سادساً: قضية التكرار:

إن قضية التكرار ذات صلة وثيقة بموضوعنا الذي نتحدث عنه. وتلك قضية بدهية، ذلك أننا نجد في النظم مواضع متشابهة، سماها بعض الباحثين تكرارا، والحق أن هذه الموضوعات ذات صلة وثيقة بالإعجاز، فالناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والطعن، يجدون لأول وهلة أن هناك قضايا قد ذكرت أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع كالقصص، وموضوعات العقيدة، وبعض الجمل والآيات، وسموا ذلك تكرار.

ومع إجماعهم على هذه التسمية إلا أنهم اختلفت فيه مذاهبهم وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في أحوال الناس، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري، فالكثرة الكثيرة من هؤلاء مسلمين كانوا أم غير مسلمين، رأوا أن في هذا التكرار سحر بيان، وتثبيت بنيان فعدوه بلاغة وإعجازاً ووجدوا فيه منهجاً قوياً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع وأساطين التربية ذوو الاختصاص في فن الإعلام والدعاية.

وفئة قليلة عميت أو تعامت هيمن عليها الحقد، فعدت هذا مثلبة ومطعناً في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية، ولذا رأينا أن أباطيل أولئك لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً من أعداء القرآن، الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة بل على العكس من ذلك، وجدنا أن هذا القرآن يملك عليهم كل شيء، وإن لم يؤمنوا به، هذه الأباطيل - إذن – ظهرت فيما بعد، حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله من كل صوب، وتألبوا حسداً عليه، فبدأ الحديث عن شبهة التكرار، فكان لابد من أن يشمر العلماء عن سواعد الجدّ ليردوا إلى

النحور الظالمة سهام الحقد.

ولانود أن نطيل الحديث معك عن آراء العلماء قديماً وحديثاً، ولكننا نوجز لك القول:

ذهب كثير من العلماء إلى أن التكرار في القرآن الكريم إنما يذكر لتأكيد ما يريد القرآن تقريره في النفوس، فإذا أردت أن تقرر شيئاً في النفوس فينبغي أن تكرره، ومن هنا قالوا إن آيات العقيدة قد كررت في كتاب الله لتثبت العقيدة في النفوس، وكذلك القصة القرآنية، كذلك بعض الجمل القرآنية، ومع إجلالنا وتقديرنا لأولئك العلماء، لكن الذي نطمئن لتقريره بعد تدبر لكتاب الله، وإنعام النظر وإجالة الفكر، وإطالة الوقوف مع آيات الكتاب أن لا تكرار البتة في كتاب الله تبارك وتعالى.

والموضوع متشعب الأطراف متعدد الجوانب، لا نستطيع أن نجمع مسائله ونضمها بعضها إلى بعض في هذا الكتاب، لكننا نقف نحن وأنتم بعض الوقفات، فمما قيل إنه قد كرر في كتاب الله:

١ - آيات العقيدة.

٢- القصص القرآني.

٣- بعض الجمل والآيات.

أما آيات العقيدة فالمتدبر لها، يجد أنها خالية من التكرار، لأن كل موضع قررت فيه العقيدة، نجد فيه معنى ومعلماً وفائدة، لا نجدها في الموضع الآخر، وأنقل هنا كلمة جيدة في هذا الموضوع لحجة الإسلام الإمام الغزالي – رضي الله عنه –، وهو يتحدث عن أسماء يوم القيامة وما فيها من أهوال، يقول – رضي الله عنه- وقد وصف الله بعض دواهيها: القيامة وأكثر أساميها، لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب، بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كل

اسم من أسماء القيامة سر، وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها[1].

أما عدم التكرار في القصة القرآنية فهو أوضح وأظهر، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء، وإن الذي يتدبر القصة القرآنية في جميع فصولها، والمواضع التي ذكرت فيها يطمئن كل الطمأنينة بأن لا تكرار في القصص القرآني، ولقد استولت عَلَيَّ هذه الفكرة ردحاً من الزمن، فكانت نتيجة ذلك هذا الكتاب الذي وفق الله تبارك وتعالى لكتابته (القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته) فهو يعالج هذه القضية، ونتيجة هذه الدراسة أن لاتكرار في القصة القرآنية، وهذا ماسبقني إليه كثير من العلماء والمحققين. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها، هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري، والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقى إيقاعها المطلوب.

ويحسب الناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في سورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق وطريقة الأداء في السياق، وإنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار[2].

ولنضرب لكم مثلاً عملياً بقصة واحدة من قصص القرآن الكريم، وهي قصة آدم عليه الصلاة والسلام: يقول الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق (إنها – أي

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥١٦).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٦٤) الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م.

قصة آدم – وردت في ست سور، في البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه[1]، ففي سورة البقرة وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به، فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة وتعليمه الأسماء كلها.

وفي سورة الأعراف وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً مايشكرون الله، الذي مكنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معايش، ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان.

وفي سورة الحجر وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة إبليس وعدائه لآدم وذريته[2].

أما الادعاء بوجود تكرار في آيات وألفاظ من كتاب الله، فلا صحة له، ونذكر لك بعض هذه الآيات التي ادعي أن فيها تكراراً، مناقشين لها، لتدرك، أن كتاب الله خال من شبهة التكرار.

١-قال تعالى في شأن تحويل القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] ويعد هذه الآية يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٤٩-١٥٠].

---

(١) ولم يذكر سورة ص ، وسورة ص جاءت في عنفوان خصومة قريش للنبي ﷺ حينما عجبوا أن جاءهم نذير منهم، وعجبوا أن جعل الآلهة إلهاً واحداً، وطلب بعضهم من بعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم، بدأت القصة فيها بهذه التسلية للنبي ﷺ بعد قوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧٠ – ٧١].

(٢) مجلة لواء الاسلام، العدد السابع، السنة الرابعة، ص ٥٣٧ – ٥٥٤.

هذه الآيات الكريمة حينما يقرؤها القارئ، يجد أن الأمر بتولية الوجه شطر المسجد الحرام قد ذكر أكثر من مرة، فيذهب الكثيرون إلى أن ذلك للتأكيد.

ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن الآيات الكريمة لم تذكر للتأكيد فحسب، وإنما كان لكل واحدة منها غرضها الذي تؤديه، وغايتها التي تقصد إليها، فنحن نعلم خطورة قضية القبلة، من حيث إنها جاءت تلبية لرغبة النبي ﷺ من حيث ما فيها من استقلال شخصية المسلمين في عبادتهم، ولقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أول نسخ في الإسلام، لذا وجدنا هذه العناية في شأن هذا التحويل، ومع ذلك كان لكل آية مغزى خاص بها.

فالآية الأولى جاءت تبين للنبي ﷺ والمؤمنين، أن هذه القبلة التي تمنيتموها – ورغبتم فيها – وقد علم الله ذلك منكم – أجابكم الله لما طلبتم، وأما الآية الثانية فلقد كان الأمر فيها لبيان قضية أخرى، وهي أن هذه القبلة التي أمركم الله أن تتحولوا إليها لن تنسخ أبداً وهي القبلة الباقية، وأما الآية الثالثة فجاءت تبين أن الهدف من هذا الأمر بالتحول إلى القبلة، من أجل أن تقطعوا دابر كل قول فلا يبقى للناس عليكم حجة.

وهكذا – إذن – نجد أن أمر التكرار لا يستقيم مع غاية الآيات الكريمة، وإنما اخترنا ذلك القول، وعللنا كل أمر بما يناسبه أخذاً من الآيات نفسها، فالأمر الأول بالتولية شطر المسجد الحرام جاء عقب قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ وأما الأمر الثاني فقد جاء بعده قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ومعنى هذه الجملة الكريمة أنه حق ثابت لن ينسخ أبداً، أما الآية الثالثة فالأمر فيها ظاهر، فلقد ذكر عقبها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٢-في سورة آل عمران ذكرت هذه العبارة الكريمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ مرتين متجاورتين: أولاً: في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ

ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] وثانياً: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

الناظر في السياق القرآني يجد أن كلاً من التحذيرين جاء عقب قضية خطيرة مهمة، جاء الأول بعد نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء، وهي قضية عني بها القرآن الكريم بعامة، وعنيت بها سورة آل عمران بخاصة، وما أصاب المسلمين اليوم من ضعف وخور وهزال ما هو إلا بسبب هذه الموالاة، وجاء الآخر في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالتحذير الأول يترتب عليه العذاب الدنيوي من تفرق وتمزق وذلة ومسكنة، أما التحذير الثاني فيترتب عليه العذاب الأخروي ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم:٣٣].

٣-ومن أقوى ما تمسك به القائلون بالتكرار سورة الكافرون بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ السورة الكريمة عدا البسملة ست آيات، أولاها خطاب للنبيّ ﷺ فيها نداء للكافرين وهي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وآخر آية حكم ونتيجة وهي ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ ومابين هاتين الآيتين آيات أربع يمكن أن نقسمها من حيث المعنى إلى مجموعتين، المجموعة الأولى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن الرسول لا يعبد ما يعبده الكافرون، والمجموعة الثانية: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وهما الآيتان الثالثة والخامسة، وهما تنفيان عبادة المشركين لما يعبد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام.

والذين ذهبوا إلى التكرار قالوا: إنه للتأكيد، وممن ذهب إلى هذا القول ودافع عنه بقوة، واستدل له بأقوال العرب وبما جاء من أشعارهم الفراء، ولكن الجمهور من العلماء ذهب

إلى غير هذا، ذهبوا إلى عدم التكرار في السورة الكريمة، وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم في تفسير الآيات تفسيراً يبعد القول بالتكرار.

ولا أود أن أقحمك أيها القارئ الكريم في كل ما ذكروه، فأدخلك في متاهات قد يصعب عليك الخروج منها، وتمييز بعضها عن بعض، ولكنا نود أن نسلك بك إن شاء الله تعالى مسلكاً لا وعورة فيه، غير حَزْن ولا متعرج، وجميل بنا أن نعرف السياق الذي جاءت الآيات الكريمة فيه، والسبب الذي نزلت من أجله.

فقد ذكر ابن جرير – رحمه الله – وغيره أن المشركين ومنهم الوليد بن المغيرة طلبوا من النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن يهادنهم، أن يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه فأبى عليهم النبي ﷺ ذلك، ونزلت السورة الكريمة، وعلى هذا فإن ما نرجحه في تفسير الآيات الكريمة ونستأنس له بقول الحذاق الجهابذة من العلماء، من عدم التكرار في السور الكريمة مايلي وبالله التوفيق:

قال لهم النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١ – ٢] أي: لا يمكن أن أعبد في مستقبل الأيام معبوداتكم الفاسدة، كيف وقد أكرمني الله بالنبوة وهداني الصراط المستقيم؟ وأنتم تعلمون أنه قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فكيف ترجون مني أن أعبدها اليوم أو أعبدها فيما بعد؟ أما أنتم فلا يمكن أن تعبدوا الله الذي أعبده- والسورة خطاب لقوم علم الله أنهم لا يؤمنون -وبخاصة بعد أن استحكم بيني وبينكم العداء، فأنتم ما عبدتم الله الذي دعوتكم لعبادته يوم أن كنتم تعدّونني فيما بينكم الصادق الأمين، وقبل أن يحدث بيني وبينكم ما يعكر الصفو.

والخلاصة أن كل آية من المجموعتين جاءت على صورة الدعوى، وجاءت الآية الثانية على صورة الدليل، فكأن كلاً من الآيتين دعوى ودليلها، فالدعوى في المجموعة الأولى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: لا يمكن أن أجيبكم إلى ما طلبتم فأعبد آلهتكم، والدليل على هذه

الدعوى ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾[الكافرون : ٤] أي: قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فهل يعقل أن أعبدها الآن أو بعد الآن؟ وأما الدعوى في المجموعة الثانية فهي: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[الكافرون : ٥] أي: لا يمكن أن تصدقوا فتعبدوا الله الذي أعبده وقد حدث بيني وبينكم ما حدث، ودليل هذه الدعوى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: حينما دعوتكم لأول وهلة وأنتم لم تجربوا علي كذباً، وعلمتم أن لا مطمع لي في شيء، لم تجيبوني، فكيف تجيبونني اليوم؟

الآيات الأربع – إذن– اثنتان منهما تشكلان الدعوى، عدم استجابة كل من الفريقين للآخر، والآيتان الأخريان كل منهما برهان على الدعوى التي تلائمها.

هذا الذي يبدو لنا في فهم السورة الكريمة، راجين من الله أن نكون قد اهتدينا للصواب، وراجين من الله كذلك أن نكون قد بينا لك المقام ووضحناه أيما توضيح، والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

ونكتفي بما ذكرناه والحق أن قضية التكرار تستحق كتاباً خاصاً، نرجو أن يظهر قريباً إن شاء الله [١].

سابعاً: القول بالزيادة:

الزوائد – وهي كلمات وأكثرها حروف – رأى بعضهم أنها لاحاجة لها من حيث الإعراب، فإذا أسقطت بقي الكلام تاماً كالباء في خبر ليس [٢]، حذفها ووجودها سواء، تقول: (أليس الله بقادر) وتسقط الباء فتقول: أليس الله قادراً، فهي إنما يؤتى بها لتأكيد الكلام وتقويته.

---

(١) توفي والدي رحمه الله تعالى قبل أن يطبع بحث التكرار في كتاب.

(٢) مر معنا ذلك عند حديثنا عن بنت الشاطئ.

وذهب آخرون إلى أنها لا تزيد المعنى شيئاً، فالمعنى سواء إن وجدت أم حذفت وإنما جِيء بها لغرض لفظ يتعلق بجرس الكلام، وجمال إيقاعه وحلاوة نغمته.

ويقينا أن هذه الزوائد لم تكن معروفة، ولم يكن لها وجود عند أولئك الذين نزل القرآن فيهم، ونكاد نجزم أنها لم تكن شائعة مشتهرة في خير القرون كذلك، بل كان كل حرف من حروف القرآن وكل كلمة تعمل في نفوسهم عملها، ذلك لأن هذه الكلمات كان لكل منها معنى تؤديه، ولقد منّ الله سبحانه وتعالى عليّ وله الفضل والمنّة بإخراج كتاب (لطائف المنان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن) أحصيت فيه ما ادعي أنه زائد في كتاب الله – وهي سبع وعشرون كلمة – والآيات التي ادعي أن فيها زيادة، ورددت هذا القول رداً نرجو أن نكون قد أصبنا فيه إن شاء الله[1] ، ولذا فإننا نكتفي بذكر بعض الأمثلة هنا، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الكتاب المذكور.

---

(١) إن قضية الزوائد قضية خطيرة،ولكننا لم نجد كتاباً خاصّاً نوقشت فيه هذه القضية على خطورتها – كما قلت – صحيح كان لبعض العلماء رحمهم الله وجزاهم خيراً جهد مشكور.لقد تكلم بعضهم عن بعض هذه الزوائد من ذلك ما نجده في بعض كتب التفسير، ومن ذلك ما كتبه الأستاذ أحمد أحمد بدوي – رحمه الله-، في كتابه (من بلاغة القرآن)، وهو جهد مشكور بحق، ومنه ما كتبه الشيخ عبدالرحمن تاج شيخ الأزهر الأسبق في مجلة الأزهر، حيث رد زيادة بعض الحروف وناقش القائلين بالزيادة. هؤلاء هم الذين كتبوا في هذا الموضوع الخطير جزاهم الله خيراً. ولقد عرض الأخ الفاضل الدكتور صلاح الخالدي لهذه القضية في كتابه (البيان في إعجاز القرآن)، وأحال القارئ على كتابين قال (ونحيل – لاستكمال هذا الموضوع – على الكتاب القيم (دراسات لأسلوب القرآن الكريم – لمحمد عبد الخالق عضمية، والكتاب القيم الآخر (دفاع عن القرآن ضد مطاعن النحويين والمستشرقين) للدكتور أحمد مكي الأنصاري (ص١٤٩)، وننبه على ما يلي: أما الكتاب الثاني الذي ذكره الدكتور فهو ردّ على النحويين الذين أنكروا بعض القراءات القرآنية الصحيحة، لم يعرض فيه لقضية الزوائد بكلمة من قريب أو بعيد، ولا نجد في الكتاب إشارة بكلمة واحدة.

وأما الكتاب الأول فهو دراسة قيمة لحروف المعاني في القرآن ينقل المؤلف فيها أقوال العلماء السابقين من لغويين، ونحويين، وكثير من هؤلاء من القائلين بالزيادة، ولم ينكر عليهم المؤلف، فموضوع الكتاب – إذن – ليس قضية الزوائد أولاً ولا يسعفنا في موضوعنا الذي نحن بصدده وهو نفي الزوائد من كتاب الله.

١ -قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥].

قالوا: إن الباء زائدة، ونعجب مما قالوا: لأنه ليس المقصود هنا بالنهي إلقاء الأيدي فيكون المعنى لا تلقوا أيديكم.

وإذا وقفنا مع النص الكريم وجمعنا النصوص بعضها إلى بعض، ندرك أن ما ذكروه غير مستقيم، فالآية ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ واليد يعبر عنها كثيراً في نصوص الكتاب والسنة بأنها المعطية أو المانعة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[الإسراء: ٢٩]

وفي الحديث (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)(١) وما قاله عليه الصلاة والسلام (أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً)(٢).

فالآية الكريمة -إذن- تريد أن تبين أن اليد هي سبب التهلكة، والمعنى إذن أنفقوا وجاهدوا ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، فتكون اليد سبباً في الهلاك.

شتان بين هذا وبين أن يقال: ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة فالباء هنا للتعدية وقد تفيد السببية، ولعل في سبب نزولها ما يوضح ما ذهبنا إليه،

فقد أخرج أصحاب السنن وغيرهم عن أسلم بن عمران قال: خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية - وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصففنا صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل عليهم، فصاح الناس: ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب:

يا أيها الناس، نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ فنصرناه،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٢) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهلينا وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها، ونقيم فيها فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد.

٢- قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣١].

قالوا الباء زائدة، والتقدير (سمعت مكرهن) ونحن إذا رجعنا إلى الآيات القرآنية الكريمة وجدنا هذا الفعل قد ذكر كثيراً في كتاب الله، يتعدى بنفسه دون حرف الجر، قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾[آل عمران: ١٨١] وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١] وقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور:١٢] ولعل هذا هو الذي أغرى القائلين بالزيادة.

ونحن عندما نقف مع هذه الآيات الكريمة نستشعر الفرق بينها وبين الآية التي معنا، فهذه الآيات كلها كان السماع فيها مباشراً دون واسطة، ولكن الآية التي معنا ليست كذلك، فامرأة العزيز لم تسمع من هؤلاء النسوة سماعا مباشراً، ثم إن المكر بمعناه الظاهر لا يُسمع، وعلى هذا فلقد جاءت الباء تؤدي رسالة لا يتم الأمر إلا بها.

إن من المعلوم أن أخبار الملوك وأصحاب القصور سريعة الانتشار، ثم إن الناس يتحدثون عنهم دون أن يجابهوهم، فالنسوة في المدينة يتحدثن، وهناك من تود أن تكون لها حظوة عند امرأة العزيز، فتنقل لها هذه الأقوال، فكأن السماع هنا مضمن معنى الإخبار، أي: أُخبِرت بمكرهن، وإنما اختير الفعل (سمع) لبيان عناية المرأة، ورغبتها في أن تستمع لكل ما يقال عنها، وجاءت الباء لتبين لنا أن هذا السماع إنما كان بواسطة، وهكذا لا يمكن أن نتصور زيادة الباء، لأن القول بالزيادة لا أقول سيذهب برونق اللفظ وحده بل بدقة المعنى كذلك، لأنه إذا قيل: (فلما سمعت مكرهن) دل ذلك على أنها كانت معهن في مجلس واحد، فلا معنى حينئذ لقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾[يوسف:٣١].

الباء في الآية الكريمة -إذن - لها شأنها وشأوها، وليس وجودها وعدمها سواء، بل هي من أساسيات النظم الذي هو انسجام اللفظ مع المعنى.

٣-قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:٣٠] قالوا: إن اللام زائدة أي: نقدسك.

والتقديس التطهير، أي: نطهر أنفسنا،وأفعالنا وقلوبنا لك ومن أجلك، وهذا أحد معنيين للآية الكريمة، والذي يحسّن هذا التأويل أن قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾جاء في مقابلة قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾فقد ذكروا أمرين اثنين:

الأمر الأول: الإفساد في الأرض ورأسه الشرك، فقابل الملائكة هذه المعصية بالتسبيح، وهو البعد في تنزيه الله تبارك وتعالى عما لا يليق بجلاله سبحانه، ويدخل الشرك في ذلك دخولاً أولياً، فإن الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

والأمر الثاني: سفك الدماء، وهو أبشع الجرائم، وذكروا في مقابله التقديس، وهو التطهير، أي: نطهر أنفسنا من أجل الله، وعلى هذا المعنى لا تتصور زيادة اللام.

وأما المعنى الثاني: فإن التقديس خاص بالله تبارك وتعالى، وفرقوا بين التسبيح والتقديس، إذ التسبيح يلاحظ فيه جهة العبد المنزِّه، أما التقديس فيلاحظ فيه المنزَّه سبحانه، وعلى هذا المعنى: نقدسك لا من أجل شيء ولكن لأجلك أنت، فاللام تعليلية.

٤-قال تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾[يس:٣٤] قالوا: إن (من) زائدة، والمعنى وفجرنا فيها العيون قياساً على قوله تعالى حكاية عن الطوفان: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢].

والحقيقة أن (من) هنا تبعيضية، لأن الله لم يفجر عيون الأرض جميعاً، وشتان بين ما تشير إليه كل من الآيتين، فالآية الأولى - أعني آية يس- تتحدث عما أكرم الله به الإنسان

من تفجير بعض عيون الماء في الأرض نعمة منه سبحانه، والآية الثانية تتحدث عما كان أيام الطوفان عقوبة وانتقاماً، ولقد كانت الأرض كلها كذلك.

٤-قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[آل عمران: ١٥٢] التقدير عندهم: حتى إذا فشلتم تنازعتم في الأمر، ولكن الفراء لم يرتض القول بالزيادة فحسب، بل غير النظم الكريم، وقدم فيه وأخّر، والتقدير عندهم حتى إذا تنازعتم فشلتم... وهذه عبارته، قال عفا الله عنه:

(يقال إنه مقدم ومؤخر، معناه: حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم، فهذه الواو معناها السقوط كما يقال: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾[الصافات:١٠٣-١٠٤] معناه: ناديناه، وهو في (حتى إذا)، (فلما أن) مقول، لم يأت في غير هذين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ثم قال: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦،٩٧] معناه: اقترب، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣]، وفي موضع آخر ﴿فُتِحَتۡ﴾[الزمر:٧١][١].

فقد ذكر الفراء هنا عدة آيات عد الواو فيها زائدة، وقال: إن الواو مآلها السقوط، والحق أن كلامه هو الذي يجب أن يكون مآله السقوط.

ولقد كان الفراء قد توعد أبا عبيدة صاحب (مجاز القرآن) أن يضربه إن هو لقيه على ما له من تأويلات لكتاب الله تعالى لا تستقيم، ولا أدري أكان أبو عبيدة وحده الذي يستحق أن يضرب على تأويلاته، وتأويلات الفراء لا تقل عنها حيث ادعى أمرين خطيرين الأول الزيادة والثاني التقديم والتأخير.

والواو في هذه الآيات جميعها ليست زائدة، بل لا يتم المعنى إلا بها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي في محلها غير قلقة ولا نابية ولا تقديم فيها ولا تأخير، أما آية آل عمران:

---

(١) معاني القرآن للفراء (١/ ٢٣٨).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ فقد قال الزمخشري فيها:

(فإن قلت: أين متعلق (حتى إذا)؟ قلت: محذوف، تقديره: حتى إذا فشلتم منعكم نصره[1]، فالواو- إذن- عاطفة، عطفت بعض الأمراض على بعض، فالفشل -الضعف- والتنازع مرضان في حياة الأمم في حربها وسلمها، وهما لاريب من شر ما أصيبت به هذه الأمة، فمن ضعفنا لا تهابنا الأمم، بل إنها تزدرينا، كذلك التنازع جعلنا في مؤخرة الركب.

ونكتفي بما ذكرناه فيما ادعي أنه زائد، فليس غرضنا الاستقصاء، ولكن غرضنا بيان الإعجاز في كل آية، بل في كل كلمة وكل حرف في كتاب الله، فكل حرف جاء مكانه الذي لا يسد حرف آخر مكانه، ولا يستقيم المعنى بدونه.

---

(١) الكشاف (١/ ٤٢٧).

الفصل الثاني

الإعجاز العلمي

ونتحدث فيه عن آراء العلماء في تفسير الآيات تفسيراً علمياً.

المانعون في القديم والحديث هم:

١- الشاطبي رحمه الله.

٢- الشيخ محمود شلتوت.

٣- الأستاذ محمود شاكر.

المثبتون في القديم والحديث هم:

١- الإمام الغزالي.

٢- الإمام الرازي.

٣- الإمام السيوطي.

٤- الإمام محمد عبده.

٥- الشيخ محمد رشيد رضا.

٦- الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

٧- الدكتور محمد عبد الله دراز.

٨- الأستاذ عبد الوهاب حمودة.

٩- الأستاذ محمد أحمد الغمراوي.

رأينا في القضية.

نماذج من التفسير العلمي.

الفصل الثاني

الإعجاز العلمي

القرآن الكريم كتاب الله ووثيقة السماء الخالدة، أنزله الله ليكون موعظة وشفاء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء:١٧٤-١٧٥]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٥٧].

فالقرآن كتاب الإنسانية كلها، ونوره سيبقى يشع مادامت الحياة، لِتُهدَى به قلوب غلف وتبصر به عيون عمي، وتفتح به آذان صم. وكما جاء القرآن دعوة صريحة للإيمان الصحيح، ومكارم الأخلاق، فإنه جاء كذلك دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر، ويكفي أن أول ما تلألأ من آياته، كان الأمر بالقراءة باسم الرب الذي خلق، الرب الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، ولا نجد كتاباً سماوياً أو أرضياً، كرم العلم والعلماء، ودعا في مواضع كثيرة منه، للتزود من منهل هذا العلم كهذا القرآن ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم:٢٢] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨] ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وشرف الله العلماء بمعيته ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨].

ومن عظم شأن هذا القرآن، وعجيب أمره أنه جعل دعوته للعلم مفتوحة للبشر جميعاً، لم يفرق بين غني وفقير ورجل وامرأة أحراراً كانوا أو مملوكين.

ولقد ظهر أثر ذلك في وقت مبكر في ظل حكومة القرآن. وإذ بهذه الأمة المنطوية على نفسها، المنحصرة في مضاربها تفجر طاقات الكون، وهي تجوب آفاق الأرض التي جعلها الله لها ذلولاً، لتمشي في مناكبها غير معتدية أو سالبة، وإنما هي فاتحة للعقول قبل البلاد. لقد نمت دعوة القرآن للعلم، فأحيت أمة من أجداثها، وإذ بهذه الأمة الأمية، والتي منّ الله عليها بالهداية، يصبح كل بيت من بيوتها، ومسجد من مساجدها، موئلاً للعلم، يأتيه الناس على اختلاف لغاتهم وأديانهم من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم. هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولا يشك فيها عدو.

وهناك بدهية أخرى، وهي أن هذا القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع اكتشاف كثير من المجاهيل، ومع تقدم الإنسان في مضمار العلم، وآفاق الكون الفسيحة – لا يتعارض مع المسلمات الصحيحة التي وصل إليها الإنسان فضلاً على أن يناقضها. وهذه البدهية التي لا يختلف فيها اثنان كذلك، نجد مع كل أسف بعضاً ممن ينتسبون لهذه الأمة بأسمائهم فحسب، ممن رانت نخالات الأفكار الغريبة على عقولهم، يمارون فيها، لأنهم حُجِبوا بالهوى وأسروا بالتقليد.

والخلاصة أن القرآن بدعوته المفتوحة للعلم، بنى حضارة شامخة سعدت بها الإنسانية حيناً من الزمن، وأن هذا القرآن لن يناقضه علم كوني صحيح.

هل يمكن أن تفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً؟ وهل هناك إعجاز علمي؟:

اختلفت كلمة العلماء قديماً وحديثاً في هذه القصة، ولكن اختلافهم هذا منبعث من حرصهم على هذا القرآن، وناشئ عن إجلالهم له، ودفع كل شبهة تقوم حوله. ولا نود أن

نتعجل الإجابة في هذه القضية الخطيرة، قبل أن نعرض لآراء العلماء المجوزين والمانعين، الأقدمين منهم والمحدثين، ونناقش أدلة كلٍّ من الفريقين ثم نقفي على ذلك، بإثبات ما يترجح عندنا، سائلين الله أن يوفقنا للسداد ويهدينا للصواب، وأن يجنبنا الخطأ والخطل، وأن يحفظنا من الزلل، فلله الحمد وله المنة، وله الحمد في الأولى والآخرة.

أولاً: المانعون من الأقدمين:

إن العَلَم الذي يعوّل عليه ويرجع إليه، وهو المحور الذي يدور كل من بعده حوله، إمام من أئمة الشريعة، ومفكر من مفكري الإسلام، يعد من أبرز من أنتجتهم هذه الأمة، ذلكم هو الإمام أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المتوفى عام (٧٩٠ هـ) من علماء الأندلس، وما أكثر ما جادت به الأندلس من أعلام وأئمة ومفكرين رحمهم الله.

إن من أعظم ما أنتجه الفكر الإسلامي كتاب «الموافقات» للشاطبي، ولقد عرض الإمام الشاطبي في هذا الكتاب، لهذه القضية ونعني بها تفسير القرآن الكريم بما جدّ من علوم، ويعقد مسألة خاصة بهذه القضية، نذكر لكم خلاصة مفيدة إن شاء الله لما قاله ذلكم الإمام العظيم – رحمه الله–.

أولا: يقول الإمام الشاطبي: إن الأمة التي أرسل فيها النبي ﷺ أمة أمية، وهذا ماأرشد إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة:٢] بل إن الله وصف نبيه ﷺ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨] ويقول النبي ﷺ (نحن أمة أمية لانكتب

ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا)[1] .

وإذا كانت الأمة أمية، فإن الشريعة التي نزلت فيها أمية كذلك.

ثانياً: إن العرب الأميين الذين نزل فيهم القرآن الكريم، وتحداهم الله أن يأتوا بمثله كان لهم معرفة ببعض العلوم كعلم النجوم، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٦] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٩٧] وكعلم الأنواء وهو ما يتصل بالرياح ونزول المطر، وبعض مسائل الطب الناشئة عن تجربة وقضايا الأخلاق وما يتصل بها مما نجده في كتاب الله تبارك وتعالى.

ثالثاً: لقد جدَّت علوم بعد القرآن الكريم على هذه الأمة لم تكن معروفة لدى الصحابة رضوان الله عليهم، كعلوم الطبيعيات والفلسفة، والفلك، إلى غير ما هنالك من علوم، وحينما تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثله، إنما تحداهم بما كان معلوماً عندهم، ولا يجوز أن يكون قد تحداهم بما ليس كذلك، إذ لو تحداهم بشيء منه لقالوا: كيف تتحدانا بشيء لا نعرفه، ومن هنا فلا تقوم الحجة عليهم ، ويستدل بمثل قول الله ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[فصلت:٤٤].

رابعاً: يرى الإمام الشاطبي -رحمه الله- بعد هذه المقدمات أنه لا يجوز لأحد أن يفسر آي القرآن الكريم، بما لم يكن معروفاً عند الصحابة مما جدّ فيها بعد. يقول:

(إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدَّ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإلى هذا فإن السلف الصالح – من الصحابة والتابعين ومن يليهم – كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أُودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المُدَّعَى،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحتسب رقم الحديث ١٩١٣.

سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة وما يلي ذلك. ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر، لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم. وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا، نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب، أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا[1].

ثم يناقش الشاطبي أدلة الفريق المعارض، الذي يرى جواز تفسير آيات القرآن تفسيراً علمياً، ويرد عليهم فيقول: (وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨] ونحو ذلك، وبفواتح السور – وهي مالم يعهد عند العرب – وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء.

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨] اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً، كعدد الجُمَّل الذي تَعَرَّفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى وغير ذلك، وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدَّعِه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادَّعَوا، وما ينقل عن عليّ أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن يُنكَر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار–في الاستعانة على فهمه – على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة،

---

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ٧٩)

فبه يوصل إلى علم ما أُودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضَلَّ عن فهمه وَتَقَوَّلَ على الله ورسوله فيه ، والله أعلم، وبه التوفيق[1].

ذلكم هو الإمام الذي اقترن اسمه بهذه القضية، فلا نجد أحداً قديماً وحديثاً يعرض لهذه القضية، دون أن يذكر رأي هذا الإمام.

ثانياً: المانعون من المحدثين:

والعلماء المحدثون الذين منعوا تفسير آي القرآن الكريم تفسيراً علمياً، لم يخرجوا عما قاله الإمام الشاطبي، ومن هؤلاء الشيخ أمين الخولي زوج الدكتورة بنت الشاطئ - رحمهما الله- وقد نقله عنه وارتضاه الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، أما أبرز أولئك المانعين فهو الشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، وهو إمام ذو عقلية فذة -رحمه الله- يقول الشيخ:

وأما الناحية الثانية: فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بواف من العلم الحديث، وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها.

نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ فتأولوها على نحو زَيَّنَ لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.

نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى

---

(١) الموافقات (٢/ ٨١).

بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، فإذا مرّت آية فيها ذكر للمطر، أو وصف للسحاب، أو حديث عن الرعد أو البرق، تهللوا واستبشروا وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدثَ النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح، وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة، وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم، قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق !.

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[الدخان: ١٠-١١] بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة، والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري بعيداً عن قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾[الدخان:١٢]، ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾[الدخان: ١٣-١٤].

ويعرض الشيخ بعض الآيات التي فسرت ببعض النظريات العلمية، ثم يقول: إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحي به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية.

ولسنا نستبعد-إذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية – داروين مثلاً – أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول: إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين ! [1]

---

(١) رحم الله الشيخ فقد جاء من فسر بعض آيات القرآن بنظرية دارون، وهو الدكتور مصطفى محمود يقول في كتابه القرآن محاولة لفهم عصري إن دارون قد أحسن ووفق فيما توصل إليه من اكتشاف وشائج القربى بين المخلوقات جميعها، فها هي ذي نفس عضلات الأذن التي كانت تحرك آذان (أجداده) الحمير، وقد تليفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة ص٤٤.

جوانب الخطأ في هذا الاتجاه:

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك؛ لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه.

فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارات إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم ، وحسبنا أن القرآن لم يصادم – ولن يصادم- حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول[1].

(١) تفسير القرآن لمحمود شلتوت ص١١.

الأستاذ محمود محمد شاكر:

وبعد أن تحدثنا عن علمين من أعلام الأمة قديماً وحديثاً، يجدر بنا أن نتحدث عن رأي عالم آخر من علماء اللغة والأدب، وذو باع طويل وقدم راسخة في هذا، وهو الأستاذ محمود محمد شاكر، صاحب الكتب المفيدة والمقالات العميقة في مادتها، والمنافح عن لغة القرآن.

وإن كان رأي الأستاذ يختلف عن سابقيه، فإن هناك روابط تربط آراءهم بعضها ببعض، عرفنا أن رأي الشاطبي ومن بعده الشيخ شلتوت – رحمهما الله- وقد نقلنا عنهما، منع التفسير العلمي، **أما الأستاذ محمود شاكر فهو يفرق بين قضيتين:**

الأولى: تفسير آي القرآن الكريم بحقائق العلم الثابتة لا بنظرياته.

الثانية: أن تكون هذه الحقائق العلمية والدقائق الكونية وجهاً من وجوه الإعجاز وقع بها التحدي.

فيرى أن لا مانع من القضية الأولى، وهي أن يكون القرآن الكريم أشار في بعض آياته إلى حقائق ودقائق تشريعية وتاريخية، وعلمية، وكونية، وبهذا يختلف عن سابقيه، ولكنه يرى بعد ذلك أن هذه الحقائق والدقائق ليست من وجوه الإعجاز لأنها لم يقع بها التحدي وإنما التحدي كان بأسلوب القرآن ونظمه، كان بما يعرفه العرب، الإعجاز – إذن- الذي وقع به التحدي، هو ماكان بلغة القرآن نظماً وأسلوباً، ونتيجة ماقاله الأستاذ محمود شاكر أن حقائق التشريع ودقائق العلم، يصح أن تكون دليل صدق على أن القرآن الكريم كتاب الله، وعلى أن الذي جاء به من عند الله سيدنا محمد رسول الله حقاً.

وهكذا يفرق الأستاذ محمود شاكر بين أن نأخذ من القرآن الكريم بعض القضايا، فذلك أمر لامحذور فيه، وبين أن نجعلها وجهاً من وجوه الإعجاز وهذا مالا يرتضيه.

ذلكم أبرز ماقيل في منع تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً، وبالتالي إنكار أن يكون ذلك وجهاً من وجوه الإعجاز [1]، وننتقل الآن للحديث عن المثبتين وماستدلوا به لما ذهبوا إليه.

المثبتون للإعجاز العلمي:

أولاً: الأقدمون:

إن أكثر علماء الأمة ومنهم علماء الكلام وجمهور المتصوفة لايرون مانعاً من تفسير القرآن تفسيراً علمياً، فرأيهم أن آيات القرآن فيها من دقائق العلوم مالا يحصى، وسنذكر لكم آراء بعض هؤلاء.

١-الإمام الغزالي:

حجة الإسلام الغزالي- رضي الله عنه- ممن ذهبوا إلى هذا الرأي ودافع عنه بحزم وقوة، يقول: (إن العلوم كلها داخلة في أفعاله الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لانهاية لها، وفي القرآن إشارات إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك، بل كل ماأشكل فيه على النظارة، واختلف الخلائق في النظريات، والمعقولات ففي القرآن رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها، فكيف يفي بذلك ترجمته وتفسير ظاهره [2]

٢-الإمام الرازي:

ينعى الإمام الرازي على من اعترض عليه لإيراده في تفسيره ما أورد من مسائل العلم وقضايا الكون، يقول: وربما جاء بعض الجهال والحمقى، وقال: إنك أكثرت في تفسير

---

(١) مقدمة كتاب: الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، تقديم محمود شاكر ص٢٤.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٥٨).

كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل، لعرفت فساد ماذكرته... إن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة، بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور،وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها..)[1]

ويأتي الإمام السيوطي بعد هذين العلمين، في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) بالعجيب مما قاله ونقله عن هذا الفريق،الذين توغلوا في التفسير العلمي إلى حد بعيد، فينقل عن أبي الفضل المرسي وعن غيره، كثيراً مما فيه مبالغة ومغالاة.

ومنهم الحكيم داود الانطاكي المتوفى عام (١٠٠٨ هـ)، حيث نقل عنه الرافعي رحمه الله تفسير قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[المؤمنون: ١٢-١٣] [2] وغير أولئك كثير، ونكتفي بهؤلاء الأئمة رحمهم الله.

ثانياً: المحدثون:

١-الإمام محمد عبده:

ومن أوائل أولئك المحدثين الإمام محمد عبده – رحمه الله- يقول الأستاذ محمد أحمد الغمراوي: واللطيف البديع أن كبير المفسرين المحدثين الإمام الشيخ محمد عبده – رحمه الله – فسر بناء السماء طبق قانون الجاذبية فكان فتحاً في التفسير، وفتوى عملية تبيح تفسير

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٢١- ١٢٢.

(٢) يقول الرافعي رحمه الله: ولقد قرأنا هذه الآية الكريمة على طبيب مسيحي محقق فاضل من أصدقائنا، ونبهنا إلى هذه الدقائق، فقال: آمنت بما أنزل على محمد (إعجاز القرآن ص١٣٦).

الآيات الكونية في القرآن طبق ماثبت أو يثبت على أيدي علماء الفطرة من الحقائق الخاصة والعامة [1].

ويقول الأستاذ في تفسيره جزء عم عند قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾(السماء اسم لما علا وارتفع فوق رأسك)، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ (السماء)هذا الكون الذي فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها، وتتحرك في مدارتها، وهذا هو السماء، وقد بناه الله، أي: رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة جدران تحيط بك، وشدت هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة. كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينهما مما تتماسك به)[2] ويقول عند قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾: وطأها وجعلها فراشاً، كما قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية كما يزعم الجاهلين، والذي طحاها هو الله).

ويقول عند قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[الإنشقاق:١]: انشقاق السماء مثل انفطارها وهو فساد تركيبها واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر، فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره [3].

---

(١) الوعي الإسلامي، عدد ٤٤ سنة ١٩٦٨م.

(٢) تفسير جزء عم ص٩٥.

(٣) تفسير جزء عم ص٤٩.

٢-الشيخ محمد رشيد رضا:

يقول السيد رشيد رضا وهو يتحدث عن الإعجاز العلمي: قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الحجر:٢٢] وكانوا يقولون فيه: إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب، بما يكون سبباً لنزول المطر، بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه.

ولما اهتدى علماء أوروبا إلى هذا، وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم، صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه قال مستر:(اجنيري) المستشرق الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي: (إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرناً) نعم إن أهل النخيل من العرب، كانوا يعرفون التلقيح، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز [1].

ثم يقول وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر:١٩] إن هذه الآية أكبر مثال للعجب بهذا التعبير: «موزون» فإن علماء الكون الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات، قد أثبتوا، أن العناصر التي يتكون منها النبات، مؤلفة من مقادير معينة، في كل نوع من أنواعه، بدقة غريبة لايمكن ضبطها، إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الجرام والميلجرام.

وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات. أعني أن هذا التعبير بلفظ (كل)المضاف إلى (شيء)، الذي هو أعظم الألفاظ العربية، الموصوف بالموزون – تحقيق لمسائل علمية وفنية – لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر، ولايمكن بيان معناها

(١) تفسير المنار، ج١، ص٢١٠.

بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل)[1]

ويقول كذلك في قوله: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾[يس:٣٨] إلى قوله: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس:٤٠] فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية، مخالف لما كان يقوله المتقدمون، ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة، وكون ذلك يحصل بقارعة تقرع الأرض قرعاً وتصخها فترجها، وتبس جبالها بساً فتكون هباءً منبثاً، وحينئذ تتناثر الكواكب لبطلان ماكان يقوله علماء اليونان، ومقلدتهم من علماء العرب في الأفلاك والكواكب والنجوم، وعلى إثبات ماتقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك، وفي نظام الجاذبية العامة، ويجد القارئ تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير. فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه، كانت مجهولة للعرب، أو لجميع البشر في الغالب، حتى إن المسلمين أنفسهم، كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد، أو نظريات العلوم والفنون الباطلة،فإظهار ترقي العلم لحقيقتها المبيَّنَة فيه مما يدل على أنها موحىً بها من الله تعالى)[2].

٣-الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

ذكرنا من قبل عند حديثنا عن الرافعي – رحمه الله- قوله: إن القرآن معجز من نواحي ثلاث، إحداها مافيه من أنواع العلوم، ونزيد هنا، يقول الرافعي بعد أن ذكر بعض العلوم التي ذكرها القرآن:

«وإنما أوردنا هذا القول لنكشف لك عن معنى عجيب في هذا الكتاب الكريم، فهو قد نزل في البادية على نبي أمي وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت فنون القول

---

(١) تفسير المنار، ج١، ص٢١٠.

(٢) تفسير المنار، ج١، ص٢١١.

التي يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، لاتجاوز ضروباً من الصفات، وأنواعاً من الحكم وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلاً مما يجري هذا المجرى، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التي افتنّ بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، لم يقفوا على ماأريد به من ذلك، بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حكم زمانهم، وكان لهم في بلاغته المعجزة مَقْنَع، ومادرى عربي واحد من أولئك لم جعل الله في كتابه هذه المعاني المختلفة، وهذه الفنون المتعددة، التي يهيج بعضها النظر، ويشحذ بعضها الفكر، ويمكّن بعضها اليقين، ويبعث بعضها على الاستقصاء وهي لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل.

بيد أن الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى، وجاء به دليلاً بيّناً منه على أن القرآن كتاب الدهر كله، وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ماتبرح قائمة، فعلمنا من صنيع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعاني، ليخرج للأمة من كل معنى علماً برأسه، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعاً ومن كل فرع فنوناً، إلى مايستوفي هذا الباب على الوجه الذي انتهت إليه العلوم في الحضارة الإسلامية، وكان سبباً في هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان، وذهبت الدنيا مستدبرة، وأنشأ الله القرونَ والأجيال لتبلغ هذه الحادثة أجلها ويتناهى بها القضاء، وإن من شيء، إلا عند الله خزائنه، ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] [(١)]». وكان الرافعي في كلامه هذا يرد على ماقاله الشاطبي رحمه الله.

٤-الدكتور محمد عبدالله دراز:

قلنا من قبل عند حديثنا عن الأستاذ – رحمه الله – إنه قد بنى كتابه على أبواب ثلاثة، منها أن القرآن معجزة علمية، ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل أن يتم كتابه، وكنا نتمنى أن نقرأ ماكتبه الأستاذ، فإنه يختلف عن كثير من الناس وحري بما كتبه أن يقرأ كله، ولكننا

(١) إعجاز القرآن ص١١٩.

لحسن الحظ وجدنا بعض إشارات ذكرها أستاذنا الفاضل في بعض كتبه، وكل كتبه قيمة طيبة، يقول:

(ولكن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لايسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة – لا لغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب – وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير.

ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث، مثل المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[الطارق: ٦، ٧] والمراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[الحج: ٥].

وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾[الزمر:٦]. والمنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠]، وتكوين المطر ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾[الروم:٤٨]، ودائرية السماء والأرض ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[الزمر:٥]، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء:٤٤]، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨]. وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]. ووصف حياة النحل بصفة خاصة ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[النحل:٦٨،٦٩]. وثنائية النباتات والمخلوقات

الأخرى، وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس:٣٦] والتلقيح بواسطة الرياح ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الحجر:٢٢] إلى آخره [١].

٥-الأستاذ عبد الوهاب حمودة:

يقول: (والرأي الذي نميل إليه، هو أننا في حاجة شديدة إلى أضواء العلم، تكشف لنا عن حكم وأسرار جاءت بها الآيات الكريمة، ولا ضرر من عدم قصر فهمه على ما كان عند العرب في علمها، ومألوف معارفها، لأن القرآن أنزل للناس كافة يأخذ منه كل على قدر استعداده وحاجته، مادام ذلك لا يتنافى مع ما قصه القرآن من الهداية، وما يهدف إليه من الإرشاد. فكم من حكمة فيه إذا ما مستها يد العلم أسفرت أسرارها، فظهرت أنوارها عن سر إعجازها وسحر بيانها...) ثم يذكر أمثلة عن بعض مدلولات الآيات التي يستعان على فهمها بشتى العلوم ويقول: فالحق أن كل ما يساعد من العلوم على الكشف عن الأسرار الكونية والدلالة على قدرة الصانع الحكيم، والإبانة عن مبلغ آياته ونعمه ولا يتعارض مع أسلوب اللغة، ومألوف تعبيرها، من غير إغراب ولا تكلف، ولا إغراق في التأويل وإسراف في التحديد، فهو مما يجوز أن يستخدم في فهم آيات القرآن الكريم، فهو لا تفنَى عجائبه ولا تحصى أسراره) [٢].

٦-الأستاذ محمد أحمد الغمراوي:

يقول رحمه الله: (الواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكراً برغم كل ما كتب فيه لكني لست أريد أن أتناوله إلا من تلك الناحية التي لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، د. دراز، ص١٧٦.

(٢) مجلة لواء الإسلام، العدد ١٠ سنة ٢ بعنوان التفسير العلمي.

معرفة لغة لا تتيسر معرفتها لكل أحد، هذه الناحية هي الناحية العلمية من الإعجاز.

وإذا فهمنا الناحية العلمية على أوسع معانيها شملت كل ماعدا الناحية البلاغية من النواحي: تشمل الناحية النفسية، وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبق قوانين فطرتها، وتشمل الناحية التشريعية، وكيف نزلت أحكام القرآن طبق الفطرة للأفراد، وتشمل الناحية التاريخية التي لم يكن يعلمها البشر عند نزول ما اتصل بها من الآيات القرآنية ثم كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد، ثم تشمل الناحية الكونية، ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات في الأرض، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض في الكون.

هذه النواحي هي التي ينبغي أن يشمر المسلمون للكشف عنها وإظهارها للناس في هذا العصر الحديث، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل بالعلوم جميعاً، ولا غرابة في أن يتصل القرآن بالعلوم جميعاً، فما العلوم إلا نتاج تطلب الإنسانية أسرار الفطرة، والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة، وتتجاوب كلماتها وكلماته، وإن كانت كلماتها وقائع وسنناً وكلماته عبارات وإشارات تتضح وتنبهم طبق ما تقتضيه حكمة الله في مخاطبة خلقه، ليأخذ منها كل عصر على قدر ما أوتي من العلم والفهم، وكذلك دواليك على مر العصور.

هذا التدرج في إدراك تمام التطابق بين القرآن والفطرة أمر لا مفر منه في الواقع، ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه في جعله الإسلام آخر الأديان، وجعله القرآن معجزة الدهر، أي معجزة خالدة متجددة: يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين،وناحية لم يكن أحد يعرفها أو يحلم بها من قبل، فيكون هذا التجدد في الإعجاز العلمي هو الجديد للرسالة الإسلامية، كأنما الإسلام قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله، ويهديهم

دليلاً على صدقه آية جديدة من آيات تطابق مابين الفطرة وبين القرآن.

هذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكيك فيه إلا أن يتبرأ من العقل، فإن الحقيقة العلمية التي لم تعرفها الإنسانية إلا في القرن التاسع عشر أو العشرين مثلا والتي ذكرها القرآن، لابد أن تقوم عند كل ذي عقل دليلاً محسوساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن.

وقبل أن نورد بعض الأمثلة الإيضاحية، يجب أن ننبه إلى أمرين مهمين: الأول: أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ، وتحمل على مجازه. إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدى إلى كثير من الخطأ في التفسير، وسنرى أن من أعجب عجائب القرآن أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة تكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم كونيات القرآن.

هذا أمر، أما الأمر الثاني: فهو ينبغي أن لا نفسر كونيات القرآن إلا باليقيني الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص. إن الحقائق في سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية، فينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل، إن لم يكن للإبطال في أي وقت، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة الثابتة لتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حظها من الصواب(١).

أما الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – فقد تحدثنا عنه من قبل، وعرفنا رأيه في هذه القضية، وهو رأي معتدل، لا إفراط فيه، ولا تفريط، ولا جمود ولا مغالاة.

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص٢٥٧-٢٥٩.

ونكتفي بما ذكرناه من الآراء وأقوال هؤلاء الأئمة – رحمهم الله- والآن وقد انتهينا من عرض آرائهم. يجمل بنا أن نناقش هذه الآراء مناقشة علمية هادفة هادئة وأكرر ما قلته من قبل: إن آراء هؤلاء جميعاً منبثقة عن حرصهم على كتاب الله وإجلالهم له.

مناقشة ما ذهبوا إليه:

ولنبدأ بمناقشة المانعين، وقد عرفنا أن من أبرز هؤلاء وأسبقهم الشاطبي – رحمه الله – وتتلخص دعواه في:

أمية العرب وأمية الشريعة لذا لا يجوز لنا أن نفسر الآيات بما لم يكن معروفاً عند الذين نزل القرآن فيهم، وقد ذكرنا خلاصة لأقواله من قبل، فارجعوا إليها إن شئتم، ونناقش دعوى الشاطبي رحمه الله بتقرير ما يلي:

١-ينبغي أن لا ننسى أن القرآن الكريم وإن نزل في العرب لكنه لم ينزل لهم وحدهم، وإنما نزل للناس جميعاً ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨] وقال ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨] وقال النبي ﷺ: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[(١)] والنصوص في ذلك كثيرة. فالقرآن الكريم والشريعة -إذن- لا ينبغي أن نضيق دائرتها لنحصرها في الأمة وحدها.

٢-إن قول الشاطبي- رحمه الله- بأن الشريعة أمية جدير بالمناقشة إذ لا يلزم من أمية الأمة، أمية التشريع، فهذه الشريعة التي أكرمنا الله بها نجدها – ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين- تفوق كل ما وصل إليه الإنسان المتمدن في مجالات الحياة وأنواع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾[المائدة: ٦] إذا لم يجد ماء ولا تراباً حديث رقم ٣٣٥.

التشريع، فليست أمية الشريعة وأمية الأمة سواء.

٣-ليس معنى كون الأمة أمية أنها ستبقى كذلك، فلقد أكرم الله الإنسانية بهذا الدين، وبهذا الكتاب الخالد، وبهذا النبي العظيم عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم، لتسعد الإنسانية وتصعد، وتنهض الأمة بأعباء هذه الرسالة الخالدة، فينقطع دابر الجهل، ونصل إلى أسرار هذا الكون الذي سخره الله لنا سماءه وأرضه، وفي ذلك آيات كثيرة منها قول ربنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] فليس من منطق التاريخ أن تظل الأمة أمية في عصورها كلها، ثم ماذا نقول عن أولئك الذين دخلوا في الإسلام من غير الأميين، كيف يتأتى لهم في مجالات حياتهم، أن تكون الشريعة التي يدينون بها ويخضعون لها أمية لا تتسق مع أوضاعهم، ولو كان ذلك مقبولاً لرفض أئمة المسلمين وعلماؤهم ومفكروهم جميع العلوم والمعارف التي تتنافى مع هذه الأمية، إن الواقع والتاريخ يشهدان لغير ذلك، لقد هضم المسلمون أنواع المعارف جميعها فأنتجت لهم نوعاً من المعرفة المتصلة بكيانهم، والتي صارت فيها بعد جزءاً من هذا الدين.

٤-إن دعوى تفسيرنا للقرآن بما لم يكن معلوماً لساداتنا الصحابة رضوان الله عليهم، أمر لا يجوز؛ لأن فيه انتقاصاً من قدر الصحابة رضوان الله عليهم كما يقول الشيخ رحمه الله، إن هذه الدعوى غير جائزة، بل هي مردودة تردها نصوص هذا الدين الحنيف، فنحن نعلم أن الله تبارك وتعالى أوجب على المسلمين أن يتدبروا القرآن الكريم، ولذا لم يفسر منه سيدنا رسول الله ﷺ إلا آيات قليلة، ليعيش المسلمون دائماً على مائدته، ولو وجب علينا أن نقف عندما وقف عنده الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن أي معنى للتدبر، صحيح أنه يجب أن نهتدي بما وصلوا إليه، ولكن ليس معنى هذا أن نحرم على أنفسنا كل ما يفتح الله به من حقائق في فهم هذا الكتاب المبين.

-بقي أمر حري بالبحث جدير بالمناقشة، وهو مانقلناه عن الأستاذ محمود محمد شاكر، فهو لا ينكر أن القرآن الكريم قد أشار إلى بعض الحقائق العلمية الثابتة، لكنه ينكر أن يكون هذا من وجوه الإعجاز ومما تحدي به، ويرى أن التحدي بالبيان وحده، والأستاذ يرى أن هذه الحقائق في الآيات إنما تدل على صدق النبي ﷺ في أنه نبي، وأن القرآن من عند الله، ومناقشتنا الدعوى من جهتين اثنتين:

الجهة الأولى: إن المقصود من التحدي إثبات أن القرآن من عند الله، وأن سيدنا محمداً ﷺ هو رسول الله فإذا كانت الحقائق العلمية وغيرها- كما يرى الأستاذ الفاضل – تدل على هذا، فذلكم هو الإعجاز.

الجهة الثانية: إننا حينما درسنا مراحل التحدي وجدنا أن بعضها كان خطاباً للعرب وحدهم، وكانت المرحلة الأخيرة للناس جميعاً، ولو أن مراحل التحدي كلها كانت خطاباً للعرب فحسب، لكان ما ذهب إليه الأستاذ الفاضل حرياً بالقبول، أما وقد وجدنا المرحلة الأخيرة تختلف عن سابقاتها من حيث المخاطبون، لأنهم الناس جميعاً، ومن حيث التنزيل لأنها نزلت في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ومن حيث الأسلوب كما شرحناه من قبل، ونحن نعلم الدقة المحكمة في ألفاظ القرآن الكريم، فهذا يدل دون أدنى شبهة على أن التحدي كان عاماً للناس جميعاً، ولايعقل أن يتحدى الناس جميعاً بالأسلوب وحده ثم أليس حديث بعض آي القرآن عن حقائق في الكون والتاريخ والتشريع لم تكن معروفة من قبل من أبين الأدلة على إعجازه؟، مادمنا نتفق جميعاً على أن إعجاز القرآن ليس محدوداً بعصر أو زمن من الأزمان،أو خاصاً بمصر أو بلد من البلدان.

ونرجو أن لا يفهم أحد أننا نفتح الباب على (مصراعيه، ليتطاول الناس فيما لا ينبغي لهم، وأن نفسر آي القرآن الكريم تفسيراً يقوم على الظن والحدس وأن نلهث وراء كل

قول وخلف كل نظرية، إن ذلك أمر لايجوز أبداً، ولقد نقلنا من قبل ما قاله كثير من العلماء في هذا المعنى، ولسنا مع كثير ممن فسروا آي القرآن الكريم تفسيراً بعيداً عن لغته، بعيداً عن سياق آياته، وإليكم خلاصة ما ارتأيناه في هذه القضية.

رأينا في التفسير العلمي:

والذي أختاره في هذا الموضوع أوجزه فيما يلي:

أ-إن التفسير العلمي ضرورة تتطلبها هذه الفترة الزمنية التي نعيشها، شريطة أن يتهيأ لذلك ذوو الاختصاص.

ب- إن القول بأن التفسير العلمي فيه غض من قدر الصحابة رضوان الله عليهم لا أخاله متفقاً مع منطق الواقع ومسلمات العقل.

جـ- إن القرآن ليس ديوان شعر، كما أن سوره وآياته ليست قصائد وأبياتاً يقولها الشاعر في ظرف معين، وإنما القرآن كتاب الله مادامت الإنسانية.

وإذا فلا بد من أن تكون الجدّة دائماً، وهو الذي لاتنقضي عجائبه، ولذا فإن الله تبارك وتعالى، لا إله إلا هو يفتح لمن أراد أبواباً في فهم هذا الكتاب.

من كل ما سبق فإن التفسير العلمي إذا توافر له مناخه الصالح، واستجمع الشروط فلا مانع منه أبداً وهذه الشروط كما أرتأيها:

١- موافقة اللغة موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.

٢- عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، أو ما له حكم المرفوع.

٣- موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق.

٤- التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

٥- أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية متداعية، بل لابد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة.

ونحن نرى أن الخروج عن هذه الشروط، يعرض المفسر لخطر وخطل لا تحمد عقباهما. فمن مخالفة اللغة مثلاً، ما رأينا لبعضهم من تفسير الطير بالحجارة في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[الفيل:٣]، وتفسير ﴿غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥] بالفحم الحجري، ومن مخالفة صحيح المأثور ما رأيناه لبعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان:١٠]، حيث فسروه بما يدل على نهاية الأرض. وأما تعرض التفسير العلمي لأخبار الغيب، فكما رأينا لبعضهم من تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:٥]، بأن هذا يقصد به مابين نفختي الصور وأن المدة ألف سنة. وأما التفسير حسب النظريات المتداعية الواهية فكما نراه عند بعضهم من تفسير (الخلق) حسب نظرية دارون في التطور، كما ذهب إليه الطبيب مصطفى محمود.

وهذا الذي ذهبت إليه قرره كثير من العلماء: علماء الدين، وعلماء الطبيعة وأنقل هنا نصين اثنين، أحدهما لأحد علماء الأزهر وهو أستاذنا الشيخ محمد الصادق عرجون، والآخر الأستاذ محمد أحمد الغمراوي أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة سابقاً.

يقول فضيلة الأستاذ محمد الصادق عرجون: (فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية، هو في نظر القرآن، مهمة الإنسان مادام على ظهر هذه الأرض، لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية، التي يحيا بها حياة طيبة ويغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم.

إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم- وهو جانب مهم جداً، لأن عماد الدلائل

الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده وباهر قدرته وواسع علمه، ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال – في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه، للتفسير والبيان بأسلوب علمي، يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية، حجة الله على خلقه، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق، ناط الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن، وبدأ العلم يكشف عنها الحجب، ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير، فنقول إنها تفسير لآيات القرآن، كما صنع ذلك بعض المتحمسين، وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي.

والقرآن كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير فهو لا يخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم، وإنما تفسره الحقائق والبراهين، التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأصول الإسلامية، وقضايا العقول المستقيمة [1].

ويقول الأستاذ الغمراوي: (إن القرآن عربي، فعلى الناظر فيه أن يلتزم معاني كلماته، كما كان يفهمها العرب حين تنزل بها الوحي، وأن يلتزم قواعد العربية في الناحيتين النحوية والبلاغية كما قعدها العلماء.

والقرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعلى الناظر فيه ألا يطابق إلا بينه وبين ما ثبت أنه حق لاشك فيه، وهذا يخرج النظريات العلمية والنفسية، وما إليها من ميدان التطبيق. اللهم إلا أن تعرض تلك النظريات على القرآن، مع الدقة في الفهم والمطابقة، فما وافقه منها كان القرآن مؤكداً لها، وما خالفه منها كان القرآن شاهداً عليها بالبطلان.

والقرآن من عند الله، فمستحيل أن تتناقض آياته فيما بينها، أو مع ما يثبت في العلوم

---

(١) القرآن العظيم/ ص ٢٦٦ و ٢٧٤.

الكونية أنه حق. فحقائق العلوم ويقينياتها - لا نظرياتها- هي التي تفسير بها الآيات الكونية في القرآن. وكل فهم لآيات القرآن يؤدى إلى تناقض بينها، أو بينها وبين حق ثابت في العلم هو فهم خطأ لا محالة، ينبغي أن يجتنب، وإن اشتهر وسار بين الناس.

ثم بعد ذلك على الباحث عن معاني القرآن وعجائبه، أن يتبع المنطق الصارم في استنباطه وعجائبه وتطبيقاته، خصوصاً في المطابقة بين آياته وبين حقائق الفطرة، كما ثبت في علوم الفطرة أو العلوم الطبيعية كما يسميها الناس[1] .

(١) الوعي الإسلامي، عدد ١٥ ، سنة ١٩٦٦.

خلق الإنسان:

(١) قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

يقول المفسرون القدامى، إنه قَدَّم السمع على البصر، وأفرد السمع لأفضليته،ولأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع، فإذا جاءت حقائق العلم تثبت أن حاسة السمع يمنحها الله للطفل قبل حاسة الإبصار، وأن السمع إنما يُدرَك به شيء واحد، وهو الأصوات بينما يُدرَك بالبصر أكثر من شيء كالألوان والأشكال، وكان هذا لا يتعارض مع مفهوم الآية ومنطوقها، ولا يعارض أثراً عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، فما المانع – إذن- أن يكون هذا تفسيراً علمياً للآية فيكون إعجازا قرآنياً خالداً.

أطوار خلق الإنسان:

(٢) قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢-١٤] انظروا إلى دقة التعبير القرآني حيث عبر عن الرحم بالقرار المكين، والقرار بهذه الصفة عرف تماماً وصفه في عصر العلم.

جاء في كتاب (بين الإسلام والطب) للدكتور حامد الغوابي قوله عن القرار المكين: «هو رحم المرأة» وحقاً إنه لقرار مكين، إذ تربطه ألياف قوية في موضعه وتثبته أربطة متينة في جوسقه (بيته الصغير) ويحمله حوض من عظام متينة.

ففوقه الحجبتان (العظمتان فوق العانة) وعلى جانبيه الحرقفتان (العظم الجانبي في

الحوض) وعظام العجز (أسفل العمود الفقري) والعصعص (أسفل العجز) من خلف له سنادات، ثم إنه ليغطى من أعلى بالمثانة ومن أسفل بالمستقيم)[1].

ثم يقارن بين هذه الآية ومثيلتها في سورة الحج فيقول:

(وقد يسأل سائل: لماذا قال تعالى في الآية الكريمة السابقة: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال في آية الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [الحج:٥] حيث ذكرت الفاء في الآية الأولى، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، وذكرت (ثم) في هذه الآية الكريمة؟ ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ ؟

فنجيب بأن الله سبحانه هنا يبين أدوار النشأة بتسلسل متبوع ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ ليبين الأطوار التي يمر بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار والعلقة لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار، أما في الآية السابقة، فقد أرانا الله نصيب كل دور ووقت كل طور فجاء بالعطف بالفاء ليبين قصر الدور، وبالعطف بـ (ثم) ليبين التعقيب مع التراخي، أي: طول هذا الطور).

(٣) قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر:٦]، والمفسرون القدامى يعدون هذه الظلمات الثلاث: ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة، ويأتي علم التشريح الحديث ليثبت بما لايقبل الريبة أن هذه الظلمات إنما هي أغشية ثلاثة، تحيط بالطفل غشاء فوق غشاء، وهذه الأغشية لاتظهر بالعين المجردة، وهي: المنباري، والخربوتي، واللفائفي، أو كما يقول توماس إيدن هي: الكوريون وهو الغشاء الخارجي، يليه الميزودورم فالأمنيوس[2].

---

(١) بين الطب والإسلام/ ص ٢٦.

(٢)بين الطب والإسلام/ ص ٢٨.

ويقول الدكتور محمد علي البار: (قال بعض المفسرين رحمهم الله: إن الظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، والمعنى الصحيح في ذاته، فلجدار البطن ظلمة ثم يليها ظلمة جدار الرحم، ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين، ومع هذا فالآية قد حددت أن الظلمات الثلاث هي في مكان الخلق من بطون الأمهات، وذلك لا يكون إلا في الرحم ذاته، وإذا دققنا في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة هي:

غشاء السلى أو الأمنيون، ويحيط بالجنين مباشرة من كل جوانبه وفي مائه يتحرك الجنين، ثم يليه غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي)، ثم يليه الغشاء الساقط وهو غشاء الرحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض، وسمي بالساقط لأن الرحم يسقطه مع الأغشية)[1].

(٤) ويقول تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾[مريم:٢٥-٢٦] ولله أن يخلق ما يشاء، ولكم تساءلت في نفسي: لم خصت النخلة دون التين مثلاً، مع أن تلك البلاد يكثر فيه التين؟ ولله أن يخلق ما يشاء.

ولقد أثبت العلم أخيراً أن للبلح تأثيراً على خفض ضغط الدم عند الحوامل، وبذلك تقل كمية الدم النازلة منها، وهو يحتوي على نسب عالية من السكاكر البسيطة السهلة الهضم والامتصاص، والسكاكر هو الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبار أثناء الولادة التي تتطلب سكاكر بسيطة بكميات جيدة، ونوعية خاصة سهلة الهضم والامتصاص كتلك التي في الرطب.

وأثبت العلم أن ثمر النخيل الناضج يحتوي على مادة مقبضة للرحم تقوي عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل وتساعد على الولادة.

وقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف رئيس المركز القومي للبحوث الأسبق في مصر

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والإسلام/ ص ٢٠١، ٢٠٣.

بحثاً عن البلح، أثبت فيه أن البلح يقوي انقباض عضلات الرحم وخصوصاً في الشهور الأخيرة من الحمل، ويقول الدكتور شرف: إنه استرشد في بحثه هذا بالآية القرآنية ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٥].

تكوين المطر:

(٥) يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾[النور: ٤٣].

يقول الأستاذ رشيد رشدي العابري رحمه الله: (لحصول المطر عوامل ثلاثة لا غيرها، إذا توافرت لابد من نزول المطر وإن نقص عامل واحد منها فلا إمكان لحصوله، وتلك العوامل هي:

أولاً: - التبخر حتى يؤدي إلى تكوين سحاب. ثانياً:- وصول الهواء إلى درجة الإشباع بكمية البخار. ثالثاً: - التكثف. وهذا الترتيب على التعاقب لا مفر منه لتكوين المطر... ولكن الآية قد جاءت بوصف موجز مدهش للألباب، إذ عبرت بكلمة ﴿يُزۡجِي سَحَابٗا﴾عن عملية التبخر، ثم عبرت عن تشبع الهواء ببخار الماء بقولها على سبيل التعاقب ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾. إذ إن درجة الإشباع كما ذكرناها آنفاً، تتوقف على تساوي تبادل الجزئيات بين الماء والهواء. وما هذه الظاهرة إلا التآلف بين تلك الجزئيات. ومن ناحية أخرى أنه لا يحصل التشبع إلا بالتعادل والتآلف، بين ضغطي بخار الماء وبخار الهواء، أو الاتحاد بين نوعي الكهربائية وائتلافها كما قد سبق بيانه. وعلى ذلك فإن أصدق وأصح وأبلغ تعبير لهذه الظاهرات، هو التأليف الذي وصفه العلم بالتشبع وليس لها تفسير آخر.

ثم جاءت بقولها: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾على سبيل التعاقب أيضاً فأبلغ تعبير للتكاثف هو الركام. ولا نفسر كلمة (الركام) بغير التكاثف. فجاء في معجمات اللغة في تفسير كلمة

الركام بأنه (سحاب كثيف) ويقصد بالسحاب الكثيف البخار، والذي قد تشبع الهواء منه فتكاثف.

ثم تقول الآية ... ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾- أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾. فعندما بينت الآية العوامل الثلاثة لحصول المطر، فصلت بينها بكلمة (ثم) للترتيب والتراخي (لأن كلا من عوامل التبخر والتشبع والتكاثف التي ذكرناها آنفاً، يستغرق وقتاً مهما كان ضئيلاً. وبعدها بكلمة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾- بحرف الفاء السببية والتعقيبية، أي أنها تقول بعدما تتوافر العوامل الثلاثة فلا بد أن يحصل المطر فوراً، فهذا الترتيب الطبيعي الثلاثي لحصول المطر، لم يحققه العلم، ولم يطلع عليه العلماء على الوجه العلمي الآنف الذكر إلا من مدة قصيرة ولكن القرآن عرفه، قبل ما ينوف على ثلاثة عشر قرناً)[1].

(٦) وهذه جوهرة أخرى من جواهر الإعجاز القرآني، صافية في مزنها متلألأة في بريقها متصلة بها قبلها كذلك، ننقلها من كتاب قيم لعالم مؤمن.

أما الكتاب فهو سنن الله الكونية[2]. وأما الكاتب فهو الأستاذ الغمراوي الذي مر ذكره من قبل. وأما الجوهرة فهي قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠] حيث يقول الأستاذ: (وتستطيع -بعد أن عرفت العوامل المتعددة التي لابد من تعاونها على تكوين المطر-أن تدرك شيئاً من سر الحجة في هذا السؤال العجيب: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾؟.

لكن الإشارة التي أردنا أن نلفت النظر إليها هي قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا

---

(١) بصائر جغرافية ص ٢١١.

(٢) وهي مذكرات أملاها المؤلف على كليّة أصول الدين، وجمعها الدكتور أحمد بن عبدالسلام الكرداني في كتاب سماه «الإسلام في عصر العلم».

﴿تَشۡكُرُونَ﴾ والناس طبعاً يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب العذب أجاجاً. ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق، ولا يتساءلون- هل في سنن الله ما يسمح بهذا؟

ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم، لوجدوه قريباً، و لعرفوا أن عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إياه من السحاب هي بمحض رحمة الله، إن الماء طبعاً عذب بطبيعته. وماء المطر معروف أنه أعذب المياه، ولكن طبيعة تكونه من السحاب، تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان.

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه آزوت، والآزوت كما تعرف أيضاً لا يكاد يتحد في العادة بشيء، ولا بالأوكسجين الذي يكاد يتحد في العادة بكل شيء. لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية، أن يحولوا الآزوت غير الفعال إلى آزوت فعال، يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتحاد بالأوكسجين، بإمرار الشرر الكهربائي، في مخلوط منهما، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت، قابل للذوبان في الماء. وإذا ذاب فيه اتحد به، وكون حامضين آزوتيين، أحدهما حامض الآزوتيك، أو ماء النار، كما كان يسميه القدماء. وإليه يصير الحامض الثاني، وقليل من حامض الآزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه.

أظنك الآن قد بدأت تدرك الطريق، الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً، من غير خرق لأي سنة من سنن الله، فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر. وكل الذي يلزم – أن يتعدل التفريغ الكهربائي، ويتكرر في الهواء، وما يتكون به من الأكاسيد الآزوتية، يذوب في ماء السحاب، ويحوله حامضياً لا يسيغه الناس.

وهذا هو موضع المن من الله تعالى على الناس، أنه يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء)[1].

---

(١) الإسلام في عصر العلم/ ص ٤٠٨.

هذا هو الإعجاز العلمي في الآية كما أبانت عنه، بعبارة موجزة وكما وضحه الأستاذ الغمراوي ويقيني أنه قد وفق وأجاد، وهذا يؤدي ما حدثناكم عنه من قبل من الإعجاز البياني في الآية، وهو خلوها من اللام، على حين جاءت اللام في الآية السابقة ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا ﴾ [الواقعة: ٦٥].

علم الفلك:

ومادمنا قد تكلمنا عن خلق الإنسان والمطر الذي تحيا به الأرض، ويحيا به الإنسان، يحسن بنا أن نتكلم عما في الآيات الكريمة من إشارة إلى السماوات ذلكم العالم العلوي.

(٧) قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد: ٢].

(النظرة العلمية لهذه الآية: أنه كلما نظر الإنسان إلى نجوم السماء وكواكبها يراها متماسكة وثابتة في مواضعها، وهي سابحة في أفلاكها طبقاً لنظام بديع لا يحيد عنه أبداً، وقد فسر العلم هذه القوة الكونية التي تحفظ السماء والأرض والكون من التفكك، وتصونه من الاضطراب والخلل بأنها قوة الجاذبية التي اكتشفها عالم رياضيات إنجليزي هو (نيوتن) في أوائل القرن السابع عشر عندما لاحظ يوماً تفاحة سقطت عن شجرتها على الأرض، فأخذ يفكر في أسباب سقوطها، هي وغيرها من الأجسام التي تقع تلقائياً على الأرض، وهداه تفكيره العميق إلى الوصول إلى استنباط نظرية الجاذبية، واستطاع أن يضع لها قوانين دقيقة أثبتت صحتها بالتجارب العلمية، ووضح بما لا يقبل الشك أن هناك علاقة بين كتل الأجسام المتجاذبة وبين المسافات التي بينها، وقد ساعد قانون الجاذبية علماء الفلك على فهم الكثير من الحقائق الكونية التي كانت مجهولة تماماً من قبل)[١].

---

(١) انظر (القرآن وإعجازه العلمي) لمحمد إسماعيل إبراهيم/ ص ١٤٧.

ويؤخذ من الآية حقيقة علمية أخرى وهي أن الشمس والقمر غير مستقرين فهما يجريان لأجل مقدر لهما، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس: ٣٨- ٤٠].

(كان المعتقد قديما أن الشمس ثابتة، فجاء بعض علماء المسيحيين وقالوا: إن الشمس تتحرك، وحكمت عليهم الكنيسة بالإعدام لأن كلامه كفر في نظر الكنيسة، وتقدمت الأجيال، وآخر ما توصل إليه العلم الحديث أن الشمس تجري بحركة دورية لولبية)[1].

يقول الدكتور منصور محمد حسب النبي عن آية يس في جريان الشمس:

(هذه الآية الكريمة تمثل إعجازاً علمياً رائعاً للقرآن، فالفعل (تجري) ينطبق في أعين الناس و المفسرين الذين لم يعيشوا عصر العلم على حركة الشمس الظاهرية اليومية من المشرق إلى المغرب، ولكن الحقيقة أن الفعل (تجري) يعبر عن حركة واقعية أثبتها العلم الحديث للشمس التي اتضح أنها تنتقل في الفضاء وتجر معها بالجاذبية كواكبها التي تدور حولها، والفعل يدل ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ولكن يدل أيضاً على عظم تلك الحركة لأن الجري طبعاً يدل على السرعة في المشي أو السير.

ولقد تمكن العلماء من تحديد سرعة هذه الحركة للشمس ومعها النظام الشمسي بحوالي تسعة عشر كيلو متراً في الثانية في الفضاء الكوني، نحو نقطة في كوكبة هرقل مجاورة لنجم يدعى (فيجا) في الأفرنجية (والنسر الواقع) في العربية. وهذه النقطة تدعى علمياً مستقر الشمس، وهكذا يثبت علمياً باستخدام أحدث آلات الرصد ومقاييس الطيف بأن للشمس جرياً حقيقياً في الفضاء محدد المقدار والاتجاه، مما يثبت بالدليل القاطع أن القرآن الكريم من عند الله، وأن محمداً ﷺ رسول الله، إذ كيف يتسنى لمحمد

---

(١) القرآن والعلوم/ سعيد ناصر الدهان/ ص٩٢.

النبي الأمي أن يأتي بكل هذه الحقائق، وهو مجرد من كل وسائل العلم، ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان، إلا إذا كان القرآن وحياً من الله سبحانه وتعالى خالق الشمس)[1] .

ومما ينفي مقصود الآية بجريان الشمس تلك الحركة الظاهرية التي نراها قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[الشمس:١ - ٤].

(ويتلخص معنى الآيات في أن النهار هو الذي يظهر الشمس، وأن الليل هو الذي يخفيها، فأي دقة في التعبير أكثر إحكاماً من هذه؟ فما هو ثابت أن حركة الشمس اليومية من الشرق إلى الغرب إنما هو حركة ظاهرية سببها دوران الأرض، لا تحرك الشمس، فالشمس بالنسبة لنا ثابتة لا تتحرك، إذ هي لا تدور حول الأرض، وبذلك فإن الليل والنهار لا ينتجان من دورانها حولنا حسب ما كان القدماء يعتقدون، وإنما دوران الأرض حول نفسها هو الذي ينتج عنه أن يتعرض إحدى نصفيها لضوء الشمس فيصير نهاراً، ويبتعد النصف الآخر عن مدى الضوء فيصير ليلاً، فدوران الأرض إذن هو الذي يظهر الشمس فيكون النهار، وهو الذي يخفيها فيكون الليل، وهذا هو نص القرآن، فلو كان من عند بشر كما يدَّعون لقال: إن الشمس هي التي تسبب النهار بظهورها لا أن النهار هو الذي يظهرها، ولقال: إنها تختفي فتسبب الليل لا أن الليل هو الذي يخفيها)[2].

ويقول سبحانه: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[يس: ٣٩].

(لابد أن ينزل القمر منازل مختلفة من أن ينتقل من مكان لآخر، وبذلك فالقرآن يعلل أوجه القمر بأن سببها هو انتقال القمر في أمكنة مختلفة بالنسبة للأرض، وهو في انتقاله

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن (ص ١١٩). وهذا كلام مأخوذ باختصار وتصرف من الإسلام في عصر العلم للغمراوي / ص٢٧٨.

(٢) القرآن والعلم: أحمد محمود سليمان/ ص٣٤.

يتغير مظهره، فيزيد حتى يصير بدراً، ثم يعود فيتناقص تدريجياً حتى إذا كان في آخر منازله دق واستقوس وصار هلالاً، وهذا يطابق ما وصل إليه العلم أخيراً، وهو أن سبب ظهور القمر بأوجه مختلفة هو دورانه حول الأرض مع مواجهته لها بوجه واحد)[1].

(٨) وعن الجبال يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[النبأ:٧].

يقول الغمراوي: (الجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض، ومن ناحية الرسوخ فيها، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هنا، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز في مداه وفي درجات الميل، والجبال تختلف في الارتفاعات وفي درجات الميل كذلك، والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها في الأرض وطبيعة تلك الأرض، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ في ذلك... لكن هناك عوامل في اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على نظائر لها في نشأة الجبال لم تكن تخطر ببال إنسان عند نزول القرآن، فالأوتاد لا بد في إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها في الأرض بقوة ما، وإذن فجعل الجبال أوتاداً، فيما أنبأ الله في كتابه، من شأنه أن يقتضي أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أخرى، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ.

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض، قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبياً في القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها، حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدريج في الأحقاب الطويلة، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجياً بالجفاف البطيء، تلك القوى الهائلة لها نظائر على قدر عند دق الأوتاد، فالدق

---

(١) القرآن والعلم: أحمد محمود سليمان/ ص ٣٠.

من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض، والضغوط الجانبية على التربة من حوالي الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة في القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها، حتى تتموج إلى نجاد هي الجبال والهضاب، ووهاد منها الوديان، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب؟.

وفي علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التعرية – من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتفتت بتعاقبها المستمر على طبقات الصخر طبقة بعد طبقة، وتأتي الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبياً في نهاية الجبل الأشم، فيدل تضاؤله على أنه في العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه – هذه العوامل تعمل في انتقاص الجبال في الوقت الذي تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس قوى هذين النوعين، فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير في تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها في الزمن المتطاول، إذ المقارنة والمشابهة ينبغي أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائماً غير منزوع.

ويذكر الدكتور الغمراوي أن في الآية ناحية أخرى وهي ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة في وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس، ويذكر أن هذه تقتضي شيئاً فوق الأرض يعلو سطحها ويمسه في أطرافها كما يكون من الخيمة وتكون الجبال معينة على تثبيته فما هو هذا الشيء يقول:

(الشيء الذي فوق الأرض يعلو الناس ويعمل عمله في وقايتهم كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر، وهو الغلاف الهوائي الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات، ويكفي الناس على الأقل شر الشهب، وشر القدر المؤذي من أشعة الشمس البنفسجية و فوق البنفسجية وهذا كاف

في تحقيق الشبه الكبير في الوضع والمنفعة بينهم وبين خيام لا عداد لها تغطي وجه الأرض، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل على الاحتفاظ بتلك الغيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد، أما الذي يعمل عمل العماد متمماً عمل الجبال، أو الجبال متممة عمله، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء.

-العماد لم يرد لها ذكر في الآية ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد، وهذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغي في القرآن، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى حقيقة التجاذب بين الأرض والطبقة الهوائية ذات الكتلة الهائلة – ذلك التجاذب العمودي الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد.

وقوة الجاذبية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوي ولا يزيدون، ولكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التي عرفها العلماء تلك الإشارة اللزومية في آية النبأ، ويزيد عباده علماً بعامل ثان يجهلونه يتمم عمل الجاذبية التي يعرفونها، وهذا معناه أو هذا مقتضاه حقيقة أخرى غير معروفة. إن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها. فهاتان حقيقتان قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة إلى اليوم وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنهما علمياً حتى ينكشفا ويثبتا، فيكنشف بهما ويثبت للعالم الإسلامي وغير الإسلامي كونيتان جديدتان للقرآن)[1].

(٩) أما عن باطن الأرض وما فيها من مياه فقد ذكر القرآن تلك المياه المستترة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾[الزمر:٢١].

فهذه الآية تفسر لنا بأجلى المعاني المياه الأرضية التي تغور في القشرة، فهي تجري في

(١) الإسلام في عصر العلم/ ص ٣٣١ – ٣٣٥.

مسالك تحت غطاء من القشرة الأرضية وتزداد عليها الضغوط حتى تتمكن من الخروج على هيئة ينابيع دافقة بين الصخور، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾[البقرة:٧٤].

وإذا تفهمنا مسالك المياه الأرضية، وعرفنا كنهها، لأصبحت موارد لايستهان بها لمياه الشرب والري، لتنتج لنا زرعاً مختلفاً ألوانه، يسقي بماء واحد ويختلف في الأكل، فسبحان ربي رب العزّة وسع كل شيء علماً[1].

البرازخ المائية:

(١٠) وآخر النماذج التي نذكرها من نماذج التقسيم العلمي، ما فسر به قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن:١٩-٢٠].

قال الزمخشري: (مرج البحرين): أرسل البحر المالح والبحر العذب متجاورين متلاقيين، لا فَصْلَ بين الماءين في مرأى العين،(بينهما برزخ) حاجز من قدرة الله تعالى (لا يبغيان) لا يتجاوزان حدّيهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة.[2] والذي قاله لم يخرج عنه المفسرون القدامىَ، ولكن الأستاذ العابري –رحمه الله- بعد أن ذكر أقوال المفسرين في الآية، وشرح ما أثبته التحليل العلمي عن المحيطات والمضائق والبرازخ المائية قال[3]:

وعلى ضوء التحليل العلمي الحديث الذي سبق تلخيصه، نعود إلى تدبر الآية الكريمة فيظهر لنا مفهومها منسجماً مع الحقائق المتوصل إليها في برزخي مضيق باب المندب، ومضيق هرمز، **أكثر من البرازخ المائية الأخرى وذلك لأمرين:**

الأول: أن الآية التي عقبت الآية المذكورة مباشرة، وهي ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾

---

(١) إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض – محمد محمود إبراهيم/ ص١٨- ١٩.

(٢) الكشاف (٤/ ٤٤٥).

(٣) بصائر جغرافية/ ص١٧٥.

[الرحمن: ٢٢] تدلنا على تحديد الموضع، إذ يكثر اللؤلؤ والمرجان بدرجة هائلة في البحر الأحمر، وخليج البصرة،وخليج عمان من المحيط الهندي، حيث تعيش الحيوانات المرجانية واللؤلؤية في المياه الحارة، بينما ينعدمان تقريباً حوالي مضيق طارق، ومضيق البوسفور والدردنيل، حيث المناطق المعتدلة التي لا تعيش فيها تلك الحيوانات.

الثاني: إن الآيات القرآنية التي جاءت بأحداث تاريخية أو ظواهر طبيعية، هي التي وقعت في الجزيرة العربية أو حواليها غالباً، وذلك للفت أنظار المخاطبين بالقرآن عند أول نزوله، وهم العرب المجاورون لسواحل البحر الأحمر وخليج البصرة من المحيط الهندي، وإثارة الرغبة الشديدة للتعمق في معاني الآيات التي تنطوي عليها الألفاظ، والوصول إلى حقيقة الغرض منها، فإذا تفكر المتأمل المتدبر في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ يتجه تفكيره حتماً إلى إزاحة النقاب عن المفهوم المتضارب من التقاء البحرين واختلاطهما، ثم وجود برزخ بينهما، فلا يتجاوز أحدهما الآخر.

وبعد أن يستنير بالمعلومات التي توصلت إليها الأبحاث العليمة على الحياة المائية المتولدة في البحرين الملتقيين بواسطة البرزخ المائي، مثل (باب المندب) يتضح له أن تلك الحياة قد انفصلت في البحر الأحمر عن الهندي، بوجود ذلك البرزخ الذي كان حاجزاً بسطحه إلى عمق (٢٠٠ متر)، فتغيرت الحياة في كل منهما فلا يتماثلان، ولا يبغي أحدهما بمواليده وأملاحه وتياراته وحرارته على الآخر بما يغايره في تلك النواحي، فيتجلى مفهوم الآية بنور التدقيق والبحث العلمي الصحيح.

ولكن الأستاذ عبد المجيد الزنداني يذهب في تفسير الآية الكريمة تفسيراً آخر يقول:

(في سنة ١٨٧٣م، أدركت (الأكاديمية العلمية البحرية) في بريطانيا أن معلوماتها عن البحار قليلة، فبعثوا سفينة للكشوف العلمية البحرية مزودة بالأجهزة الدقيقة، ومعها الخبراء، وقضت هذه السفينة واسمها(تشالنجر) ثلاث سنوات في البحار والمحيطات،

فجاءت بوفرة كبيرة من المعلومات، وجدوا أن البحار المالحة (المحيطات)، المحيط الواحد نفسه، تختلف فيه المياه عن بعضها في الحرارة والكثافة والملوحة والأحياء المائية وقابلية الذوبان للأوكسجين، إنها تلتقي في مكان واحد، ولكنها تختلف في الخصائص والصفات.

فمثلاً البحر الأحمر يختلف في خصائصه عن المحيط الهندي، وكانت هذه من أعجب الحقائق التي عرفت.

ثم تجدد البحث عام ١٩٦٢ حيث جاءت بعثة أوروبية إلى باب المندب لتدرس السر الذي يجعل البحار رغم التقائها متمايزة، على الرغم من وجود ظاهرة المد والجزر،وهذا من شأنه أن يمزج بين البحار، ويجعلها متجانسة، متحدة في الحرارة والكثافة والملوحة.. إلخ، واستعملت هذه البعثة الأوروبية سفينة كالتي سبقت، قالوا: هذا البحر أزرق، ومن الجهة الأخرى نفس البحر، فكانوا إذا أنزلوا أجهزتهم من هذه الجهة دلتهم على أن هذا البحر الأحمر، وإذا أنزلوا أجهزتهم من الجهة الأخرى دلتهم على أن هذا هو المحيط الهندي، تحركوا من الشاطئ إلى الشاطئ وجدوا نفس النتيجة، أنزلوا الأجهزة إلى أعماق معينة فوجدوا نفس النتيجة، تحركت السفينة وزحزحت من مكانها لتدرس هذا الحد، ما طبيعته فوجدوه ماء ثالثاً، يختلف في حرارته وكثافته وملوحته عن كل من الماءين في البحرين.

قَلِّبوا كتبَ علم البحار ستجدونهم يتحدثون عن هذا الماء الثالث باسم (فرنت) جبهة لقاء بين كتلتين مائيتين يمثلونه باللقاء بين جيشين بينهما منطقة فاصلة وحد فاصل، وكم كانت دهشة الكابتن (جاكستو) وهو من أشهر علماء البحار الفرنسيين وهو يتكلم عن هذه الحقيقة التي أسفر عنها البحث، فقال له أحد سامعيه لستم أول من عرف هذا، لقد ذكر القرآن هذا قبل ألف وأربعمائة عام، فقال: إن كان هذا قد ذكر في القرآن فأشهد أن

محمداً رسول الله.

ونكتفي بهذه النماذج، فليس غرضنا أن نستقصي كل ما في كتاب الله تبارك وتعالى، فلقد ألفت في ذلك كتب كثيرة، وللعلماء مقالات وموضوعات في كثير من المجالات العلمية. ونكرر هنا ما قلنا من قبل وهو وجوب التفرقة بين الحقائق العلمية والنظريات، ودعوى أنه ليس في العلم حقائق ثابتة ما نخالها دعوة مبنية على أسس ثابتة صحيحة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

ونتحدث فيه عن:

- الإعجاز التشريعي لا ينفصل عن الإعجاز البياني.
- تشريعات الرومان وقصورها.
- كيف نفهم الإعجاز التشريعي.
- جوانب التشريعات القرآنية.

نماذج من تشريعات القرآن مقارنة مع غيرها.

الأول: الزكاة.

الثاني: الرق.

الثالث: الميراث: الميراث في الشريعة الإسلامية مقارنة مع تشريع الميراث في الجاهلية وعند اليونان والرومان.

الرابع: الطلاق.

الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

القرآن كتاب الله تبارك وتعالى الذي أنزله على نبيه ﷺ ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليهديهم صراطاً مستقيماً.

وصدق الله ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]. ومعنى هذه الآية الكريمة أن هداية القرآن هي أعظم الهدايات، وهذا ما يفهم من قوله سبحانه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وتظهر هذه الهداية في أحكام القرآن وقيمه الخلقية، وقواعده التربوية، ونظمه التشريعية.

والحق أن بيان القرآن وتشريعاته لا ينفصل بعضها عن بعض، وإذا عرفنا أن القرآن معجزة بيانية، فيجب أن نعلم أنه معجزة تشريعية كذلك.

وقد اقتضت حكمة الله ومشيئته –وقد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله – أن ينزل هذا القرآن الكريم، وقد بلغت اللغة العربية غاية في نموها وتهذيبها، سعة وإحكاماً ودقة ووضعاً، وبلغ العرب الناطقون بها مبلغاً في المهارات اللغوية فطنة ورقة طبع، وذلك من أجل أن يكون القرآن الكريم معجزة لغوية يتحدى فحول الفصحاء، وجهابذة البلغاء.

واقتضت مشيئة الله وحكمته كذلك أن ينزل القرآن الكريم، وقد مر على القانون الروماني، الذي كان مرجع البلاد المتمدينة وقد بلغ من الإصلاح والتهذيب، فكان نتيجة إصلاحات لكبار الفلاسفة ورجال العلم والقانون والاجتماع مدة ثلاثة عشر قرناً، ابتداء من سنة سبعمائة وأربعة وأربعين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وثلاث وثلاثين ميلادية في عهد (جوستنيان)، فكان القرآن كذلك معجزة تشريعية يتحدى القوانين والمقننين،

والفلسفة والفلاسفة، كما تحدى اللغويين.

كيف نفهم الإعجاز التشريعي للقرآن:

والمتحدث عن الإعجاز التشريعي جدير به أن يقف أولاً مع تشريعات القرآن الكريم في شتى مناحي الحياة ومختلف جهاتها، وقد يجد نفسه مضطراً إلى الإلمام بما جاء في السنة المطهرة من تشريعات، فإن القرآن الكريم كثيراً ما تذكر فيه الأحكام مجملة، فتأتي السنة لتشرح هذه القواعد وتفصل ذلك الإجمال، فالسنة – إذن – ليست أجنبية عن القرآن، بل هي شارحة مبينة.

وجدير به ثانياً أن يدرس ما وصل إليه العقل البشري من قوانين وأنظمة في مناحي الحياة المختلفة، وجوانبها المتعددة.

وجدير به ثالثاً أن يعقد موازانات منصفة بين التشريعات القرآنية، التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ النبي الأمّي في بلد لم تكن فيه معاهد ولا مدارس وفي أمة لم تنعم بما نعمت به الأمم الكثيرة من أنواع المعارف.

وسيجد أي باحث منصف، البون الشاسع بين تشريعات القرآن الكريم من حيث سموها وشمولها، وما فيها من نظرة إنسانية، وخلوٌّ من السلبيات والثغرات والمآخذ، أقول سيجد فرقاً بين تشريعات القرآن الكريم وبين غيره من القوانين التي بذلت في تنقيحها طاقات، وعملت أفكار وعقول. ولسنا نحيف على هذه القوانين، فنجردها من كل خير، ولكننا – ونحن لا نبخس الناس أشياءهم – سنجدها غير بالغة من حيث مقرراتها ومضامينها ما بلغه كتاب الله، ولا هي قريبة منه في كثير من الشؤون والأحكام. ولا تتعجل الحكم، وسندعك أيها القارئ تستنتج بفكرك، وتخلص بفطرتك إلى سمو التشريعات القرآنية، لتدرك أن شريعة القرآن برهان صدق ودليل حق على أنه من عند الله.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: ومن أجل أن نتبين قيمة ذلك الشرع في ذاته، ونظر الناس يجدر بنا أن نرجع إلى الماضي السحيق ونتطلع إلى المستقبل البعيد.

أما في الماضي فنجد أن الشرع الذي اقترن بظهور محمد الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم هو قانون الرومان، فقد كان الشرع المسيطر في التطبيقات العملية والقضائية في الشام ومصر وغيرها من البلدان التي تعاقبت البلاد العربية، وتحيط بها من الغرب والشمال، ويقول علماء القانون اليوم: إنه من أكمل الشرائع التي تفتق عنها العقل البشري، ولازال يعتبر أصلاً لكثير من الشرائع القائمة التي تفرعت وقامت على دعائمه.

وإنّ من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية وأنها في درجة فوق مستوى العقل البشري فليوازن بينها وبين ذلك القانون الروماني، لأنّ قانون الرومان قد استوى على سوقه، وبلغ نهاية كماله في عهد جوستنيان سنة ٥٣٣ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وهو في هذا الوقت كان صفوة القوانين السابقة وفيه علاج لعيوبها، وسد لخللها من يوم أن أنشأت روما سنة ٧٤٤ قبل الميلاد إلى سنة ٥٣٣ بعده، أي أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرناً ظهرت فيها الفلسفة اليونانية، وبلغت أوجها، وقد استعانوا في تلك التجارب القانونية بقوانين (سولون) لأثينا، وقوانين (ليكورغ) لأسبارطة، والنظم اليونانية عامة، والمناهج النظامية والفلسفية التي فكّر فيها الفلاسفة اليونان لبيان أمثل النظم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل، كالذي جاء في كتاب القانون وكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة، والعلماء في عهد اليونان والرومان.

وإن شئت فقل: إن القانون الروماني هو خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى ثلاثة عشر قرناً في تنظيم الحقوق والواجبات، فإذا وازنّا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبي الأمّي ﷺ، وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد ﷺ وما استنبط الفقهاء من

بعده،يكون من الحق علينا أن نقول: إن أساس شريعة الإسلام ليس من صنع بشر، بل من صنع العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه)[1].

(إن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وتنظيم العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية، وإذا وازنا بين ما جاء في القرآن، وبين ما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور... فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى من غير درس درسه، وكان في بلد أمّي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدارس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني، لم يسبقه سابق ولم يلحق به لاحق)[2].

ذلكم أن أول ما نلحظه ونلمحه في التشريعات البشرية، أنها تشريعات محددة يلائم كل منها البيئة التي وضع فيها، والمجتمع الذي وضع له مع كثير من الثغرات والسلبيات، ولكن القرآن الكريم أراده الله للناس جميعاً، وصدق الله ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩].

« إن تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة بغض النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم وتطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم، وتوجه مجتمعهم وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة.

وقد أكدّ الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

---

(١) شريعة القرآن. دليل على أنه من عند الله، مجلة المسلمون، العدد الأول/ السنة الأولى ص ٣٢.
(٢) المعجزة الكبرى، ص ٣٨٥.

يعالج القرآن – قبل كل شيء – الحق الأسمى والفضيلة، وكل ما تبقى من محتوياته ونصوصه- كمعرفة الروح وعلوم طبيعة السماوات والأرض والتاريخ، والنبوة، والنذر، وما شابه ذلك – ليست سوى رسائل لتقوية القرآن وإعطائها وزناً أكبر وإقناعاً أشد. لقد أشار الغزالي – الفيلسوف الديني الكبير المتوفى عام ٥٠٥ هـ في كتابه (جواهر القرآن) إلى أن (٧٦٣) آية تبحث في المعرفة و(٧٤١) آية في الهداية للفضيلة، وهذه الألف وخمسمائة وأربع آيات تمثل – في نظره – أثمن ما في الكتاب، وما تبقى – وهي (٥١٢) آية – بمثابة المظروف أو الصدفة التي تغلف تلك الجواهر (أي التعاليم)[1].

«ولهذا السبب فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو ليس مجرد كتاب صلوات أو أدعية نبوية، أو غذاء للروح، أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنه أيضاً القانون السياسي وكنز العلوم، ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل»[2].

جوانب التشريعات القرآنية:

والتشريعات القرآنية متعددة الجوانب – كما قلنا من قبل- منها: ما اصطلح على تسميته بالعبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والحج.

ومنها المعاملات: كالبيوع والإجارة، وهي ما تعرف بالقانون المدني.

ومنها الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق، ومنها التشريعات التي تتصل بالعقوبات وهي ما تعرف بالقانون الجنائي. ومنها ما يعرف بالسِّيَر وهي التي تسمى في لغة القانون العلاقات الدولية. .. إلى غير ذلك من تشريعات.

ولقد كان للقرآن الكريم السبق في تلك التشريعات. والمتأمل في أي جانب من هذه

---

(١) دراسات إسلامية، د. محمد عبد الله دراز، ص١٨.

(٢) دراسات إسلامية، ص٣١.

الجوانب وهو يقارن ويوازن بينها وبين شبيهاتها من القوانين، فسيدرك دون صعوبة أحقية التشريعات القرآنية وجدارتها بتبوء المكانة العليا، وصدق الله ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥] ومعنى قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾أي أن القرآن هو حقاً من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]. ومعنى قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾أي أن كل ما في القرآن من حقائق وتشريعات وأخبار حق لا يتطرق إليه باطل، وهو في أعلى رتب الحق لا يُجارى في قضاياه، ولا يدانيه كتاب آخر في أحكامه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وخذ أي قاعدة من القواعد التشريعية وأي باب من أبواب الفقه القرآني، لتجد مصداقية أسبقية القرآن وسمو تشريعاته، ولن نستطيع أن نقف بك على كل ماجاء في هذا الكتاب العظيم، إنما سنختار لك موضوعات من مجالات متعددة نختار نماذج من هذه التشريعات، ولنبدأ بشيء مما اصطلح عليه بالعبادات.

أولا: الزكاة:

العبادات في الإسلام ليست عبادات مجردة من روح الحياة، بعيدة عن روح الجماعة، ليست قضايا فردية يشبع الإنسان فيها رغبته الروحية فحسب، إنما هي وسائل إصلاح، ودعائم خير، تسمو بها الروح، وتصلح بها النفس، وينمو بها الفكر، ويقوم الإنسان بعناصره كلها، ثم هي بعد ذلك تنتظم ما يصلح الفرد وما ينهض بالجماعة على السواء.

إن العبادات في الإسلام لا تركز على جانب واحد، بل هي تجمع إلى الجانب الروحي والنفسي، الجانب الجماعي والاجتماعي والجانب الخلقي، لا أدل على ذلك من أن نتدبر هذه الآيات الكريمة قال تعالى في شأن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، ويقول في شأن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣] ويقول في شأن الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]، ويقول في شأن الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٩٧]. ويقول: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج:٢٨].

والدارس لكل عبادة من هذه العبادات سيدهش لهذه التشريعات الدقيقة إعجاباً وإكباراً، فالذي يخطأ في شيء منها عليه أن يجبر هذا الخطأ، ولكن بماذا؟ يجبره بما يعود على المجتمع بالخير من تفريج لمكروب، وإعانة لملهوف، ومساعدة لبائس، يقول الله في شأن ذبائح الحج: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[الحج:٢٨]، ومن أخطأ في بعض قضايا الحج، وكذلك من استفاد من التمتع بين العمرة والحج، أو جمع بينهما – أي العمرة والحج – وجب عليه أن يجبر هذا بما يعود على المجتمع بالنفع، قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾[البقرة: ١٩٦].

وهكذا في الصيام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة:١٨٤] وهكذا نجد العبادات في الإسلام لم تكن خيراً لصاحبها فحسب، بل للمجتمع كله، وسنختار لك واحده من هذه العبادات لنرى الإعجاز التشريعي فيها، وليقاس عليها غيرها بعد ذلك، وهذه العبادة التي نختارها الزكاة.

فمن المعلوم أن الزكاة أحد أركان الإسلام، وهي واجبة في المال بمقادير مختلفة، والمتأمل لهذه المقادير التي بينتها السنة المطهرة، سيلمس هذا الإعجاز التشريعي، ولا يقال: إننا نتحدث عن إعجاز القرآن، فأي شان للسنة في هذا؟ ولقد أجبت عن هذا من قبل، وهي أن السنة ليست أجنبية عن القرآن، بل هي مبينة ومفصلة له.

والزكاة هي: النماء والطهر، والبركة، والناس يعبرون عن الشيء الطيب أنه زاكي، قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[الكهف: ١٩] وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣]. والزكاة في الشرع إنما هي مال مخصوص، يؤخذ بشروط مخصوصة لأناس مخصوصين.

والناظر للتشريع في شأن الزكاة لا يتردد قيد أنملة، ولا لمحة بصر، لأن هذا الدين إنما هو دين الله، لأن البشر لا يستطيعون أن يصلوا إلى حِكَمه وأحكامه.

وأول ما يقابلك في هذا التشريع في شأن الزكاة: هذا التوازن، وتلك الوسطية، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يحقد أحد على أحد، ولا يبغي غني على فقير، ولا يحقد فقير على غني.

نظر وتأمل:

إن الناظر في مقدار الزكاة الواجبة يجده يتردد بين النسب الآتية: فهو ربع العشر تارة، ونصف العشر تارة، والعشر حيناً آخر: على اختلاف في الأشياء التي تخرج منها الزكاة، وتقل النسبة عن ربع العشر كما نجده في زكاة بعض الأموال.

ولكن نسبة الزكاة لا تزيد عن العشر، اللهم إلا في شيء واحد على قِلَّتِهِ وندرته، وهو الركاز، والركاز: هو ما دفن من أموال الجاهلية أو غيرهم من غير المسلمين، فأظهر الله بعض الناس عليه، وهو ما يُعرف عند الناس بالكنز، فهذا يُزَكَّى، ونسبة الزكاة فيه الخمس لأنه رزق جاء لمسلم من حيث لا يحتسب، ولكن جميع الأموال التي تدخلها الزكاة تتراوح نسبتها وتتردد بين العشر وربع العشر.

وهذه النسبة روعيت فيها الدقة المتناهية المنبعثة من الحكمة التي لا يعلمها إلا أحكم الحاكمين، ولنبين بإيجاز بعض ما في هذه الحكمة من روعة وسمو.

١-في الذهب والفضة وما يلتحق بهما من النقود، وما تستعمل فيه هذه النقود من تجارة على اختلافها، في هذا كله ربع العشر (٥ , ٢٪) وذلك أن النفس قد جبلت على حب الذهب والفضة وما يتصل بهما، وهي شحيحة على ذلك وصدق الله ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[النساء:١٢٨] ولذلك لم تكن مبالغة في نسبة الزكاة، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن الإنسان يبذل جُهداً، ويلقى جَهداً[1] في تحصيل الأموال، سواء كانت الطريقة لتحصيلها التجارة، أم العمل الفكري، أم العمل اليدوي، لذلك كانت الزكاة ربع العشر في أربعين درهماً درهم واحد.

٢-أما نسبة نصف العشر، فهي في المزروعات والغلة التي تنتجها الأرض، ولكن ليست أي غلة إنما في المزروعات التي لا تُسْقَى بماء السماء، ولا في أي وسيلة سهلة كالماء الذي ينزل من قناة دون تعب، ومشقة، وتكليف، وكلفة، بل تسقى هذه المزروعات بواسطة وسائل يتحمل الإنسان فيها كلفة ومشقة كالدواب أو ما يُعرف بالنواعير، وغيرها من الآلات الكثيرة، وقد يشترى هذا الماء بمبلغ من المال، ومنه الطريقة المعروفة اليوم بالتنقيط، وهي التي تستعمل فيها أنابيب معروفة، فالمزروعات إذا سقيت بهذه الوسائل، فنسبة الزكاة فيها نصف العشر.

٣-أما نسبة العشر، فهي في المزروعات كذلك، ولكنها هنا المزروعات التي سقيت بماء السماء، تلك التي لا يجد الإنسان في سقيها مشقة، ولا يبذل جهداً، ولا ينفق مالاً، وإنما سقيها رحمة من الله، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ١٠-١١] فانظروا -أرشدكم الله - إلى سمو التشريع وحكمته مزروعات يتحمل صاحبها في سقيها كلفة، ومزروعات ليست

(١) الجُهد بالضم: الطاقة، والجَهد بالفتح: المشقة.

كذلك، تختلف فيها نسبة الزكاة بين العشر ونصفه.

ومن قبل ذلك الأموال التي هي أموال التجارة، فيها ربع العشر.

كل ذلك عناية لهذا الإنسان، ورعاية تتحقق فيها مصالح الناس، حتى تصلح الحياة.

هذه الحكمة الربانية في تحديد نسب الزكاة، روعيت فيها مصالح المسلمين جميعاً، أغنياء وفقراء، وهذا ما يرتفع به هذا الدين فوق كل المبادئ التي عرفتها الإنسانية.

وإن نظرة عجلى إلى الشيوعية والرأسمالية، تجعلنا ندرك عظمة الإسلام وروعة مبادئه، وسمو تشريعاته، ونحن نجد اليوم كلتيهما تئن من حاضرها، وتراجع حساباتها، وما حملة (غورباتشوف) الإصلاحية كما يقول، وما حملته على سابقيه، ابتداء من (ستالين)[1]. وما تأرجح الاقتصاد الأمريكي الذي نجده في مثل الأيام، ما ذلك كله إلا دليل صادق على أن هذا الإنسان سيظل ضعيفاً فيما يشرع لنفسه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فالحكمة في تشريع الزكاة هدف إلى عدم التسلط على الأغنياء، والنيل منهم، وعدم محاباة الفقراء، أو تحميلهم الأذى، ومع أن الله هو الذي وهب المال لهذا الإنسان، فإنه سبحانه مع ذلك كله لم يرهقهم فيما كلفهم من نفقة هذا المال.

وهناك آية في كتاب الله تبارك وتعالى، جديرة بالوقوف أمامها وتدبرها، وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٦-٣٨].

---

(١) كتبنا هذه الفصول قبل انهيار الشيوعية واحتضارها وها هي الشيوعية قد انهزمت وتمزقت لمخالفتها الفطرة.

ولنقف مع قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ سبحانك ربنا تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء.

يبين الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة أن من رحمته أن لا يسأل الناس كثيراً من أموالهم، ولا يطلب منهم نسبة عالية من هذا المال، ويبين الحكمة من ذلك، بأنه لو طلب منهم نسبه عالية، ومبالغ طائلة كثيرة، لو أن الله تبارك وتعالى شقّ عليهم بطلب الكثير من أموالهم لبخلوا، وامتنعوا، وأبوا، ولو فعلوا ذلك لعمهم العذاب، وهذا معنى قول الله: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾أي: إن يسألكموها فيجهدكم ويشق عليكم في طلب الكثير من أموالكم تبخلوا، ولكنه من رحمته ما سألكم إلا القليل، وهذا يتفق مع واقع التشريع.

ولقد قلت من قبل: إن النسبة قد تقل عن ربع العشر، ونمثل لذلك بزكاة الغنم، فزكاة الغنم لكل أربعين شاة، أي لا تزكى الغنم إلا إذا كانت أربعين، فيجب فيها شاة واحدة، فإذا صارت خمسين أو ستين أو سبعين أو ثمانين بل صارت مئة، فإنه لا يجب فيها إلا شاة واحدة، وتبقى كذلك إلى أن تبلغ مائة وإحدى وعشرين، فيصير فيها شاتان، ولا شك أن النسبة هنا أقل من ربع العشر بكثير، وصدق الله: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾.

على أن هناك أمراً آخر يستدعي انتباه الناس ، ويوجههم إلى ما في هذا التشريع من روعة، وهو أن هذه المواشي التي تجب فيها الزكاة، يرى أكثر العلماء والأئمة أنها لا تجب فيها الزكاة إلا إذا كانت سائمة، ومعنى كونها سائمة: أنها ترعى من الكلأ الذي أنبته الله بماء السماء، وهذا معنى قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾[النحل:١٠]، فالزكاة إنما تجب في المواشي إذا كانت ترعى، تلكم هي روعة الإعجاز التشريعي في

الزكاة، وهذا قليل من كثير مما في الزكاة من أمور تستحق الدراسة.

تلكم كلمة موجزة عن سمو التشريع في هذه الفريضة، وكذلك هو في كل شيء.

عدالة التطبيق:

إن أي تشريع مهما كان فذاً، ومهما بلغ من السمو، لكي يتفيأ الناس ظلاله الظليلة، ويقطفوا طيب جناه، فلا بد من أن تتهيأ له عدالة التطبيق كذلك، فكم من مبدأ خير أُسِيْء تطبيقه، وكم من نُظُم لم تجد من يحسن العمل بها، فلم تؤتِ أُكلها، بل كانت النتائج التي أدتها نتائج عكسية على غير ما يتوقع، وعلى العكس من ذلك، قد نجد مبدأ كثير الثغرات، متعدد الهفوات والمثالب، ولكننا نجد من يحاول سد ثغراته، وتلافي أخطائه وهفواته، فلا يجد الناس فيه عسراً.

ولماذا نبتعد كثيراً عن أرض الواقع، هذا الإسلام الذي مَنّ الله به على الإنسانية، وأمر المسلمين أن يقوموا بحقه تطبيقاً وتنفيذاً، وفيه أعظم المبادئ وأروعها، فالحرية، والمساواة، والتكافل، والعدالة هذه المبادئ وغيرها التي تكفل للمجتمع المسلم سمو روح، وجودة فكر، وتهذيب نفس، ومنزلة دونها الشمس.

ولكننا مع ذلك ننظر يمنة ويسرة، فنجد المسلمين أكثر الناس تخلفاً وانحداراً، وأسفل الأمم منزلة وداراً، هذا مع الثروة الهائلة والإمكانات الطائلة.

وإن مقارنة بين الإسلام وبين غيره من الأنظمة، كالشيوعية التي لم تدم أكثر من سبعين سنة، ثم سقطت سقوطا مشيناً، أو النظام الرأسمالي، من حيث الاقتصاد والأخلاق، والفكر، تجدها كالأقزام أمام هذا الإسلام، لكننا نجد لها دولاً تحاول أن تصلح تطبيقها، وهم وإن كانوا في تطبيقهم يخطئون، فإنهم في الإصلاح لا يبطئون.

والمسلمون في سبات، أذهلم أصحاب السبت، فضيعوا العمر، والعمل، والمال، والوقت.

وتلكم مقومات الحياة في منهجها القويم، العدالة، عدالة التطبيق، لابد أن تلتقي مع المنهج، وهذا الذي وجدناه في الزكاة، فمع سمو المنهج نجد عدالة ورحمة ذوي الشأن وأولي الأمر، فلم تكن نظرتهم لصاحب المال مشبعة بالحقد، كما وجدناها عند كثيرين عندما أرادوا أن يطبقوا بعض النظريات المستوردة، فلم تكن النظرة عندهم لصاحب المال إلا نظرة إذلال، والذين عاشوا بعض التجارب في تطبيق بعض النظريات يدركون هذا كل الإدراك.

وأكتفي بإيراد مثالين من قاعدة الواقع المطبق، والتطبيق الواقعي، تظهر منهما عظمة هذا الدين وروعة القائمين على تنفيذه:

١-عن عائشة رضي الله عنها قالت: (مُرَّ على عمر بن الخطاب بغنم من الصدقة، فرأى فيها شاة حافلاً ذات ضرع عظيم. فقال عمر: ما هذه الشاة؟ فقالوا: شاة من الصدقة. فقال عمر: ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون، لا تفتنوا الناس، لا تأخذوا حَزَرات المسلمين، نكبوا عن الطعام)[١] .

٢-وعن سليمان بن يسار أن أهل الشام قالوا لأبي عبيدة بن الجراح: خذ من خيلنا ورقيقنا صدقة، فأبى، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب، فأبى عمر، ثم كلموه أيضاً، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن أحبوا فخذها منهم، وارددها عليهم، وارزق رقيقهم.

قال مالك: معنى قوله رحمه الله: (وارددها عليهم)، يقول: على فقرائهم[٢] .

---

(١) (حافلاً): مجتمعاً لبنها يقال: حفلت الشاة: ترك حلبها حتى اجتمع اللبن في ضرعها، فهي محفلة. (حزرات المسلمين) خيار أموالهم، جمع حزرة، يطلق على الذكر والأنثى (نكبوا عن الطعام): أي ذوات الدر. «الموطأ» ١/ ٢٦٧، رقم (٢٨).

(٢) الموطأ: كتاب الزكاة، باب: ما جاء في صدقة الرقيق والخيل والعسل ١/ ٢٧٧، رقم (٣٨).

جانب آخر:

وهناك جانب آخر يدل على إعجاز هذا التشريع وحكمته، ووسطية هذا الدين، وروعة هذا التوازن.

إن نظرة الإسلام للأغنياء على سموها واعتدالها، وكونها بعيدة عن التشفي والحسد، لا تتعارض في حال من الأحوال مع نظرة الإسلام للفقراء، فالفقراء والأغنياء هم جميعاً أبناؤه وبناته، والمدافعون عنه

أبي الإسـلامُ لا أبَ لي سـواهُ إذا افتخروا بقـيسٍ أو تمـيمِ

بنوه بجهادهم، حتى يظل صرحاً شامخاً يهابه الأعداء لذا فتشريعاته لهم سواء.

لذلك وجدنا عناية الإسلام بالفقراء عناية مركزة، ليس من حيث حاجاتهم المادية فحسب، بل من حيث المحافظة على كراماتهم، واستقرار نفوسهم، واستقلال شخصياتهم، فالزكاة التي يعطونها ليست منّة بها عليهم، وليست طوقاً يطوق أعناقهم، ويسلبهم أذواقهم، يهزهم ولا يعزهم، إنما هي حق لله يُعطاه أولئك الفقراء، وهم مرفوعو الرأس، أعزاء النفوس.

لقد حرّم الإسلام المن والأذى في صدقة التطوع، بل جعل ذلك مما يبطل الصدقات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[البقرة:٢٦٤] فما بالك بالزكاة المفروضة؟

ومن أجل ألا يحمّل الفقير مِنّة، وأن تتجنب نفسه الحسرة والأنة، كانت الدولة تجمع هذه الزكاة بواسطة السعاة، وهؤلاء السعاة يأخذونها من الأغنياء، ويعطونها للفقراء.

هذا من الناحية النفسية والفكرية، لا يشعر الغني أنه متفضل بالعطاء، ولايشعر

الفقير بحرج في الأخذ.

أما من الناحية المادية، فما أحكم وأروع هذا التشريع، لقد حرص الإسلام على أن يجنب الفقير ثقل المن، فيُعطى دون أن يكدره شيء.

فأولاً: هناك نظرة إلى أوضاع الفقراء، فهم ليسوا سواء، فهناك التاجر والصانع، وهناك العزيز في قومه أصابته جائحة. لابد أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة وهي أن الناس يختلفون.

وثانياً: لابد أن يعطى أولئك كفايتهم، وأقل ذلك أن يعطوا كفاية سنة واحدة، على أن بعض الفقهاء رأوا أن يعطوا ما يكفيهم العمر كله.

وأما ثالثاً فإن هذا التشريع يعمل على تحويل هذه الفئات كي تصير فئات معطية فلا يكفي أن نعطي أولئك الفقراء ما يسد رمقهم، ويشبع بطونهم، بل يجب أن نهيئ لهم ما يناسبهم من وسائل الإنتاج وما يتلاءم مع قدرتهم وأوضاعهم وأحوالهم.

تلكم هي فطرة الإسلام، وهذه هي تشريعاته وأين هذا مما نجده اليوم؟!

وهذه أمريكا تعطي بعض الدول الدائرة في فلكها من القمح والدقيق ما يكفيها أسبوعاً واحداً فحسب، فإذا انتهى الأسبوع جاءت شحنة أخرى لأسبوع آخر، وهكذا، ولك أن تتصور ما هي الأبعاد النفسية والفكرية لمثل هذا العمل؟!

الله هو المستعان، ولن يفلح المسلمون إلا إذا عرفوا أعداءهم حق المعرفة.

ومن الخير أن ننقل هنا شيئاً مما قاله الفقهاء رحمهم الله:

قال النووي رحمه الله: (في قدر المصروف إلى الفقير والمسكين، قال أصحابنا العراقيون، وكثير من الخراسانيين: يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغِنَى، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام.

وهذا هو نصٌّ للشافعي رحمه الله، واستدل له الأصحاب بحديث قبيصة بن المخارق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمَالة، فحلت له المسألة حتى يُصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش، أو قال: سِداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة،حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش – أو قال: سِداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً)[1].

رواه مسلم في (صحيحه)والقِوام والسِّداد بكسر أولها، وهما بمعنى. قال أصحابنا: فأجاز رسول الله ﷺ المسألة حتى يصيب ما يسد حاجته،

فدل على ما ذكرناه، قالوا: وذكر الثلاثة في الشهادة للاستظهار لا للاشتراط.

قال أصحابنا: فإن كان عادته الاحتراف أُعطي ما يشتري به حرفته أو آلات حرفته، قَلَّتْ قيمة ذلك أم كثرت، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يفي بكفايته غالباً تقريباً، ويختلف باختلاف الحرف والبلاد والأزمان والأشخاص.

وقَرَّب جماعة من أصحابنا ذلك فقالوا: من يبيع البقل يُعطى خمسة دراهم أو عشرة، ومن حرفته بيع الجواهر يُعطى عشرة آلاف درهم مثلاً إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها، ومن كان تاجراً أو خبازاً أو عطاراً أو صرافاً أعطي بنسبة ذلك، ومن كان خياطاً أو نجاراً أو قصاراً أو قصاباً أو غيرهم من أهل الصنائع أعطي ما يشتري به الآلات التي تصلح لمثله،وإن كان من أهل الضياع يُعطَى ما يشتري به ضيعة، أو حصة في ضيعة تكفيه غلتها على الدوام.

قال أصحابنا: فإن لم يكن محترفاً، ولا يحسن صنعة أصلاً، ولا تجارة، ولا شيئاً من

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، ٣٦-باب: من لا تحل له المسألة حديث رقم (١٠٤٤)(١٠٩).

أنواع المكاسب، أُعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده، ولا يتقدر بكفاية سنة.

قال المتولي وغيره: يُعطى ما يَشترِي به عقاراً يستغل منه كفايته.

قال الرافعي: ومنهم من يُشعر كلامه بأنه يُعطَى ما ينفق عَيْنَه في مدة حياته، والصحيح، بل الصواب، هو الأول، هذا الذي ذكرناه من إعطائه كفاية عمره هو المذهب الصحيح الذي قطع به العراقيون، وكثير من الخراسانيين أنه يُعطَى كفاية سنة، ولا يزاد؛ لأن الزكاة تتكرر كل سنة، فيحصل كفايته منها سنةً سنةً، وبهذا قطع أبو العباس بن القاص في (المفتاح) والصحيح الأول، وهو كفاية العمر)[1].

وروى الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سَلاّم بإسناده إلى عمير بن سلمة الدؤلي (أنه خرج عمر بن الخطاب- أو أخبر عميراً من كان مع عمر – قال: بينا عمر نصف النهار قائل في ظل شجرة، وإذا أعرابية، فتوسمت الناس، فجاءته، فقالت: إنني امرأة مسكينة، ولي بنون، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً، فلم يعطنا، فلعلك يرحمك الله أن تشفع لنا إليه، قال: فصاح بيرفأ أن ادع لي محمد بن مسلمة، فقالت: إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه، فقال: إنه سيفعل إن شاء الله. فجاءه يرفأ، فقال: أجب، فجاء، فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فاستحيت المرأة، فقال عمر: والله ما آلو أن أختار خياركم، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه؟ فدمعت عينا محمد، ثم قال عمر: إن الله بعث إلينا نبيه ﷺ، فصدقناه، واتبعناه، فعمل بما أمره الله به، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين، حتى قبضه الله على ذلك، ثم استخلف الله أبا بكر، فعمل بسنته حتى قبضه الله، ثم استخلفني، فلم آل أن أختار خياركم، إن بعثتك،فأد إليها صدقة العام وعام أول، وما أدري لعلي لا أبعثك، ثم دعا لها بجمل، فأعطاها دقيقاً، وزيتاً، وقال: خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر، فإنا نريدها، فأتته بخيبر، فدعا لها بجملين

---

(١) المجموع(٦/ ٢٠٢، ٢٠٣).

آخرين، فقال: خذي هذا، فإن فيه بلاغاً حتى يأتيكم محمد بن مسلمة، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول)[1].

جانب ثالث:

بعد أن تحدثنا عن جانبين سابقين، وهما نظرة الإسلام إلى الغني ونظرته إلى الفقير، وجمال التطبيق لكل من هذين الجانبين، يجدر بنا أن نتحدث عن جانب ثالث، دال على إعجاز هذا التشريع وحكمته، وهذا الجانب ليس نظرة إلى المعطي أو المعطى، ولا إلى الفقير والغني، ولكنها في هذا الجانب نظرة إلى المال المزكى:

هذا المال الذي تجب فيه الزكاة ينبغي أن يكون مالاً نامياً، سواء كان نامياً بالفعل أم بالقوة، ومعنى كونه نامياً بالفعل أن يكون مستثمراً في الواقع، ومعنى كونه نامياً بالقوة أن يكون صالحاً للتنمية، نوضح ذلك بما يأتي:

الماء يروي الإنسان، لكنه قد يروي بالفعل أو بالقوة، فإذا شرب الظمآن حصل له الرواء، وهذا معنى كونه مروياً بالفعل، أما وجود الماء في الإبريق، دون أن يكلف الإنسان نفسه لتناول الإبريق والشرب، فإن هذا الماء مُروٍ بالقوة. بمعنى أن الماء صالح للإرواء، إذا شُرِب.

ومثل الماء المال، فإذا ملك ألف دينار أو أكثر من ذلك أو أقل، واستثمرها في التجارة، واستغلها في المنفعة الحلال، فذلك مال نام، نمّاه صاحبه فعلاً، أما إذا بقي هذا المال عند صاحبه دون استثمار واستغلال، فهو نام بالقوة، وهذه عبارة من عبارات المناطقة، فمعنى المال النامي بالقوة أن يكون صالحاً للتنمية.

بعد هذا نقول: إن المال الذي تجب فيه الزكاة هو المال النامي فعلاً، أو الصالح

---

(١) الأموال: (ص٧٨٧).

للنماء،أما إذا لم يكن المال نامياً، فلا زكاة فيه، فالدار المعدة للسكنى، لا زكاة فيها لأنها ليست مالاً نامياً، والفراش الذي تنام عليه لا زكاة عليه؛ لأنه ليس مالاً نامياً، والكتب التي تقرأ فيها، ليس فيها زكاة، لأنها ليست مالاً نامياً، كذلك الثوب الذي نلبسه لا زكاة عليه، والسيارة التي نركبها، والإناء الذي نأكل فيه، وهكذا المذياع، وجهاز الهاتف، وما يعده المسلمون للدفاع عن أنفسهم.

وبالجملة فكل مال لم يعد للتنمية، ولا يصلح لها، ليس فيه زكاة، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن لا زكاة في حلي المرأة.

تلكم هي روعة الإسلام في تشريع الزكاة، وعدالة التطبيق، وإذا كنا نجد اليوم أموراً في الزكاة استحدثت وجَدَّت، ولابد فيها من اجتهاد الفقهاء، فيجب أن يكون هذا الاجتهاد مبنياً على هاتين: أعني عدالة الإسلام، وروعة التطبيق.

ثانياً: الرق:

كان الرق قبل نزول القرآن الكريم شرعة مباحة، وقضية من القضايا المتعارف عليها بين الناس، وأمراً من الأمور المسلمة في الشرائع والفلسفات والقوانين، بل قرر أرسطوطاليس – وهو الفيلسوف الذي يعدونه من أعظم ذوي العقول في هذه الدنيا، ويشيدون به وبعبقريته، وتشدو بذكره الأمم الأوروبية وغيرها – قرر أن (الرق نظام الفطرة، لأن من الناس ناساً لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء، وآخرين لا يكونون إلا أحراراً). وأين هذا من الإسلام؟ أين هذا من تقريرات القرآن السامية؟ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء: ٧٠] إلى غير ذلك من الآيات، فالقرآن الكريم قرر أن الناس سواء، خلقهم الله من نفس واحدة.

ويبين النبي ﷺ هذه الآيات الكريمة، بإشارات كثيرة في السنة النبوية، فـ(الخلقُ عيال

الله، أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)[1] (الناس سواسية كأسنان المشط)[2] و(أنتم بنو آدم وآدم من تراب)[3]، (لا ينبغي أن يبغي أحد على أحد)[4]. وهذا ما فهمه عمر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقال: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وأيّاً كان الخلاف بين الناس فلا بد أن يأخذ كلٌّ حقه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٨].

والإعجاز التشريعي في قضية الرق بيِّن المعالم. ويكفي لبيان ذلك أن نتصور اتفاق العالم كله بعباقرته ومفكريه، ومقننيه وفلاسفته، وأحباره ورهبانه، نتصور هؤلاء وهم مجمعون على أن الرق من الأمور التي تستلزمها الفطرة، ويجيء النبي الأمي سيدنا محمد ﷺ ليعلن في هذا العالم ولهذا العالم كله تشريعات جديدة من شأنها أن تعيد لهذا الإنسان حريته، وأن تقوِّم هذا الاعوجاج في حياة الناس ودنياهم، وأن تصوغ هذا الإنسان صياغة جديدة خالية من المساوئ والمثالب، وأن يكون الذي أعلنه هذا النبي تشريعاً فيه الدقة والإحكام ليس من شأن أي واحدٍ من الناس أن يقدر على هذه التشريعات، فكيف إذا كان أمياً؟ لم يبق إلا شيء واحد وهو أن هذا الذي جاء به النبي الكريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤].

ولا ندري لماذا هذه الجعجعة؟ ولماذا هذه الحملة الجائرة التي يريد أصحابها النيل من دين الله؟ ويعلم الله أنهم قد جاؤوا ظلماً وزوراً.

لقد ادعى هؤلاء أن الرق قد نمى في ظل الإسلام، وتلكم تهمة باطلة، فما هي قضية

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٥٥٤١).

(٢) أخرجه أبو الشيخ ابن حيان الأصبهاني في «أحاديث أبي الزبير» برقم (٢٣).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦).

(٤) أخرجه مسلم في أبواب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار برقم (٢٨٦٥) (٦٤).

الرق، وما هو موقف القرآن الكريم منها، وإليكم بيان ذلك؟

الأرقاء في الزمن القديم كانوا على ثلاثة أنواع:

١- أسارى حرب.

٢- الأحرار الذين كانوا يؤخذون ويسترقون ظلماً فيباعون.

٣- الذين كانوا في الرق أباً عن جد، ولا يعرف متى كان آباؤهم قد استرقوا.

فلما جاء الإسلام، كان المجتمع الإنساني في بلاد العرب وغيرها من أقطار العالم ممتلئاً بالأرقاء من هذه الأنواع الثلاثة تقريباً، وكان يعتمد النظام الاجتماعي والاقتصادي في سيره أكثر ما كان يعتمد على الخدم والأحرار)[١].

وينزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ، ومشكلة الرق قائمة لا يجد الناس فيها إشكالاً، ولكن القرآن الكريم الذي أنزله الله لسعادة البشر في الدارين، كان له الوقفة الحكيمة من هذه القضية، شأنه في جميع القضايا الإنسانية الخطيرة، فكيف عالجها؟

إن حكمة الإسلام في التدرج في الأحكام كان لها أكبر الأثر في وقاية المسلمين شروراً كبيرة، فلقد تدرج القرآن الكريم في تحريم الخمر والربا، وكان كذلك في قضية الرق، وهذا من أعظم أدلة إعجازه وكونه من عند الله.

لقد بدأ علاج القرآن لقضية الرق مبكراً، قبل أن تقوم للإسلام دولته، وهذا خير دليل على عناية القرآن بهذه القضية عناية تامة، ففي سورة البلد المكية نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣].

ولما منَّ الله على المسلمين بالنصر، وصارت للإسلام دولة، وجدنا للقرآن الكريم

---

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي، ص١٨٨.

عنايته بهذه القضية، فما هي تشريعات القرآن في هذا المضمار؟

كان باب الرق، بل أبواب الرق مفتحة، فما أكثر أسبابه، أما أبواب الحرية فكانت كلها مغلقة، وكان علاج القرآن الكريم لهذه القضية على جبهتين اثنتين:

الأولى: أن يفتح أبواب الحرية، ولكن تفتيح أبواب الحرية لا يحل المشكلة من أساسها، فكان لا بد من الجبهة الثانية، وهي تغليق أبواب الرق.

أما تغليق أبواب الرق، فلقد كان الناس يسترقون لأدنى الأسباب وأتفهها فقد يسترق السارق لسرقته، والقاتل لقتله، والمدين لدين عليه، وقد يسلب بعض الأحرار فيباعون، فما كان من القرآن الكريم إلا أن شرع لهذه الجرائم ما يناسبها، فجعل للقاتل جزاءه، وللسارق عقوبته.

أما فتح أبواب الحرية فكان له مظاهر متعددة، ومن أولها حث الإسلام الناس على العتق، كما رأينا في سورة البلد المكية، ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن رغب في فضل العتق، بل نجده يفرضه كفارة لكثير من المخالفات التي يصيبها المسلم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[المجادلة: ٣] وقال تعالى في كفارة قتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٩٢] فقد ذكرت تحرير الرقبة في هذه الآية ثلاث مرات.

وقال سبحانه في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[المائدة: ٨٩].

وهكذا يفتح القرآن الكريم أبواب الحرية، وقد يترك الأمر اختياراً للمسلمين وقد يوجبه عليهم، ولقد استجاب المسلمون لله ورسوله ﷺ، فأُعتق ألوف الأرقاء في وقت قصير، ثم صار أولئك بعد ذلك ممن يعول عليهم المجتمع المسلم في كثير من أموره ومتطلباته.

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد في علاج مشكلة الرق، بل خطا خطوات كثيرة في هذا المضمار، فجعل من أبواب الزكاة الواجبة على المسلم إعطاء الأرقاء جزءاً من مال الزكاة، ليحرروا به أنفسهم، وذكرهم في ذلك مع الفقراء والمساكين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[التوبة: ٦٠]، بل شرع المكاتبة وهي أن يطلب العبد من سيده عتقه مقابل مبلغ من المال يدفعه له، فأوجب على المسلمين أن يعطوا هذا العبد من مال الزكاة وغيرها، ليعينوه على حريته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾[النور: ٣٣].

وفي قوله سبحانه: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ سُمُوُّ التشريع، وتكريم ما بعده تكريم لهذا الإنسان، فهذا الرقيق المكاتب يجب على السيد أن يلبي رغبته إذا علمنا أن له من المهارات والقدرة ما يمكنه أن يكون لبنة صالحة في هذا المجتمع، أما إذا كان سيعيش عالة على المجتمع بعد تحريره، فليبق كلاً على مولاه، خير من أن يصير عالة على المجتمع.

ولقد كانت إرشادات النبي ﷺ في تحرير الرقيق إرشادات هادفة وهادئة، فأوجب عتق الرقبة عند ارتكاب بعض المخالفات، ورغب فيه في كثير من المواقف، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: كنت أضرب غلاماً لي، وبينما أنا كذلك سمعتُ مِن خلفي صوتاً يقول: «اعلم أبا مسعود لله أقدر عليكَ منك عليه» فالتفت فإذا هو

رسول الله ﷺ: فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: « أما لو لم تفعل للفحتك النار»[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة، ذلكم موقف القرآن الكريم من الرق، ونستطيع أن ندرك الإعجاز التشريعي إذا نحن قارنا موقف القرآن بغيره، وكيف أن هذه التشريعات جاء بها النبي الأمي ﷺ الذي لم يتل كتاباً من قبل ولم يخطه بيمينه.

ثالثاً: نظام الإرث في الإسلام:

إن نظام الإرث في شريعة الله يعد - بحق - من الإعجاز التشريعي لهذا الكتاب الكريم، وإن أدنى وقفة متأملة متأنية نقارن فيها بين ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، وبين الأنظمة في الأمم الأخرى تطلعنا على سمو التشريعات الإسلامية تلك التي جاء بها من عند الله النبي الأمي سيدنا محمد ﷺ.

ولنبدأ أولاً ببعض قواعد التوريث - كما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى - أسباب الميراث في الإسلام ثلاثة:

١- **القرابة**: وتشكل الأصول كالآباء والأمهات والأجداد، والجدات وإن علوا، والفروع من أبناء وبنات وإن نزلوا، والعصبات من الإخوة والأخوات لأبوين أو لأب على تفصيل في ذلك في كتب الفقه.

٢- **النكاح**: ويشمل توريث أحد الزوجين من الآخر.

٣- **الولاء**: ومعناه أن يرث السيد عبده الذي أعتقه، إذا لم يكن لهذا العبد من يستحق التركة من أصول وفروع.

والمتدبر لآيات الميراث في القرآن، وهي آيات في سورة النساء، يجد الدقة والإحكام والموضوعية والعدالة في تقسيم هذه التركة، وإعطاء كل واحد من الورثة ما يتناسب مع

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩)(٣٥).

حاجته أولاً، ودرجة قرابته من الميت ثانياً هذا عدا ما في الآيات من بيان موجز معجز.

ومن أبرز قواعد هذا الميراث في كتاب الله أنه لم يفرق بين الأولاد من حيث الصغر والكبر، ولم يخص الذكور دون الإناث، كما لم يخص أحد الزوجين دون الآخر، ولم يحرم الأصول، كل ما في الأمر أنه راعى قواعد تتحقق فيها العدالة، ومن الخير أن نتدبر هنا هذه الآيات قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[النساء: ١١-١٣].

فانظروا إلى هذا الإيجاز المعجز ليس إعجازاً تشريعياً فحسب، بل إعجازاً بيانياً كذلك، وقبل أن نناقش بعض الشبهات على هذه القواعد، يجمل بنا أن نذكر قواعد الميراث عند بعض الأمم، سواء كانت هذه القواعد دينية أم قانونية، ولنبدأ بالعرب في الجاهلية.

الميراث في الجاهلية:

أسباب الميراث في الجاهلية اثنان: القرابة أولاً، والحلف والمعاقدة ثانياً، وليس النكاح سبباً من أسبابه عندهم، فليس للمرأة في مال زوجها حق.

أما القرابة فإنهم كانوا يورثون الأبناء دون البنات، والكبار دون الصغار فإذا ترك الميت أولاداً ذكوراً وإناثاً، فإن الذي يرثه ابنه الأكبر، وليس لغيره من إخوته وأخواته نصيب، حتى لو كان هذا الابن بالتبني، وقد بقي الأمر على ذلك حتى أرسل الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، ودعا الناس ثلاث عشرة سنة في مكة، وبعد أن هاجر إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بسنين نَزَلَ قوله سبحانه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النساء: ٧].

أما السبب الثاني للتوريث عند العرب في جاهليتهم وهو الحلف، فكان أحدهم إذا تحالف أو تعاقد مع آخر، فإنه يرث كل منهم الآخر بعد موته، وإن كان في ذلك حرمان لأولاد كل منهما، وبقي ذلك كذلك إلى أن نزل قول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: ٧٥] ونزلت آيات المواريث تبين أنصبة التركة ومستحقيها.

وهكذا نجد أن نظام الإرث عند العرب في الجاهلية كان كله ظلماً وحيفاً وإجحافاً.

نظام التوريث عند اليهود:

رجع الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى - رحمه الله تعالى - في بيان قواعد الإرث عند اليهود إلى مراجعهم المعتبرة عندهم وخلاصة نظام الإرث عندهم يمكن أن نوجزها في هذه القواعد:

١- أسباب الميراث أربعة: وهي البنوة والأبوة، والأخوة والعمومة، ومن هنا نرى أن

الزوجة ليست من الأسباب وإن كان الزوج يرث زوجته، على حين أنها لا ترثه إذا توفي قبلها.

٢- إذا توفي الأب كان ميراثه لأبنائه الذكور وحدهم دون شريك، ويكون للولد البكري مثل حظ اثنين من إخوته الأصغر سناً منه (فهو مميز عنهم بعلة البكورة) ولكن إن اتفق مع إخوته على اقتسام الميراث بالسوية صح الاتفاق.

٣- وإذا ترك الأب المتوفى أولاداً بنين وبنات كانت التركة من حق البنين وحدهم، ولكن يكون للبنات حق النفقة على التركة حتى تتزوج الواحدة منهن أو تبلغ سن البلوغ، كما يكون للبنت أيضاً على إخوتها الذكور قيمة مهرها من التركة بقدر ما كان يظن أن يعطيها أبوها.

٤- الأم لا ترث من ابنها ولا من بنتها، وإن ماتت هي يكون ميراثها لابنها إن كان لها ابن، وإلا كان الميراث لابنتها، فإن لم يكن لها ولد، ولا بنت فميراثها يكون لأبيها إن كان، وإلا فلأبي أبيها إن كان موجوداً، وإلا فلجد أبيها.

٥- إذا توفي الابن وليس له ابن ولا بنت، كان الميراث لأبيه، إن كان موجوداً وإلا فلإخوته - إي إخوة المتوفى- الذكور، وإلا فلأخواته الإناث.

٦- للرجل حق فيما تكتسبه زوجته من كدها، وفي ثمرة مالها، وإذا توفيت ورثها، وإن كل ما تملكه الزوجة يؤول بوفاتها ميراثاً شرعياً إلى زوجها وحده لا يشاركه فيه أحد من أقاربها ولا أولادها سواء كانوا منه أم من رجل آخر.

٧- أما الزوجة فلا ميراث لها من تركة زوجها إذا توفي قبلها، حتى إذا اشترطت أن ترثه وكان له ورثة بطل الشرط، ولو حصل قبل الزواج، ولكن للزوجة الأرملة الحق في

أن تعيش من تركة زوجها المتوفى ولو كان قد أوصى بغير ذلك[1].

نظام الإرث عند الرومان:

أسباب الميراث عند الرومان اثنان القرابة وولاء العتاقة، ولم يجعلوا النكاح سبباً من أسباب الميراث، لأنه لا توارث بين الزوجين عندهم، ذلك أنه يلاحظ في نظام التوريث عند الرومان مبدآن اثنان:

أ- استبقاء الثروة في العائلات وحفظها من التفتت.

ب- المحافظة على كيان هذه العائلات وعلى سلطة أرباب الأسر.

وتطبيقاً للمبدأ الأول ورثوا أولاد الظهور دون أولاد البطون، أي ورثوا أولاد الأبناء ولم يُوَرِّثُوا أولاد البنات، كما منعوا التوارث بين الأم وأولادها، فالأم لا ترث من أولادها وذلك لأنها لو ورثت شيئاً لآل إلى أسرتها هي، وكذلك الأولاد لا يرثون أمهم، فإذا كان للأم ما ورثته من أبيها فإنه يؤول بعد موتها إلى إخوتها وأخواتها وليس لأولادها منه شيء.

ونلاحظ أن توريث الأولاد عند الرومان لا يقتصر على ما ثبت بالنسب عندهم بل يشمل أولاد الزنا أو ما كان نتيجة التبني.

مما تقدم ندرك أن مناط الميراث عند العرب قبل الإسلام كان (الرجولة والقوة) فكانوا لا يجعلون من الميراث حظاً للنساء ولا الأولاد الصغار، ولا يرث الرجل إذا مات من أبنائه إلا من أطاق القتال، ولهذا كانوا يعطون الميراث للأكبر فالأكبر، ولما نزلت آيات الفرائض قال بعضهم للرسول ﷺ: يا رسول الله: أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم، ونعطي الصبي الميراث وليس يغني

---

(١) التركة والميراث في الإسلام، د. محمد يوسف موسى، ص٤١

شيئاً[1].

وكذلك كان الأمر قريباً من هذا لدى اليهود، فقد كانت البنت لا نصيب لها من تركة أبيها - بل كلها يكون لأخيها، كما كانت المرأة بصفة عامة بنتاً أو أماً أو أختاً للمتوفى لا ترث شيئاً إن كان للمتوفى ابن أو قريب آخر من الذكور كالأخ والعم، وكذلك لا يرث أحد من الأخوة والأخوات، بل الميراث كله يكون لأبناء المتوفى الذكور، وللأكبر سناً منهم حظ الاثنين ممن دونه سناً، وإلا فللأب إذا كان موجوداً، أما الزوجة فكل ما تتركه يكون من حظ زوجها دون أولادها وأقاربها على حين أنها لا ترث زوجها في شيء.

وواضح من هذا وذاك مبلغ ظلم جنس النساء بصفة عامة، وكذلك مبلغ ظلم الأصول عند وجود أحد من الفروع لدى اليهود، مع هضم حقوق الزوجة كلها في كلا النظامين... وإنما جعل المال - وما يزال هكذا في كل زمن - لدفع حاجات المحتاجين، ولقضاء ذوي الحقوق حقوقهم، ولا أحق بالراحة والعناية من الضعيفين: الصغير الذي لا يستطيع الكسب، والمرأة التي لا تستطيع بطبيعتها مزاحمة الرجل في ميدان الحياة وكسب المال - ولذلك تقضي العدالة ألا يحرم هذان الصنفان حظهما من الميراث، وهكذا فعل الإسلام بتشريعه الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا عجب فهو تشريع العليم الحكيم.

ومن ثم جعل الإسلام لكل من أولاد الميت حظاً من الميراث ذكوراً أو إناثاً ولكل من أبويه نصيباً مفروضاً كذلك، لا فرق بين الأم والأب حتى مع وجود أبناء للمتوفى على خلاف القانون الروماني، كما جعل للأخوة ذكوراً وإناثاً نصيباً من ميراث أخيهم في الحالات التي تقتضي العدالة والحكمة أن يكون لهم فيها نصيب.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٨/ ٣٢ رقم (٨٧٢٦) سورة النساء، الآية: ١١. تحقيق الأخوين أحمد ومحمود شاكر. وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٨٢ رقم (٤٨٩٦).

ولم يكن من العدل في شيء أن يتميز الابن البكر بأخذ حظ اثنين من إخوته الأصغر سناً منه كما هو الأمر عند اليهود، ولهذا سوّى الإسلام في الأنصبة بينهم جميعاً، ولم يكن من العدل أيضاً أن تتساوى البنت مع أخيها في الميراث من أبيها كما هو الأمر في القانون الروماني والقوانين الحديث الوضعية التي أخذت عنه، ومن أجل هذا جعل الإسلام للذكر مثل حظ الأنثيين.

والزوج والزوجة يتساويان في كل شؤون الحياة، ويسند كل منهما رفيقه متاعبه، فهي له رفيق وعون في السراء والضراء، فليس عدلاً إذاً أن يحرم النظام اليهودي الزوجة من نصيب في التركة التي خلفها زوجها وأسهمت هي في تكوينها، على حين يجعل الزوج يرثها في كل ما تتركه من مال، ولذلك جعل القرآن الحكيم لها نصيباً معيناً في تركة زوجها.

وقد كان العرب يتوارثون بالحلف والمعاقدة، وقد رأينا أن الرجل كان يعقد مع الرجل - ليس بينهما نسب أو قرابة - حلفاً على التناصر، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر، ويحرم ابنه وأخوه من الميراث إذا كان لا يطيق القتال، ولا يحوز الغنيمة، فكان طبيعياً وعدلاً أن لا يقر الإسلام هذا سبباً للميراث، فإن الإسلام وحده جعل المسلمين جميعاً إخوة وربط بينهم برباط وثيق، فلا حاجة لأحلاف بها يتناصرن ويتوارثون، إذ يكفيهم الدين ورابطة النسب والقرابة.

هذا وقد كان العرب والرومان أيضاً يجعلون للولد المتبنى الحق في الميراث كالولد الطبيعي، فقد قرر القانون الروماني صراحة أن الولد من الزنا كالولد الثابت النسب من زواج شرعي صحيح، وهذا وذاك لم يرضه الإسلام كما هو معروف.

إن الإسلام نفى التبني نفياً لا لبس فيه ولا غموض، كما عمل على محو كل أثر من آثاره يوهم أن الابن بالتبني كالابن من النسب من أية ناحية من النواحي، فالقرآن يقول

في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[الأحزاب: ٤-٥].

وهذا هو الحكم العدل، إذ به ينتسب كل إلى الأب الذي نسله إن كان معروفاً أبوه، وإلا فحسب مثل هذا الولد أن يكون أخاً لكل مسلم وأن يجد منه العون والنصرة بحكم الإسلام، وهذه الأخوة العامة التي تؤلف بين قلوب المسلمين جميعاً، والله جل ذكره يقول في بعض آيات الكتاب الحكيم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠][(1)].

شبهات حول نظام الإرث في الإسلام:

وبعد هذا العرض نجد أن ما أثير حول نظام الإرث الذي قرره القرآن الكريم والسنة المطهرة من شبهات ليس إلا ظلماً لا يقوم على أساس من منطق سوي وفكر مستقيم، وهو يتنافى مع الواقع الذي تتوخى فيه العدالة، وهذه الشبهات تتلخص في اثنتين:

أولاهما: أن الإسلام جعل نصيب الأنثى أقل من نصيب الذكر.

والثانية: أن الإسلام ورث الأصول على حساب الفروع.

ونحن نعلم أن الشبهة الأولى لا ينبغي أن يقام لها وزن، فإن أكثر النظم كما رأينا من قبل تحرم المرأة حرماناً تاماً، وهذا تفريط مناف للعدالة، والقليل من هذه النظم جعلت الرجل والمرأة سواء، ولكنها مع ذلك كان فيها كثير من الثغرات، وذلك إفراط، ومن العدالة أن تجنب الإفراط والتفريط.

ونحن نعلم أن القرآن الكريم حينما جعل للذكر مثل حظ الأنثيين لم يرد من ذلك إلا إنصاف الرجل والمرأة على السواء، فالمرأة تجب نفقتها على زوجها أو أخيها أو ابنها،

---

(١) التركة والميراث في الإسلام، د. محمد يوسف موسى، ص٦٥.

وجعل لها حقاً وهو المهر الذي يدفعه الزوج، وهكذا يقدم الرجل المهر لامرأته، وتجب عليه نفقتها، وكذلك إن كان أباً أو أخاً أو ابناً، أفمن النصفة أن يقال بعد ذلك إن إعطاء المرأة أقل من الرجل فيه ظلم وحيف، سبحانك هذا بهتان عظيم.

أما الشبهة الثانية وهي توريث الأصول مع الفروع فهي كسابقتها بعيدة عن الحق والإنصاف، صحيح أن الفروع يستقبلون الحياة، وأن الأصول يستدبرونها - والآجال لا يعلمها إلا الله - لكن، هل من العدل والإنسانية والشفافية أن يحرم الآباء وهم أحنى على الميت من غيرهم، وأن يكونوا عالة؟ ما نظن ذلك يتفق مع الفطرة، على أن التشريع القرآني جعل نصيب هؤلاء الأصول أقل من نصيب الفروع.

إننا بعد المقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم من أحكام المواريث، وبين ما عرفناه عند اليهود وفي القانون الروماني وغيرهما، لا يسعنا إلا أن نقرر جازمين بأن ذلك النظام وهذه التشريعات لدليل صدقٍ وشاهد حقٍّ على إعجاز القرآن التشريعي.

إن هذه الجزئيات الدقيقة في هذا النظام، وهذا التقسيم المحكم، لم نجده في أعظم القوانين التي مرت على إصلاحها قرون طويلة من الزمن، كانت محلاً للتهذيب والتشذيب والإصلاح، وسدّ الثغرات، كما لم نجده في ديانات أصلحت فيه هذه القوانين بفعل الأحبار والمجتهدين، فإذا عرفنا أن هذه التشريعات جاء بها نبي أمي ﷺ لم يزاول القراءة والكتابة، ولم تسبق له معرفة بما كان عند الأمم من قواعد قانونية وتشريعية أدركنا عظمة هذا الكتاب وإعجازه التشريعي وتشريعه المعجز، وصدق الله ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

رابعاً: الطلاق:

كان موقف الناس من الطلاق موقفاً متناقضاً، فمنهم الذي يبيحه ويفتح الباب فيه على مصراعيه، من غير أن يكون له قواعد وضوابط، وفي هذا من المساوئ والسلبيات ما لا يحصى، ومنهم من تشدد فيه وجعله أمراً ممنوعاً محرماً مهما كان في ذلك من شقاء وضنك وضيق يعيشه الزوجان وفي ذلك من الشر العضال، والنتائج السيئة، والخروج من حصن الفضيلة، وغير ذلك من السلبيات ما لا يحصى كذلك، فما هو موقف الإسلام من هذه القضية الخطيرة؟

لم يتورع بعض الناس من خصوم هذا الدين مستشرقين أو مستغربين من أن يرموا الإسلام بسهام الحقد، وهم يعدون الطلاق من مساوئ الإسلام، وهم يزعمون أن فيه ظلماً للمرأة، وهو استبداد من الرجل، ولا نتعجل الرد عليهم، ولنضع بين يدي القارئ بعض قواعد التشريع في هذه القضية:

أولاً: الطلاق في الإسلام بدون سبب صحيح حرام لما فيه من قطع الزوجية، التي هي من النعم العظمى، ولما فيه من ضياع الأولاد، أما إذا وجد التباغض والتقاطع، ولم يكن الصلح بينهما، وغلب على الظن عدم إقامة حدود الله في الزوجية فالدواء الأخير هو الفراق فيكون حينئذ مباحاً.

ثانياً: جعل الشارع أمر الطلاق بيد الرجل، لأنه أحرص على بقاء الزوجية، وذلك لما أنفق في سبيله من المال، يصعب عليه أن ينفق مثله كلما أراد أن يتزوج هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه أشد صبراً فلا يسارع إلى الطلاق، ومن هنا ندرك السبب الذي من أجله لم يجعل الإسلام الطلاق بيد المرأة، لأن الطلاق لم يكلفها من جهة، ولأنها ذات عاطفة جموحة من ناحية ثانية.

ومع ذلك فقد جعل لها الشارع حق طلب الفسخ إذا امتنع عن الإنفاق، أو عجز، أو

غاب غيبة منقطعة، أو كان به علة تمنعه من تأدية وظيفة الزوجية، كذلك أباح للزوج أن يجعل للمرأة حق التطليق، ومع كل هذا الإصلاح والمحافظة على حقوق المرأة فقد أوجب الشارع على الزوج إذا طلق أن يدفع مؤخر صداقها إليها، وأن يقوم بالإنفاق عليها مدة العدة ولو طالت، وبإسكانها وكسوتها كما طلب منه أن يفرق الطلاق، وأن يقف عند حد محدود لا يتعداه، وهو الثلاث خشية أن تكون المرأة ألعوبة في يد الرجل.

ثالثاً: لقد فرق القرآن الكريم بين حالتين: **الأولى**: المرأة التي طلقها زوجها قبل الدخول بها، والثانية: المطلقة بعد الدخول، أما في الحالة الأولى فقد أوجب القرآن الفسخ بين الزوجين: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٩] وإنما اتخذ القرآن الكريم هذا القرار الحاسم، لأن هذه الفترة التي يعيشها الزوجان بعد العقد وقبل الدخول فترة يسودها الحب والمودة والاحترام المتبادل، فكل واحد من الزوجين يظهر أمام الآخر بمظهر جذاب فيه العطف والحنان، إن كلاً منهما يود أن يُرِيَ صاحبه الصورة المشرقة فإذا لم يستطيعا التفاهم في هذه الفترة الزمنية، وكان الطلاق، فمن الخير أن تنتهي هذه الصلة بينهما، ليسير كل في طريق، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٣٠].

والتشريع القرآني في منتهى الحكمة، وغاية السمو، فالطلاق في هذه الفترة لن يفقد كل من الزوجين فيه شيئاً كثيراً، فالمرأة لم تفقد حصن البكارة، والرجل لا يكلف إلا نصف المهر، إلا إذا تنازلت المرأة عن شيء، أو طلبت هي الطلاق، وقد حث القرآن على العفو، فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة: ٢٣٧].

أما إذا كان الطلاق بعد الدخول، فلقد جعل الإسلام ضوابط كثيرة متعددة، واحتاط له احتياطات من شأنها أن تقلل من حوادث الطلاق في المجتمع المسلم، وأذكر أننا كنا نفاجأ حينما كنا نسمع بحادثة طلاق، وما أوسع الشقة بين المجتمعات المسلمة، والمجتمعات الغربية والشرقية، التي كان الطلاق فيها محرماً، وأباحته فيما بعد، **فما هي هذه الضوابط والاحتياطات:**

١ - كان من حكمة التشريع أن يكون الطلاق مفرقاً وأن لا يقع دفعة واحدة، يقول الله سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[البقرة: ٢٢٩] وهاتان المرتان لا تقعان مرة واحدة، بل تكون التطليقة الأولى أولاً، وهي طلقة رجعية يجوز للزوج أن يراجع زوجه في أثناء العدة، وهي ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر، فإن راجعها ولكنهما لم يستطيعا المسيرة الهنيئة الهادية وطلقها مرة ثانية فإنه يمكن له أن يراجعها بعد هذه التطليقة كذلك في أثناء العدة، فإن راجعها، ولكنهما لم يستطيعا إتمام المسيرة معاً وطلقها مرة ثالثة، فإنها حينئذ تحرم عليه، ولا يجوز له مراجعتها حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ليس فيه تحايل، وفي ذلك خير للزوجين معاً ما دام كل منهما لا يسع صاحبه.

٢- إن هذا الطلاق يجب أن يقع في حالة طهر، ومعنى هذا أن الزوج لا ينبغي أن يطلق زوجه في حالة الحيض، لأنها حالة يمكن أن يكون فيها نفرة بين الزوجين، ويجب أن يطلقها في حالة طهر لا وطء فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾[الطلاق: ١].

٣- أوجب على المرأة أن تقضي العدة في بيت الزوج، وحرم على زوجها أن يخرجها من بيته، وفي هذا محاولة لكي يفكر كل من الزوجين ملياً قبل أن يقرر فصم عرى الزوجية، فقد يكون وجودها في بيته سبباً لمراجعة نفسه، وبالتالي الإقلاع عن إنفاذ

الطلاق، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق: ١].

ونلحظ أنه قد كثر في سورة الطلاق - وهي التي تسمى سورة النساء الصغرى تمييزاً لها عن سورة النساء - كثر فيها الحث على التقوى، وبيان ما أعد الله للمتقين من خير في الدنيا والآخرة، وذلك كله من أجل تذكير الأزواج بما يجب عليهم، نقرأ هذه الآيات في السورة الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾[الطلاق: ٢] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[الطلاق: ٥] ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٧] فقد حرم الله على الأزواج والأولياء الإضرار بالنساء، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾[البقرة: ٢٣١] وهذا خطاب للأزواج، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٢] وهذا خطاب للأولياء.

ذلكم هو تشريع الطلاق في كتاب الله تبارك وتعالى، وهناك تفصيلات كثيرة في السنة المطهرة، فقولوا لي بربكم: أي تشريع من تشريعات البشر، يمكن أن يصل سمواً وعدالة إلى هذا التشريع، إنه والله الإعجاز التشريعي، والتشريع المعجز، وصدق الله ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩].

وأكتفي بهذه الموضوعات التي ذكرتها، على أن الإعجاز في القرآن الكريم يظهر في كل مجال من مجالات التشريع، يظهر فيما حرمه القرآن الكريم، سواء كانت هذا المحرمات في المطاعم والمشارب كالميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر أم كانت في مجال الاجتماع كالزنا والقذف، أم في مجال الاقتصاد كتحريم الربا، كما يظهر ذلك الإعجاز في المعاملات، وإن من يتدبر آية الدين وغيرها من الآيات التي نظمت الشؤون المالية، يجد

حقيقة الإعجاز في كل قضية من هذه القضايا، كذلك من يتأمل الآيات التي نظمت شؤون الجهاد وعلاقة المسلمين بغيرهم، يجد العدالة المعجزة، وصدق الله العظيم ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١] وصدق الله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩].

الفصل الرابع

أخبار الغيب في القرآن الكريم

نذكر في هذا الوجه مبحثين اثنين:

الأول: أخبار القرآن عن الأمم السالفة.

الثاني: أخباره عن أحداث المستقبل.

المبحث الأول

أخبار القرآن عن الأمم السالفة

قد يقول بعض الناس: لم جعلتم هذا من وجوه الإعجاز مع أن هذه قضايا تاريخية يتناقلها الناس بعضهم عن بعض؟

ونقول لهؤلاء المتسائلين: إن ما قلتموه حق لا ينازع فيه أحد، ولكن شتان بين ما ذكرتم وبين أمر هذا القرآن الكريم، فحوادث التاريخ ليست وقفاً على أحد من الناس دون أحد، فقد يتناقل أجيال من الناس حادثة معينة، خبراً له شأن أو قصة عجيبة، أو حادثة ذات أثر، ولكن الذي جاء في كتاب الله تبارك وتعالى ليس من هذا القبيل، فأخبار الأمم في القرآن الكريم جاء بها النبي ﷺ من عند الله، وهو أمي باتفاق محبيه ومبغضيه، وأوليائه وأعدائه، وأصحابه وخصومه.

لم يقرأ كتب الأولين، ولم يجلس لمعلم يقص عليهم قصصه ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨-٤٩].

ثم إن الأخبار التي جاءت في كتاب الله تعالى، وجاء بها القرآن كان بعضها حديثاً عن

أهل الكتاب، وبعضها عن غيرهم.

أما أخباره عن أهل الكتاب فكان منها ما لم يعرفه أهل الكتاب أنفسهم، وكان منها ما عرفوه ولكن على غير حقيقته، فجاء القرآن الكريم ليصحح لهم هذه المعرفة، ويبين لهم وجه الحق، ويدلهم على وجه الصواب.

وأما ما كان حديثاً عن غير أهل الكتاب، فكان بعضه عن العرب الأولين، وبعضه الآخر عن غيرهم، وهذا وذاك كان كثير منه جديداً على العرب، لم يستمعوا إليه إلا من القرآن الكريم، وكان بعضه الآخر مما كانوا يعرفونه معرفة غير سليمة، فجاء كتاب الله تبارك وتعالى يجلي لنا الحق في هذه الأخبار كلها، يقول الله تعالى بعد أن بين قصة نوح عليه الصلاة والسلام في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: ٤٩].

ويقول في ختام قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف: ١٠٢]، ويقول بعد الحديث عن نبأ موسى عليه الصلاة والسلام في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٤-٤٦].

ويقول بعد الحديث عن قصة مريم - رضي الله عنها -: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ويبين لأهل الكتاب كثيراً مما اختلفوا فيه، ويصحح لهم كثيراً مما اشتهر بينهم، فيقول

سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[النمل: ٧٦] ويقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فمن قضايا التاريخ التي ذكرها القرآن وصححها إطلاقه على حاكم مصر (الملك) مع أنهم كانوا عرفوا بالفراعنة فيما بعد، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[يوسف: ٥٤] وذلك لأن لقب فرعون جاء بعد يوسف عليه السلام.

وذكره البعير في رحلة إخوة يوسف إلى مصر، فقال سبحانه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] مع أن الكتب القديمة ذكرت أن وسيلة النقل كانت الحمر.

والمتأمل في قصص القرآن، والمتدبر لآياته يدرك أن ما جاء به القرآن الكريم مجملاً تارة ومفصلاً تارة لا يمكن أن يكون إلا من خبر السماء، فكان حرياً أن يعدّ وجهاً من وجوه الإعجاز.

على أن ما جاء في القرآن الكريم، وبخاصة أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كان من أعظم الأدلة على صدق الوحي، وصدق النبي ﷺ لأنه لم يكن فيه ما يشين هذه الصفوة المختار مما لا يليق بمكانتهم ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١].

المبحث الثاني

إخبار القرآن بأمور من غيب المستقبل

لقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات تنبئ عن أمور لم تكن قد وقعت، ولقد وقعت كما أخبر القرآن عنها لم يتخلف منها خبر، من ذلك:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٢] ولقد كان كما أخبر عنه القرآن الكريم.

٢- ما طمأن الله به رسوله ﷺ من أنه سيعصمه من الناس، ويمنعه من كل من أراد قتله، فلقد بذل اليهود والمنافقون ما يستطيعون، وقاموا بأكثر من محاولة، ولكن الله حفظ نبيه ﷺ منهم، وهذا ما جاء صريحاً في الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

٣- وعد الله أن يحفظ هذا القرآن الكريم من أن يطرأ عليه أي تغيير، أو يناله أي تبديل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وكان ما أخبر عنه القرآن الكريم، وصدق الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧].

٤- ما أخبر به القرآن الكريم من نصر نبيه ﷺ، ونصر المؤمنين، وتمكين دينهم لهم، واستخلافهم في الأرض، وتبديل خوفهم أمناً، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١- ١٧٣].

٥- ما وعد الله به نبيه ﷺ من دخول مكة، ودخول المسجد الحرام، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص: ٨٥] وقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ٢٧].

٦- وعد الله المسلمين مغانم كثيرة من أعدائهم، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[الفتح: ١٨-٢١].

٧- وعد الله للمسلمين أن يهزم عدوَّهم، فقال سبحانه في شأن اليهود: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[آل عمران: ١١١-١١٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأعراف: ١٦٧].

وإننا لنؤمن بهذه الآية إيماناً قوياً، لا يتزحزح من قلوبنا قيد أنملة، ولانتزحزح عنه قيد شعرة، من أن اليهود سيسامون سوء العذاب، مهما علا باطلهم، ومهما تمادوا في غيهم ومهما بذلت أمريكا وغيرها لهم، فسيتحقق وعد الله ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٦].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٧] والمخاطبون هم اليهود، والذي

نختاره ونراه في تفسير هذه الآية الكريمة أن الآخرة في الآية وهي المرة الثانية لإفساد اليهود، ليست شيئاً غير واقعنا الذي نعيشه الآن، فهي تتحدث عن اليهود بعد أن كان لهم دولة، ولم يحدثنا التاريخ عن دولة لليهود في عهد المسلمين إلا هذه، فلا بد أن تتقوض أركانهم، ونسوء وجوههم، وندخل المسجد الأقصى، ويتبرون شر متبر، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾[الإسراء: ١٠٤-١٠٧].

٨- ما ذكره القرآن الكريم وهو يحدثنا عن يهود وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا وأينما وجدوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس والذي نفهمه من هذه الآية الكريمة ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: ١١٢] أن اليهود لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم، وليس بوسعهم أن يحيوا حياة العزة والمنعة، وأنهم محتاجون دائماً إلى حليف يحميهم، ونصير يشد على أيديهم.

ونحن نجد أن وعد الله تبارك وتعالى يتحقق، فهاهم اليهود اليوم يعولون في مسيرتهم وبقاء دولتهم على كثير من قوى البغي، وفي مقدمتها أمريكا التي تمدهم بكل المقومات المادية من سلاح ومال وغذاء، وبكل المقومات المعنوية كذلك، ولا يجهل أحد من الناس موقف أمريكا وغيرها في مجلس الأمن وهيئة الأمم، هذا كله يندرج تحت قوله سبحانه ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ولعل سائلاً يسأل هذا (حبل الناس) عرفناه، فماذا عن حبل الله؟ ونجيب السائل عن هذا التساؤل بما يبدو لنا من الآية الكريمة، وهو أن حبل الله تبارك وتعالى، يكون لهؤلاء

اليهود حينما يتنكب المسلمون الصراط، ويعرضون عن حكم الله وهديه، فليس حبل الله لليهود دليلاً على حب الله لهم، بل هو عقوبة للمسلمين وتذكرة لهم ليرتدعوا عن إعراضهم، وليرجعوا إلى الله، ولتحيا كلمات الله في نفوسهم، وليسد شرعه حياتهم كلها، ذلكم هو حبل الله وحبل الناس، وهو بحق - ويعلم الله - إعجاز في هذه الآية الكريمة أظهر من الشمس في رابعة النهار.

ويتصل بهذا ما أخبر به عن يهود من تسلط الأمم النصرانية عليهم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[آل عمران: ٥٥].

والمتدبر للآية الكريمة يجد أنه قد ذكر فيها ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مرتين، الأولى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾والثانية: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ والذين كفروا في المرة الأولى هم اليهود يقيناً، فهم الذين ناصبوه عليه الصلاة والسلام العداء، وقد نجاه الله منهم، وإذن (فالذين كفروا) في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ هم اليهود كذلك. فالآية الكريمة تبين لنا أن تسلط الأمم النصرانية على اليهود أمر مستمر، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فما لاقاه اليهود من الأمم النصرانية على مدى التاريخ من الشدة والقسوة والإيذاء والتعب والاحتقار لا يجهله أحد، ولا ينكره اليهود أنفسهم.

وفي هذه الأيام التي يظهر أن لليهود فيها دولة، لا ينكر أحد هذه الفوقية، فاليهود لا زالوا في أمسّ الحاجة إلى هذه الأمم والحكومات لبقاء دولتهم، وإلى أن يقضي الله أمراً مفعولاً عندما يهيئ الله لهذه الأمة من يرفع فيها علم الجهاد، ليدكوا دولة الباطل ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[الإسراء: ٧]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[الإسراء: ٥١].

٩- وإذا كان هذا وعداً بهزيمة عدو المسلمين من اليهود، فلقد وعد الله المؤمنين كذلك أن يهزم عدوهم من مشركي العرب، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[الفتح: ٢٢].

١٠- وعيد الله سبحانه لأهل مكة ومن شايعهم في بدر ما سيلاقونه يوم بدر، فقال سبحانه: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر: ٤٥]، وهذه الآيات نزلت في مكة ولذا روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه قوله: (ما عرفت الجمع الذي تتحدث عنه الآية إلا يوم بدر).

وقال سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[الطور: ٤٥-٤٦] والمقصود بهذا يوم بدر.

ومن عجيب أمر القرآن الكريم، أن هاتين الآيتين من سورة الطور جاءتا بعد قوله سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾إلى آخر الآيات [الطور: ٢٩-٤٦] فقد ذكرت (أم) في هذه الآيات خمس عشرة مرة، وكانت غزوة بدر في السنة الخامسة عشرة من البعث النبوية، حيث مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، وكانت بدر في السنة الثانية للهجرة، فهذه خمس عشرة سنة.

١١- ما تحدى الله به اليهود من تمني الموت إن كانوا أولياء الله، وإن كانت الدار الآخرة خالصة لهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧] وكان ما أخبر عنه القرآن الكريم.

١٢- ما أخبر الله به عن أهل مكة في سورة الدخان من أنه سيأخذهم بالسنين،

ويذيقهم لباس الجوع والخوف، وذلك قوله سبحانه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[الدخان: ١٠-١٦] والبطشة الكبرى هي ما أصابهم يوم بدر، أما الدخان المبين فيبينه ما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: (إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[الدخان: ١٠-١١] قال: (فأُتِيَ رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله: استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، قال: لمضر؟ إنك لجريء. فاستسقى لهم فسقوا. فنزلت ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٥-١٦] قال يعني يوم بدر[1].

١٣- ما أخبر الله به عن فارس والروم وذلك في قوله سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾[الروم: ١-٤] ولقد تحقق الخبر القرآني، وفي المدة التي أخبر عنها القرآن الكريم.

١٤- ما أخبر الله به نبيه ﷺ مما سيحدث لأهل مكة بعد إخراج النبي ﷺ منها، فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٦].

١٥- ما هدد الله به المنافقين، والذين في قلوبهم مرض من أنهم إن لم ينتهوا عما هم فيه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب يغشى الناس هذا عذاب أليم، رقم ٣١٠، رقم الحديث (٤٥٤٤) (٤/ ١٨٢٣).

فإنهم سيلقون سوء صنيعهم وذلك في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

١٦- ما أخبر الله به في هذا القرآن من كشوف في آفاق هذا الكون، وآفاق النفوس البشرية، قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣].

١٧- ما أخبر الله به عن مكنونات في هذا الكون، ونبهت عليها بعض آيات القرآن، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص: ٨٨].

١٨- ما فضح الله به المنافقين، مما كانوا يخفونه في أنفسهم، فأظهره الله سبحانه وأطلع نبيه ﷺ، وبينه للمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ٦٤] وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[التوبة: ٧٤] والمتدبر للآيات الكريمة يجد أن الله تبارك وتعالى كان يطلع نبيه ﷺ على ما يخفيه المنافقون واليهود والذين في قلوبهم مرض.

ونرجو أن يكون ما ذكرناه فيه غنية.

هذه بعض أنباء الغيب في كتاب الله تبارك وتعالى، ولقد تحقق كل ما أنبأ عنه القرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الإسراء: ١٠٥].

الفصل الخامس

الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي

لست مولعاً بتكثير وجوه الإعجاز القرآني مع إيماني بأن كل ما فيه معجز ولكن مع ذلك يحتم علينا ويتطلب منا البحث العلمي أن نعرض لبعض القضايا التي ذكرت في كثير من الكتب التي تحدثت عن إعجاز القرآن، ومن هذه الأوجه الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي، هل كل واحد منهما مستقل في الإعجاز أهما وجه واحد أم وجهان لكل منهما مفهومه ومعناه؟ تساؤلان لا بد من البحث عنهما والإجابة عليهما، ولكن بعد أن نستعرض ما قيل في هذا الموضوع.

ذكر بعض الكاتبين أن الإعجاز النفسي له أكثر من مظهر منها: الحديث عن النفس الإنسانية، ومنها تأثير القرآن في النفس الإنسانية، ومنها تمزيق القرآن لحواجز النفس الإنسانية[1]، ويقيننا أن لا شيء من هذه المظاهر يطلق عليه أنه إعجاز نفسي.

أما تمزيق القرآن لحواجز غيب النفس - كما ذكر الشيخ الشعراوي-[2]، فهذا في الحقيقة ليس إعجازاً نفسياً، وإنما يدخل في وجه آخر هو أخبار القرآن الكريم عن الغيوب، وقد تحدثنا عن هذا قبل قليل.

وأما حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية، سواء من حيث طبيعتها المزدوجة لأنها مادة وروح، أم من حيث استعدادها المزدوج كذلك للخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] ويتفرع عن هذا مكابدته في هذه

---

(١) البيان في إعجاز القرآن - الخالدي - ص٣٣٨

(٢) المعجزة (١/ ١٠٨).

الحياة، وإغواء الشيطان له، وتزيين الشهوات، فليس هذا كذلك من الإعجاز النفسي في شيء ذلكم لأن هذا حديث عن النفس الإنسانية فيه تصوير وتحذير، حث على الخير، وتنفير من الشر.

إن حديث الأطباء عن جسم الإنسان وما فيه من عجائب، إنما هو شرح لحقيقة الجسم، كذلك حديث القرآن الكريم عن النفس هي معلومات يجدها كلٌّ منا في نفسه، لكن القرآن الكريم يرغب ويرهب، يبشر وينذر، يعد ويحذر، إن ذلك لا يعد إعجازاً نفسياً.

بقي مظهر واحد وهو تأثير القرآن في النفس الإنسانية، وهذا كذلك لا يسميه العلماء إعجازاً نفسياً، بل هو إعجاز روحي كما ستعرفونه إن شاء الله.

وإذا لم يكن الإعجاز النفسي شيئاً من هذا كله، فما هو الإعجاز النفسي - إذن - كما يراه العلماء؟

لعل من المفيد هنا أن نذكر أن الدراسات الأدبية الحديثة تتخذ أكثر من وجهة، ومن هذه الوجهات الوجهة النفسية، ويعنون بها دراسة النص الأدبي، دراسة يحللون من خلالها نفسية الكاتب، أو التي تحدث عنها الكاتب، وهذه الوجهة مع إيجابياتها، لكن لها سلبيات كثيرة، إذا كاد الناس يغفلون فيها كثيراً من العناصر الجمالية في النص الأدبي، وذلك لطغيان الجانب النفسي، ولعلكم بدأتم تدركون الآن ما يقصده العلماء من الإعجاز النفسي، فما هو الإعجاز النفسي في كتاب الله، بعد أن أشرنا إلى الوجهة النفسية في الأدب.

الإعجاز النفسي في آي القرآن الكريم، والقرآن كما نعلم جاء لتربية النوع البشري تربية تامة عامة كاملة شاملة، أقول الإعجاز النفسي هو ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده

من بيان لمكنونات النفس وخفاياها، ودوافعها في آي القرآن الكريم، قد يكون ذلك في القصة القرآنية، وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء المسلمين، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد يكون في الآخرة كذلك، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم، بينة الاتجاه، لا تهمل جزئية، ولا تنسى مشهداً.

وإذا كان العلم اليوم قد تقدم كثيراً في ميدان صور الأشعة، كما نجد ذلك في الصورة الطبقية وغيرها، التي تطلعنا على خفايا الجسم في أجهزته المختلفة، وأجزائه الدقيقة فإننا نجد الآية من القرآن الكريم تطلعنا على مضمرات هذه النفس وخفاياها، وإنك لتقرأ الآية من كتاب الله وتتدبرها، فلا تغادرها إلا وأنت أمام صورة محكمة دقيقة لهذه النفس، وتلك - ويعلم الله - خاصية هذا الكتاب الكريم، ولا نود أن نفصل القول هنا في هذا الوجه حتى لا يتسع الكتاب، وقد ذكرناه مفصلاً في كتاب إعجاز القرآن المجيد[1].

وإنما نود هنا أن نتوسع في ذكر الإعجاز الروحي.

فالإعجاز الروحي هو ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن العظيم على النفوس هيبة وحلاوة، ورغبة ورهبة، ولا يعرف كتاب في الدنيا كلها له من الأثر على تاليه ومستمعه، كما لهذا القرآن، حتى أولئك الذين لا يدركون معانيه، ولا يفهمون ألفاظه، نجدهم يتأثرون بهذا القرآن، وصدق الله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ

---

(١) كان - رحمه الله - ينوي بعد عودته من العمرة، أن يكمل هذا الكتاب ويكتب في هذا الوجه، لكن روحه فاضت إلى بارئها، بمجرد أن وضع قدمه في السيارة التي كانت ستحمله ووالدتي -أطال الله في عمرها- إلى المطار رحمه الله رحمة واسعة. توفي رحمه الله يوم الأربعاء السادس من ربيع الأول من عام ١٤٣٢هـ الموافق التاسع من شباط سنة ٢٠١١م، عن عمر يناهز ٧٩ سنة وصُلِّي عليه في مسجد الزميلي في عمان بعد صلاة الظهر يوم الخميس العاشر من شباط، ودفن في المقبرة الإسلامية في سحاب.

جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣] وصدق الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨].

ولعل أول من نبه على هذا الوجه في القرآن الكريم الإمام الخطابي رحمه الله، يقول رحمه الله:

(قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً[١]).

وقد علمنا أن الخطابي لم يقتصر على هذا الوجه، ولكنه ذكره مع وجوه أخرى، وأهم هذه الوجوه التي ذكرها الخطابي بلاغة القرآن وبيانه، وقد مر معنا هذا من قبل.

وإذا كان الخطابي - رحمه الله - جعل الوجه الأهم في إعجاز القرآن بلاغته وبيانه، ولم يهمل الإعجاز الروحي، فلقد رأينا بعض الكاتبين المحدثين جعل هذا الوجه أهم وجوه الإعجاز، وكل ما عداه يقصر عنه، ومن هؤلاء المرحوم محمد فريد وجدي يقول:

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٧٠.

(حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته فكتبوا في ذلك فصولاً ضافية الذيول، وبعضهم خصها بالتأليف، وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس، فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حدَّ الإعجاز بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال عليه في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه، حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ تواردها عليها.

وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً، ولكنه معجز لتسلطه على النفس والمدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان ولا يزال للقرآن على عقول الآخذين به.

العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢] فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحرك ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها.

إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان (روحانية) يدركها من لاحَظَّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، ألا ترى إلى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما إذا أراد التالي أن يغشهما؟

هذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس في صفحة كبيرة، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور

وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ.

هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بها، أما ظهورها للعارف فبين لا يحتاج لبيان، وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبتأثيرها ونتيجتها)(1).

مناقشة هذا الوجه:

نحن لا ننكر تأثير القرآن على النفوس، فتلك قضية بدهية، ولكن الذي نناقشه هنا، أن نعد هذا الوجه وجهاً منفصلاً عن بيان القرآن وبلاغته، وبديع نظمه، وإذن فنحن ننكر أن نعدّ هذا الوجه الأول من وجوه الإعجاز فوق بلاغته وبيانه، والذي نراه جديراً بالقبول أن هذا الوجه ناشئ عن بلاغة القرآن، وعلو شأنه، وبديع نظمه، وترتيب حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، وجمله في آياته، وآياته في سوره.

ولنا من واقعنا خير دليل على ما نقول فقد نستمع إلى الشعراء فنتأثر بهم ونعجَب بما يقولون، ولكننا نجد لأحدهم في قصيدته أو أبيات منها ما لا نجده لغيره، وقد نستمع إلى الخطباء فيهز أعطافنا ومشاعرنا أحدهم أكثر من الآخرين، وهكذا ونحن نقرأ لكُتّاب القصة والمقالة.

وحينما نبحث عن سبب ذلك كله، فلن نجد سبباً مقنعاً، إلا ما وُفِّق إليه أحدهم من حسن الديباجة، واختيار الألفاظ، وجرس الكلمات، واقتناص المعاني، وترتيب الجمل.

وإذا كان ذلك واضحاً في كلام الناس، فإن كلام الله تبارك وتعالى، وهو في أعلى طبقات البلاغة حري أن يكون له ذلك الأثر، وصدق الله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١] وصدق الله ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين (٧/ ٦٧٥).

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[الرعد: ٣١][1].

فالإعجاز الروحي - إذن - إن أردنا أن نعده وجهاً من وجوه الإعجاز فهو ناشئ عن الصبغة البيانية السامية، والأسلوب الرفيع، والنظم البديع.

وإذا كان هذا يصدق على الإعجاز الروحي، فإنه يصدق على الإعجاز النفسي، إن الإعجاز النفسي، والإعجاز الروحي كليهما ناشئان عن الصبغة البيانية للقرآن الكريم التي تتمثل في أصوات حروفه وترتيبتها في كلماته، ونظم هذه الكلمات في جمله.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) انظر البيان القرآني - د. محمد رجب البيومي - ص٢٤٧.

الفصل السادس

ما يسمى بالإعجاز العددي

ظهر في هذه الأيام أكثر من كتيب يتحدث عن إعجاز القرآن العددي، وقد رأينا في حديثنا عن وجوه إعجاز القرآن السابقة أنها ذات فوائد كثيرة تتصل بواقع الإنسان، وواقع الحياة، فما من وجهٍ من الوجوه السابقة التي تحدثنا عنها إلا وله دلالات تهذب النفس وتسمو بالروح، وتفجر كثيراً من طاقات العلم، ورأينا أن كثيراً منها من شأنه أن يسعد الناس، إن هم نفذوه وطبقوه تطبيقاً عملياً صحيحاً.

وخلاصة القول: أن وجوه إعجاز القرآن السابقة التي تحدثنا عنها كان لكلٍّ منها صبغة عملية، وإشارات وفوائد تكشف عن مضمرات النفس، ومضمرات الكون، تجلوها الآيات الكريمة.

ولكن ما يسمى بالإعجاز العددي، مع إعجاب كثير من الناس به، لا تجد له تلكم الفوائد العملية، وذلكم الأثر الواقعي الذي من شأنه أن يهذب النفس، ويظهر مضمراتها، أو يطلعنا على أسرار الكون، إنه أقرب ما يكون إلى الترف العقلي المجرد، وإني لأعجب من كثير من الكاتبين الفضلاء الذين أرادوا أن يجعلوا للإعجاز العددي - كما يقولون - أصلاً في تراثنا الإعجازي، وقرروا أن أئمتنا من الأوائل تحدثوا عن هذا الإعجاز، واستندوا فيما قرروه إلى ما ذكره الإمام الباقلاني، ومن بعده الزمخشري - رحمهما الله تعالى-.

والمتأمل لكلام هذين الإمامين يجد البون الشاسع بين ما قرروه، وبين ما حمل عليه كلامهما فيما بعد. أما الإمام الباقلاني، فعند حديثه عن وجوه إعجاز القرآن ذكر وجوهاً

ثلاثة: إخبار القرآن بالغيب، وإخباره عن الأمم السابقة، مع أمية الرسول ﷺ وبديع نظمه وعلو شأوه في البلاغة، وقد ذكر لهذا الوجه الأخير معاني عشرة، التاسع منها أن فواتح السور في القرآن الكريم ذكر فيها أربعة عشرة حرفاً، وهي (الألف، والحاء، والراء، والسين، والصاد، والطاء، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء) وقال: إن هذه الحروف جمعت صفات الحروف المعروفة عند اللغويين، وصفات الحروف التي تحدث عنها اللغويون وعلماء التجويد هي سبع عشرة صفة وبعضها صفات لها أضداد وهي عشر: الجهر وضده الهمس، والشدة وضدها الرخاوة، والاستعلاء وضده الاستفال، والإطباق وضده الانفتاح، والإذلاق وضده الإصمات. والتي ليس لها أضداد: القلقة، والتفشي، والتكرار، والانحراف والصفير، والاستطالة واللين، ولا حاجة بنا لتعريف هذه الصفات، فهي معلومة لكل الذين درسوا مبادئ التجويد.

فالإمام الباقلاني يقول: إن هذه الحروف في فواتح السور لم تهمل فيها أي صفة من الصفات، فقد ذكر فيها من الحروف المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها وهكذا إلى آخر الصفات.

وأما الإمام الزمخشري فعند حديثه عن قوله سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾في أول سورة البقرة يبين آراء العلماء في هذه الحروف، ويختار أنها جاءت للتحدي والتنبيه، ويتحدث تفصيلاً عما تحدث عنه الباقلاني من قبله.

هذان الإمامان – إذن – ذكرا هذه القضية عند حديثهما عن البيان القرآني والبلاغة القرآنية، ثم لم يتعرضا من قريب أو بعيد لقضية العدد، أفيجوز بعد ذلك أن نحمل كلامهما فوق ما يحمل، وأن نفسره بما هو بعيد عن قصدهما، وأن نقولهما ما لم يقولاه؟

ولا أدري لماذا يحاول بعض الناس تكثير وجوه الإعجاز، ولو كان في ذلك التكلف

والتمحل، والقرآن - ولله منزله الحمد - غني بوجوه الإعجاز الظاهرة الواضحة معالمها، المتعددة عوالمها، والنص القرآني ثري معطاء:

فإذا وقف رجل البيان أمام آياته يستجلي صورها التعبيرية وتراكيبها، وخصائص هذا التركيب، وجد معانيها تنساب كأنها جدول عذب يترقرق، وألفاظها تتسق كأنما هي نغمات عذبة تتدفق حيوية وجمال إيقاع، وإذا وقف أمامها عالم الفقه والاجتماع ليستجلي ما فيها من حِكَم وأحكام، وجد النظام البديع والقيم الإنسانية الخالدة والأحكام التي لا يصلح النوع الإنساني إلا حينما يعيش في ظلالها، وإذا وقف أمامها الفيلسوف ورجل العقيدة وعالم الأخلاق والباحث في أسرار الكون، فإنها تمد هؤلاء جميعاً بقواعد مما يطلبون، أقصى مما تصل إليه نتائج أبحاثهم القائمة على أساس من البحث العلمي والمنطق السوي، أما إذا أراد أن يعالجها من يتلمس فيها عوجاً ويتصيد مطعناً، فإنه يرد خائباً مدحوراً ويرجع بخفي حنين خاسئاً وهو حسير.

نظرية التسعة عشر:

وبعد فلا بد أن نقف وقفة قصيرة مع أصحاب الإعجاز العددي، وعلى وجه الخصوص مع ما كتبه الدكتور محمد رشاد خليفة، وقد ركز على العدد (تسعة عشر) وسنكتفي هنا ببعض الملحوظات:

١- يقول إنها استوقفته فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ﴾، فوجد المفسرين مجمعين على قولهم (الله أعلم بمراده) استوقفته هذه الأحرف أربع سنين، وهذا افتراء على المفسرين، والحق أن قلة منهم هم الذين قالوا هذا القول، أما أكثرهم والمحققون منهم فقد فسروا هذه الأحرف تفسيرات متعددة.

٢- يرى أن أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس الأولى من سورة اقرأ، ثم القلم، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة، وهذا غير صحيح

كذلك، فإن الأحاديث الصحيحة والسياقات القرآنية تدل على أن الذي نزل بعد آيات العلق الآيات الأولى من سورة المدثر.

٣- يقول إن قوله سبحانه: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدثر: ٣٠] المقصود به (بسم الله الرحمن الرحيم) لأن حروفها تسعة عشر حرفاً، وهنا مناقشتان اثنتان الأولى أننا لا نسلم أن عدد أحرف البسملة تسعة عشر حرفاً، والثانية أنه ليس صحيحاً أن هذه الآية تتحدث عن البسملة، وإنما تتحدث عن سقر: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدثر: ٢٦-٣٠] إن القرآن الكريم عربي غير ذي عوج، وكل محاولة للخروج عن ذلك فهي شطط ولجج، إن كون الضمير في قوله: (عليها) يرجع إلى سقر من الأمور البدهية، وأي خروج عنه فهو إلحاد في آيات الله، وصدق الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾[فصلت: ٤٠] وإذا كان ما قبل هذه الآية ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾يدل دلالة بينة على ما قلناه، فإن ما بعدها يدل دلالة بينة كذلك، وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المدثر: ٣١] وأصحاب النار هم الزبانية التسعة عشر، وعدتهم أي كونهم ذكروا بهذا العدد.

٤- يدعي الكاتب أن هذا العدد مضطرد في الحروف النورانية وهي التي ذكرت في فواتح السور، وهنا مناقشتان اثنتان كذلك:

الأولى: من أين هذه التفرقة بين الحروف، وتقسيمها إلى نورانية وغير نورانية، إن هذه التفرقة وهذا التقسيم لم يرد في خبر صحيح عن النبي ﷺ، ولم يرو كذلك عن الصحابة أو التابعين أو تابعيهم رضي الله عنهم.

أما المناقشة الثانية: فما معنى أن يطرد هذا العدد ببعض الحروف دون بعض.

٥- إن من المعلوم بداهة أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف، وأن هناك قراءات

متواترة لا يفضل بعضها بعضاً، ونجد في هذه القراءات المتواترة كلمات ذكرت في بعضها وحذفت من بعضها الآخر، وكلمات ذكرت على صورة من النطق في قراءة، وذكر غيرها في أخرى، فمن القسم الأول ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣] وهناك قراءة متواترة ﴿ما كنا لنهتدي﴾-أي بدون حرف الواو- وهي قراءة ابن عامر، وقوله وفي الآية نفسها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وفي قراءة ﴿تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

ومن القسم الثاني نقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: ٦] وفي قراءة ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ ومنه ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾[البقرة: ٢٥٩] وفي قراءة ﴿ننشرها﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[الشمس: ١٥] وفي قراءة ﴿ فلا يخاف﴾، ماذا نقول يا ترى في هذه الكلمات التي ذكرت في قراءة تارة وحذفت أخرى أو ذكر بعضها في قراءة وغيرها في أخرى؟ لا ريب أن نظام العدد سيختل عقده على بعض القراءات، وهذا كثير في كتاب الله.

٦- إن الفواصل القرآنية جاءت حسب نظام دقيق تتلاءم مع السياق والمعنى، وفيها إعجاز بياني فذ، فلا يجوز أن يقال: إن كلمة (رحيم) في قوله: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٦] جاءت ليتم بها العدد المقصود، والآية التي قبلها ختمت بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٥] فلماذا لم تختم كل من الآيتين بما ختمت به الأخرى؟ إن ذلك انحراف عن أهداف القرآن البيانية والموضوعية!

٧- إن كلمات القرآن مثل فواصله جاءت كل كلمة منها لتؤدي رسالتها التي لا تؤديها غيرها، ووظيفتها التي لا تصلح لها إلا هي، والقول بأن هذه الكلمات جاءت من أجل أن يتم بها نظام العدد قول يتنافى مع سمو القرآن ورفعته وبيانه، ولعل أقوى ما استدل به الكاتب الآية الكريمة ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾[ق: ١٢-١٣] قال إنه لم يقل: (قوم لوط) حتى يكون حرف القاف في السورة الكريمة متسقاً مع العدد تسعة عشر ولو قال: (وقوم لوط) لكانت هناك قاف زائدة.

إن المتدبر للقرآن الكريم يجد أنه لم يحفل كثيراً بالقضايا الشكلية إلا إذا كان لها دلالة على المعنى، وهذه عظمة القرآن البيانية، وقد بينا ذلك في حديثنا عند الإعجاز البياني، فأن يستبدل القرآن كلمة بأخرى حتى يحافظ على عدد معين لحرف معين قضية غير مسلمة في كتاب الله.

والذي يبدو لي في الآية الكريمة أن هذه الكلمة (إخوان) ذكرت، ولم تذكر كلمة (قوم) لأمرين اثنين:

الأول: يتصل بجرس الكلمة، وقد علمنا من قبل ما لجرس الكلمات من أثر، وتحدثنا عن موسيقى اللفظ عند حديثنا عن الرافعي، وأستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمهما الله، ونحن نجد للكلمة القرآنية، سياقة خاصة، وصوتاً خاصاً ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وإن هذا الجرس سيتلاشى لو قيل (وعاد وفرعون وقوم لوط) وما أعظم الفرق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة (ص) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ [ص: ١٢-١٣] ولنحاول أن نضع كلمة إخوان هنا بدل كلمة قوم، ولننظر كيف سيتغير الجرس، ويذهب هذا التغيير بما للآية من إيقاع مؤثر، وذلك إن قيل (وثمود وإخوان لوط).

الثاني: إن قوم لوط هم الذين أرسل إليهم لوط عليه الصلاة والسلام، وكذبوه فقلب الله بهم قراهم رأساً على عقب، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، أما إخوان لوط فيمكن أن يكونوا إخوته، وأستأنسُ لهذا التفسير بما جاء في

سورة العنكبوت من أن أبانا إبراهيم عليه السلام حينما دعا إلى الله كذبه قومه، ولم يؤمن به إلا لوط عليه الصلاة والسلام ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت: ٢٦]. وإن قبلت هذا التفسير فإن الكلمة القرآنية هنا (إخوان) تكون ذات دلالة واسعة ومفهوم أعم، ولذلك شواهد كثيرة من كتاب الله.

إن هناك كتباً كثيرة كتبت في الإعجاز العددي، كما سماها أصحابها، وبعد اطلاع على هذه الكتب، ومع حسن نية كثير من مؤلفيها حيث لم يعرف عن كثير منهم ما عرف عن الدكتور محمد رشاد من انتماء لنحلة باطلة، حيث ظهر أنه بهائي، والبهائية يركزون على هذا العدد (تسعة عشر).

ولقد ظهر على حقيقته فكان حرباً على الإسلام والمثل والقيم، ولقد حدثني الأستاذ عمر الصوباني وهو في أمريكا بأن رشاد خليفة كان في آخر أيامه قبل أن يقتل قد كتب بعض الرسائل فكان فيها حرباً على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واتهمهم جميعاً بأنهم هم الذين يفرقون بين البشر، وكان لا يطيق أن يسمع أي آية تثني على أي نبي منهم ويخاصة على نبينا محمد ﷺ مثل قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٨-١٢٩] كان لا يطيق أن يسمع هذه الآية وأشباهها بل كان ينكر أنها من القرآن فإذا ثبت ذلك فإنه كافر.

ذلكم هو الذي خُدِعَ المسلمون فيه، وأذكر أنني حينما كنت في دولة الإمارات في أبي ظبي وجاء هذا الرجل وألقى محاضرة في الإعجاز العددي، وكانت أول مرة يتحدث عنها للناس، أُعجِب الناس فيه أيما إعجاب، وقد سمعت من كثير من الإخوة المصريين إطراء عليه وعلى أبيه الذي كان شيخاً لإحدى الطرق الصوفية.

والحق أن المسلمين يجب أن يكونوا حذرين يقظين لا تخدعهم الظواهر والمظاهر، إن هذا المنحرف جاء إلى الناس من الطريق التي يحبون، وهو ذو نحلة باطلة، ولقد حَذَّرَنا سيدنا رسول الله ﷺ فيما أخرجه الشيخان من أن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ فيقول: الله، حتى إذا استوثق الشيطان منه قال: من خلق الله؟ فإذا رأيتم هذا فاستعيذوا بالله من الشيطان(١)، كذلك كان صاحب الإعجاز العددي.

أما أولئك المؤلفون فلم يعرف عنهم إلا الغيرة على دين الله، ولكن مع هذا، وقد اطلعت على كثير من هذه الكتب، وجدت أنها لا تخلو عن تكلف، وأن من الخير عدم المغالاة في هذه القضية، نعم يمكن أن نفيد من ذكر الكلمات في القرآن الكريم قلة وكثرة، فوائد بيانية موضوعية، تتصل بواقع الحياة، كما قالوا: إن الله ذكر في أول سورة البقرة المؤمنين بآيات ثلاث والكافرين بآيتين، والمنافقين ببضع عشر آية لنحذر النفاق.

وهكذا نوظف قضية كثرة الكلمات وقلتها وظيفة يكون لها في حياتنا أثر طيب، وأختم هذا البحث بكلمة طيبة للأستاذ نعيم الحمصي يقول: (ترى أيهما أهم وأولى لترغيب غير المسلمين في الإسلام، أن نعرض عليهم سمو معانيه، وعظمة تشريعاته، وصحة مقولاته العلمية التي توافق كلها العلم الحديث، أم هذا العدد الحرفي الجاف؟ رأيي أن مناداة الإسلام بالمساواة بين البشر، وبالحرية والإخاء، ولفت النظر إلى إدراك عظمة الكون، أهم جداً من النظام العددي التسعة عشري)(٢).

هذه أهم أوجه الإعجاز التي تحدث عنها الكاتبون. والحقُّ أن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم بعيد عن أن يبلغ أحد من الناس غايته، أو أن يدرك أحدهم نهايته، إنما تبدو وتظهر منه شذرات ولمحات، لكل واحد منهم بقدر شاءه الله سبحانه وتعالى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق.

(٢) فكرة إعجاز القرآن ص٢٩٢.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[الرعد: ١٧].

وتلكم حكمة عظيمة من حكم الله العلي الحكيم، ليظل هذا القرآن جديداً على مدى الدهر ينير لهذا الإنسان حياته في طرقها وشعابها، ووهادها وليلها المدلهم، كما تنير لهم الشمس، لكن الشمس تفقد من ضوئها كل يوم، أما القرآن فإن معانيه تتجدد، فما أبعد الفرق بين نيرين أحدهما تنقص جوهره الأيام، والآخر يزداد مع الأيام تألقاً ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء: ١٠٦].

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله يختم كل شيء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعليهم جميعاً وعلى آله وصحبه كذلك، ومن تبعهم بإحسان وآلهم وحوارييهم كذلك، أما بعد:

فهذا ما يسره الله – فله الحمد والمنة – لنا في هذا الكتاب راجين أن نكون قد وفينا بما وعدنا من جودة في العرض، ويسر في الأسلوب.

ويعلم الله أننا حاولنا ما استطعنا أن نجنب القارئ الكريم كل وعورة وصعوبة، فعند عرضنا لأقوال السابقين من أئمتنا رحمهم الله – وقد كان أسلوبهم لعصرهم كما نعلم – حاولنا أن نبسط أسلوبهم ليكون سهل التناول والهضم، مع دقة وأمانة، كما حاولنا أن نبتعد بالقارئ الكريم عن كل ما فيه تكلف، وعملنا ما استطعنا أن تكون الأمثلة العملية التي ذكرناها مما يمس حياتنا مساً مباشراً، ولقد تضمن الكتاب كل ما ورد في الخطة الدراسية، ولا ندّعي أننا وَفَّيْنا الموضوع ما يستحقه، فتلك غاية لا يبلغها إلا الخاصة.

ولكننا بذلنا ما اتسع إليه الجهد أو كاد، وما يمكن أن تبلغه الطاقة أو تكاد، ونرجو أن يجد القارئ فيه مثقفاً ومدرساً وطالباً بغيته.

ورجاؤنا أن لا يضن علينا القارئ الكريم، بما يجده من ملحوظات، فكلنا بشر، وكلنا نتعلم، وصدق الله العظيم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] ونحن أولى من سيدنا عمر رضي الله عنه بهذا القول (رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوب نفسي).

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، وسائقنا وقائدنا إليك إلى جناتك جنات النعيم مع الذين أنعمت عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩].

والله نسأل أن ينفع به ويأجر عليه، وأن يجعله لنا ولوالدينا وأهلنا ذخراً ونوراً، والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وأزواجه، أمهات المؤمنين وذرياته وآل بيته كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وأزواجه أمهات المؤمنين وذرياته وآل بيته كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

قائمة المراجع

١- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، شركة ومطبعة عيسى البابي الحلبي (١٣٥٨هـ- ١٩٣٩م).

٢- الإسلام في عصر العلم، الأستاذ محمد أحمد الغمراوي - إعداد الأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، دار الكتاب الحديثة.

٣- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعرفة، مطبعة المعارف بمصر.

٤- الإعجاز الطبي في القرآن - السيد الجميلي، مكتبة الهلال - بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م).

٥- إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف / مصر (١٩٦٣م).

٦- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة / د. منير سلطان - منشأة المعارف بالإسكندرية.

٧- إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض، محمد محمود إبراهيم، طبعة ممفيس في مصر (١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م).

٨- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة التاسعة (١٣٩٣هـ ١٩٧٣م).

٩- الأموال/ أبو عبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق خليل محمد هراس، مكتبة الكليات الأزهرية.

١٠- أنوار المشكاة في أحكام الزكاة/ د. فضل حسن عباس/ دار الفرقان.

١١- البلاغة تطور وتاريخ/ د. شوقي ضيف - الطبعة الثانية - دار المعارف، مصر.

١٢- بصائر جغرافية/ رشيد رشدي العابري. المطبعة الأهلية - بغداد (١٣٧٠هـ- ١٩٥١م).

١٣- بلاغة القرآن في أدب الرافعي / د. فتحي عبد القادر فريد.

١٤- البلاغة والتطبيق. د. أحمد مطلوب، د. حسن البصير/ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العراق - الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).

١٥- البيان في إعجاز القرآن / د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار.

١٦- البياني القرآني/ محمد رجب البيومي، مجمع البحوث الإسلامية (١٣٩١هـ - ١٩٧١م).

١٧- البيان والتبيين / لأبي عمرو عثمان بن الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون/ دار الجليل.

١٨- بين الطب والإسلام/ د. حامد الغوابي - دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة (١٩٦٧م).

١٩- تأويل مشكل القرآن/ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق سيد صقر - دار إحياء التراث العربي - عيسى البابي الحلبي.

٢٠- تاريخ آداب العرب/ الأستاذ مصطفى صادق الرافعي/ الطبعة الثانية (١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م)، مطبعة الاستقامة.
٢١- التركة والميراث في الإسلام / د. محمد يوسف موسى – دار المعرفة، الطبعة الثانية (١٩٦٧م).
٢٢- التصوير الفني / سيد قطب – دار الشروق.
٢٣- تفسير جزء عم الإمام محمد عبده.
٢٤- تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي.
٢٥- تفسير الفخر الرازي، (التفسير الكبير) الطبعة الأولى – ملتزم الطبع عبد الرحمن محمد – مصر ميدان الأزهر.
٢٦- تفسير القرآن الكريم – الأستاذ محمود شلتوت – دار القلم.
٢٧- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) محمد رشيد رضا – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الثانية.
٢٨- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق د.محمد زغلول سلام ود. محمد خلف الله – دار المعارف بمصر.
٢٩- جامع البيان في تفسير القرآن – الإمام محمد بن جرير الطبري – الطبعة الأولى (١٣٢٤هـ).
٣٠- الجمان في تشبيهات القرآن/ أبو قاسم عبد الله بن محمد بن الحسين ابن باقيا البغدادي، تحقيق عدنان زرزور ومحمد الداية، المطبعة العصرية بالكويت، سنة ١٣٨٧هـ ١٩٧٧م. طبعة أولى.
٣١- خلق الإنسان بين الطب والإسلام/ د. محمد علي البار – الدار السعودية للنشر والتوزيع/ الطبعة الثانية (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
٣٢- دائرة معارف القرن العشرين/ محمد فريد وجدي/ دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثالثة (١٩٧١م).
٣٣- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة/ موريس بوكاي.
٣٤- دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية/ د. محمد عبد الله دراز- دار القلم- الطبعة الثانية (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤).
٣٥- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله / المنسوب للخطيب الإسكافي- دار الأفاق الجديدة بيروت – الطبعة الثانية (١٩٧٧).
٣٦- دفاع عن البلاغة – الأستاذ أحمد حسن الزيات / مطبعة النهضة (١٩٦٧م).
٣٧- دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – الناشر مكتبة الخانجي القاهرة- مطبعة المدني.
٣٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ أبو الفضل محمود الآلوسي – إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الثانية.

٣٩- صحيح البخاري/ الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – تحقيق د.مصطفى ديب البغا – دار القلم، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ- ١٩٨١م).

٤٠- صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي.

٤١- الظاهرة القرآنية/ مالك بن نبي – ترجمة عبد الصبور شاهين – تقديم الأستاذ محمود شاكر، مكتبة دار العروبة/ مطبعة الجهاد، الطبعة الثانية (١٩٦١م).

٤٢- الفروق اللغوية/ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري/ تحقيق حسام الدين القدسي- طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، (١٤٠١هـ ١٩٨١م).

٤٣- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة المحمدية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق/ نعيم الحمصي – مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ ١٩٨٠م).

٤٤- في ظلال القرآن / سيد قطب – الطبعة الخامسة (١٣٨٦هـ).

٤٥- القاموس المحيط / للفيروز آبادي/ مؤسسة الرسالة.

٤٦- القرآن العظيم وهدايته/ د. محمد الصادق عرجون- دار الاتحاد للمطبعة، منشورات مكتبة كليات الأزهر (١٣٨٦هـ١٩٦٦م).

٤٧- القرآن محاولة لفهم عصري/ د. مصطفى محمود – دار الشروق (١٩٧٠م).

٤٨- القرآن وإعجازه العلمي / محمد إسماعل إبراهيم – دار الفكر العربي للطباعة والنشر.

٤٩- القرآن والعلم/ أحمد محمود سليمان – مطبعة دار الشروق/ الطبعة الأولى (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م).

٥٠- القرآن والعلوم/ سعيد ناصر الدهان- مطابع النعمان، النجف الأشرف- الطبعة الأولى (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

٥١- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته – الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٥٢- قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ د. فضل حسن عباس، دار البشير (١٩٨٧م).

٥٣- القول السديد في علم التوحيد/ الأستاذ محمود أبو دقيقة.

٥٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ مطبعة دار الاستقامة- القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م).

٥٥- الكون والإعجاز العلمي للقرآن/ د. منصور محمد حسب النبي – دار الفكر العربي (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٥٦- لطائف المنان في روائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن / الدكتور فضل حسن عباس، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م) دار النور.

٥٧- متشابه القرآن أو أسرار التكرار في القرآن/ محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق أحمد عطا، طبعة دار الاعتصام – الطبعة الثانية (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).
٥٨- المثل السائر – ابن الأثير، طبعة البابي الحلبي (١٩٣٩م).
٥٩- المجموع شرح المهذب/ محيي الدين بن شرف النووي، الناشر زكريا علي يوسف، مطبعة الإمام بمصر.
٦٠- مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن/ الدكتور محمد عبد الله دراز/ ترجمة محمد عبد العظيم علي – دار القلم (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).
٦١- المسند – الإمام أحمد بن حنبل – المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت، الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).
٦٢- معاني القرآن – زكريا بن يحيى الفراء – عالم الكتب بيروت، الطبعة الثانية.
٦٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن/ جلال الدين السيوطي- تحقيق البجاوي دار الفكر العربي.
٦٤- معجزة القرآن / الشيخ محمد متولي الشعراوي- مكتبة دار التراث الإسلامي – القاهرة، الطبعة الأولى (١٩٨٨م).
٦٥- المعجزة الكبرى الشيخ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي للطباعة والنشر (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
٦٦- معجم مقاييس اللغة/ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الثانية (١٣٨٩هـ ١٩٦٩م) مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٦٧- مع الطب في القرآن الكريم / عبد الحميد ذياب وأحمد قرقوز – مؤسسة علوم القرآن دمشق، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
٦٨- المغني في أبواب العدل والتوحيد/ القاضي عبد الجبار الهمذاني، جـ ١٦- قوم نصوصه أمين الخولي، طبعة دار الكتب، الطبعة الأولى (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م).
٦٩- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (١٣٨١هـ ١٩٦١م).
٧٠- الموافقات في أصول الشريعة / لأبي إسحاق الشاطبي – المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الشرق الأدنى.
٧١- الموطأ – الإمام مالك بن أنس – تحقيق محمود فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م).
٧٢- النبأ العظيم/ الدكتور محمد عبد الله دراز – مطبعة السعادة بمصر.
٧٣- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي – تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات أبو علي- دار الفكر – عمان (١٩٨٥م).

المجلات:

- مجلة الثقافة في مصر للأستاذ علي عبد الواحد (١٩٧٣م).
- مجلة لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة.
- مجلة لواء الإسلام، العدد العاشر، السنة الثانية، مقال الأستاذ عبد الوهاب حمودة.
- مجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٥، (١٩٦٦).
- مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٤، (١٩٦٨).
- مجلة المسلمون، شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله، العدد الأول، السنة الأولى.
- المجلة الثقافية – الجامعة الأردنية مقال بعنوان (الإعجاز البياني لبنت الشاطئ- للدكتور فضل حسن عباس، العدد السادس (١٩٨٥م).

الأبحاث:

- بحث: الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية للدكتور فضل حسن عباس، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، قطر، العدد الرابع (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- بحث: رسالة الرماني النكت في إعجاز القرآن (تحليل ونقد) مجلة دراسات، المجلد السادس عشر، العدد العاشر (١٩٨٩م).
- بحث: قضية التكرار في كتاب الله – الدكتور فضل حسن عباس، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – الكويت، السنة الرابعة، العدد السابع، شعبان (١٤٠٧هـ - نيسان ١٩٨٧م).
- بحث: سلامة الحرف من الزيادة والحذف – الدكتور فضل حسن عباس – مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية / الكويت، السنة الرابعة، العدد التاسع، ربيع الآخرة (١٤٠٨هـ - ديسمبر ١٩٨٧م).

الفهرس

المقدمة ٥
وقد جاء الكتاب في تمهيد وبابين ٦
تمهيد: حاجة الناس إلى الرسل عليهم السلام وتأييدهم بالمعجزات ٩
المعجزة........ ١١
ويستمر الكاتب في التدليل على ما ذهب إليه من الأحاديث الشريفة........ ١٤
وما ذكره الكاتب الفاضل يوجد عليه أكثر من ملحظ علمي، إليكم بيان ذلك........ ١٤
المعجزة اصطلاحاً ٢٠
شروط المعجزة ٢٠
الفرق بين المعجزة والكرامة........ ٢٢
الفرق بين المعجزة والسحر........ ٢٢
توخي الحكمة في المعجزة ٢٣
بقاء معجزة النبي ﷺ........ ٢٤
إعجاز القرآن........ ٢٧
متى ظهرت كلمة إعجاز........ ٢٧
وجوه الإعجاز ٢٨
التحدي........ ٢٨
مراحل التحدي ٣٠
دراسة هذه المراحل........ ٣١

الباب الأول

تاريخ الإعجاز ٣٥
الفصل الأول: جهود الأقدمين........ ٣٥
الدور الأول: دور الإشارات........ ٣٨
النَّظَّام........ ٣٨
الجاحظ ٤٠

ابن قتيبة.. ٤١
الواسطي.. ٤١
الدور الثاني: دور الرسائل ٤٢
أولاً: النكت في إعجاز القرآن للرماني ٤٢
وجوه الإعجاز عند الرماني.. ٤٢
شرح موجز لوجوه الإعجاز.. ٤٣
ثانياً: بيان إعجاز القرآن للخطابي ٤٥
أولاً: بدأ الخطابي رسالته «بيان إعجاز القرآن» ٤٥
ثانياً: وجوه إعجاز القرآن.. ٤٦
ثالثاً: الوجه المختار في إعجاز القرآن.. ٤٨
الدور الثالث: دور الكتب ٥٢
١ - كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ٥٢
وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني... ٥٣
٢- القاضي عبد الجبار الهمذاني ٥٨
٣- عبد القاهر الجرجاني.. ٦٢
نظرية النظم.. ٦٣
قيمة الفصاحة ٦٣
عناصر الكلام ٦٥
معنى النظم.. ٦٦
الجانب الأول: رده على أنصار اللفظ.. ٧٠
الجانب الثاني: القواعد التطبيقية لنظرية النظم ٧٢
وجه إعجاز القرآن عنده ٧٦
٤ - الإمام محمود بن عمر الزمخشري.. ٨١
الفصل الثاني: المحدثون والإعجاز ٨٥
١ -إعجاز القرآن للرافعي.. ٨٧
أسلوب القرآن.. ٩٠
نظم القرآن ٩٠

الأصوات الثلاثة ٩٢
موقف الرافعي من القول بالصَّرْفَة ٩٣
٢- أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله وكتابه النبأ العظيم ٩٥
إبطاله للصرفة ١٠٠
النظام الصوتي في القرآن ١٠١
ويحدد مراتب أربعاً ليتحدث عنها وهي ١٠٢
القرآن في قطعة قطعة ١٠٣
خصائص أسلوب القرآن ١٠٣
الإيجاز والإطناب ١٠٦
رده القول بالزياده ١٠٧
القرآن في سورة سورة منه ١٠٧
طريقة القرآن في الجمع بين الآيات ١٠٨
٣-الإعجاز القرآني عند سيد قطب ١١٠
إعجاز القرآن عند سيد قطب ١١٠
الإعجاز البياني: (الكلمة القرآنية) ١١١
مميزات الأسلوب القرآني وخصائصه ١١٢
نظرية التصوير الفني ١١٤
خصائص التصوير الفني ١١٤
أولاً: التخييل الحسي ١١٤
ثانياً: ومن خصائص التصوير التجسيم ١١٥
ثالثاً: التناسق الفني ١١٦
القصة في القرآن ١١٨
سيد قطب والإعجاز العلمي ١٢١
الإعجاز التشريعي عند سيد قطب ١٢٥
٤-الإعجاز البياني في القرآن / بنت الشاطئ ١٢٨
البلاغيون والإعجاز ١٣٠
٥-الشيخ محمد متولي الشعراوي ١٣٧
٦-موريس بوكاي ١٤٢

أولاً: قضية خلق السموات والأرض ١٤٤
ثانياً: قضية الفلك ١٤٦
ثالثاً: الأرض وما يتصل بها ١٤٧
رابعاً: حديث القرآن عن النبات والحيوان ١٤٧
خامساً: الطوفان ١٤٧
سادساً: الخروج من مصر ١٤٩
قصة يوسف عليه السلام بين القرآن والتوراة ١٥٣

الباب الثاني

وجوه الإعجاز ١٥٥

الفصل الأول: الإعجاز البياني ١٥٩

أهمية الإعجاز البياني ١٦٠
الكلمة القرآنية ١٦١
قيمة الكلمة في العصور السابقة ١٦٢
خصائص المفردات القرآنية ١٦٥
القيم التي تعطيها الكلمة القرآنية ١٦٦
التغاير بين الكلمتين له دلالاته العظيمة ١٦٧
أولاً: دعوى الترادف في القرآن ١٦٧
فوائد تحديد معاني الكلمات ١٦٩
لا ترادف في كتاب الله تعالى ١٧٠
كلمات يظن أنها مترادفة ١٧٠
ثانياً: استعمال الألفاظ المختلفة في المواضع المتشابهة ١٨٢
ثالثاً: رسالة الحرف في كتاب الله تعالى ١٨٧
استعمال الأحرف المختلفة في أماكن متشابه ١٨٨
حذف الحرف وذكره ١٩٣
رابعاً: الجملة القرآنية ١٩٩
أ- التأكيد ٢٠٠

ب – الحذف والذكر ٢٠٤
ج – التقديم والتأخير.. ٢٠٨
الأنموذج الأول: المغفرة والرحمة ٢١٠
الأنموذج الثاني: العلم والحكمة.. ٢١٠
الأنموذج الثالث: المغفرة والحلم.. ٢١١
خامساً : الفاصلة القرآنية ٢١٧
سادساً: قضية التكرار ٢٢٤
سابعاً: القول بالزيادة.. ٢٣١
الفصل الثاني: الإعجاز العلمي.. ٢٣٩
هل يمكن أن تفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً؟ وهل هناك إعجاز علمي؟ ٢٣٩
أولاً: المانعون من الأقدمين ٢٤٢
ثانياً: المانعون من المحدثين ٢٤٥
جوانب الخطأ في هذا الاتجاه.. ٢٤٧
الأستاذ محمود محمد شاكر ٢٤٨
المثبتون للإعجاز العلمي.. ٢٤٩
أولاً: الأقدمون.. ٢٤٩
١-الإمام الغزالي ٢٤٩
٢-الإمام الرازي.. ٢٤٩
ثانياً: المحدثون ٢٥٠
١-الإمام محمد عبده.. ٢٥٠
٢-الشيخ محمد رشيد رضا ٢٥٢
٣-الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.. ٢٥٣
٤-الدكتور محمد عبدالله دراز ٢٥٤
٥-الأستاذ عبد الوهاب حمودة.. ٢٥٦
٦-الأستاذ محمد أحمد الغمراوي ٢٥٦
رأينا في التفسير العلمي ٢٦٢
نماذج من التفسير العلمي.. ٢٦٦

خلق الإنسان.. ٢٦٦
أطوار خلق الإنسان ٢٦٦
علم الفلك.. ٢٧٢
البرازخ المائية.. ٢٧٨
الفصل الثالث: الإعجاز التشريعي ٢٨٣
الإعجاز التشريعي ٢٨٥
كيف نفهم الإعجاز التشريعي للقرآن ٢٨٦
جوانب التشريعات القرآنية ٢٨٩
أولاً: الزكاة ٢٩٠
عدالة التطبيق ٢٩٦
ثانياً: الرق.. ٣٠٣
ثالثاً: نظام الإرث في الإسلام ٣٠٨
الميراث في الجاهلية.. ٣١٠
نظام التوريث عند اليهود ٣١٠
نظام الإرث عند الرومان ٣١٢
رابعاً: الطلاق ٣١٧
الفصل الرابع: أخبار الغيب في القرآن الكريم.. ٣٢٣
المبحث الأول: أخبار القرآن عن الأمم السالفة.. ٣٢٣
المبحث الثاني: إخبار القرآن بأمور من غيب المستقبل ٣٢٦
الفصل الخامس: الإعجاز النفسي والإعجاز الروحي ٣٣٣
الفصل السادس: ما يسمى بالإعجاز العددي.. ٣٤١
الخاتمة ٣٥١
قائمة المراجع ٣٥٣
الفهرس ٣٥٩